

# هذا الكتاب

هذا الكتاب ( دعوة إلى الله ) ليس موجهاً للمسلمين فقط ، وإنما كما هو ظاهر من عنوانه ، إلى جميع العقلاء من بني البشر ، بقطع النظر عن أديانهم ومللهم وأجناسهم وألوانهم .

ولأن الله سبحانه وتعالى ، وهو رب العالمين ، وخالق الخلق ، وباسط الرزق ، والمحي المميت ، ومالك الملك بلا شريك ولا منازع ، ولا ظهير ولا مساعد ، فمن البديهي أن يكون المدعوون إليه على الصعيد الإنساني هم جميع بني الإنسان .  
ولأن هذا الكتاب ( دعوة إلى الله ) ، هو موجّه لجميع الأخوة في الإنسانية بدون أي استثناء ، على اختلاف شرائعهم ونظمهم الحياتية وعاداتهم وتقاليدهم ، فهو لن يتعرض للتشريع ولا للشرائع لا من قريب ولا من بعيد ، وإنما هو سيكون دعوة إلى الإيمان بالله ، بقدرته وإحاطته وهيمنته على الكون جملة وتفصيلاً ، وإلى تعميق هذا الإيمان وصولاً إلى أعلى درجات اليقين ، وبذلك يعرف التوحيد ، وعظمة التوحيد ، وأزلية التوحيد وسرمديته .

فإذا فهم الإنسان كل ذلك ، بصفاء و يقينية ، أحبّ الله الحب الأعظم ، وإذا ملأ قلبه بهذا الحب لم يعد لأي مخلوق مكان يحتله في هذا القلب القدسي ، ولا لأي شأن من شؤون الدنيا وحتى من شؤون الآخرة ، يغدو القلب كله لله وبالله وفي الله ، لله مملوكاً ، وبالله قائماً ، وفي الله مملوءاً ومغموساً بنوره نور النور .

والمرء محبوب على طاعة من يحب ، ومحبول على أن يفديّه بأعز ما يملك ،  
بروحه وبنفسه وببدنه ، فإذا فعل كان الله بعزته هو العوض وهل أعظم من ذلك وهل  
أروع ، وهل أبهى وهل أجمل؟!!

وهكذا يصل الإنسان مرتفعاً إلى منازل القرب من الله جلّ جلاله ، يرتقيها  
منزلةً منزلةً ، مروراً لا بد منه ، مروراً اضطرارياً بالطاعات والإبتلاءات ، طاعة من  
يجب وخضوعاً لامتحان بعد امتحان ودروس ودروس ، وعبر ، كل ذلك في رعاية  
وعناية من يجب ، الحبيب الأعظم ، مالك الملك ، ذي الجلال والإكرام .

فإذا صلح المجتمع البشري ، المجتمع العالمي برمته ، كان هو المطلوب :  
استجابة جميع البشر حاكمين ومحكومين ، لأحكام الله وتعاليم الله ، التي هي أولاً  
وآخرأً وظاهراً وباطناً لمصلحة البشرية أفراداً ومجتمعات .

وإذا لم يستجب المجتمع العالمي ، نظاماً واحتكاماً ، لعزة الله ، ولرحمته وحبه  
، فإن ذلك لن يضير المحبين ، الصالحين ، الأصفياء الأنقياء شيئاً .  
{ كُئِلُ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } و { .. كُئِلُ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } .

والحمد لله رب العالمين ، عليه توكلت وإليه أنبت ، وهو حسبي وإليه المصير

عبد الكريم آل شمس الدين  
لبنان . جبل عامل . عربصاليم

1

دعوة إلى الله

تحت هذه السماء

الإضاءات الكاشفة الأولى

{وَكَايِنٍ مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }  
[ 60 : العنكبوت ]

## تحت هذه السماء

غابات وبحار ، ونجوم عملاقة ، وشموس بالمليارات ، ومجتمعات مدنية وقليل منها ما زال بدوياً وربما بدائياً . كل ذلك على هذه الأرض الكروية . بمقياس الكون . وتحت هذه السماء الرمادية واللازوردية حيناً والمجلمة بحلى النجوم وثريرات الأنوار السبعة وربما السبعين حيناً آخر .

العجب العجاب في الغابات والبحار والفيافي والقفار ، أما الغرائب وعلامات الاستفهام الاستنكارية ، ففي المجتمعات الإنسانية ، المدنية بشكل خاص .

كيف ؟

هذا ما تلقي عليه ضوءاً مخبرياً ، الآية الكريمة التي من كتاب الله المجيد ، قوله

تبارك وتعالى :

{ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

{ . [ 60 : العنكبوت ] .

ففي الأرض دواب ، بين الأدق حجماً وتركيباً ، كالحلية الواحدة البرية البسيطة ، مروراً بالذر والنمل الدَّبَّاب والمجنح بجوشه الحرارة ، وصعوداً حجماً حجماً إلى الأفاعي والنسور والحمام والصقور ، إلى النمر قطع الطرق ، فالذبابة فالقيلة فقطعان وحيد القرن التي لا يكفي الواحد منها ليشبع ، وجبة قبيلة بشرية من أكلة اللحوم ، ومن ينسى الملوك ذوي اللبد ، الأسود واللبوءات وأشبالها الوردية .

هذه الفرق والطوائف مما ذكرنا ، ومما إذا شئنا أن نستوعبه من الأصناف وأوصافها لاقتضى من مجلدات مصورة ملونة بأزهى وأجمل الألوان ، هذه القطعان الحيوانية ومجتمعاتها في غاباتها التي كانت عبر ملايين السنين تغطي أكثر من ثلثي اليابسة هذه الأفواه والأشداق بمختلف أحجامها والتي هي بالمليارات . من أين تأتي

بألوف الأطنان يومياً من اللحوم والحبوب والنبات العَصِيّ أو الطريّ الطازج . علماً أنه على تعدد أصنافها وأجناسها وأمزجتها ، ليس فيها جنس يأكل جنسه ، فلا الأسد يأكل الأسد ، ولا الصقر يأكل صقراً ، ولا النمل يأكل نملاً . ومع ذلك يأتيها جميعاً رزقها قدر الحاجة ، وحسب شريعة الغاب .

### شريعة الغاب ، أم شريعة الله في الغاب :

في الحقيقة ، ليست هي شريعة الغاب ، وإنما هو تنظيم رب العالمين المعجز ، المحكم ، الذي ، لولا ضراوة الإنسان ، ومعاصي الإنسان . أعني منه الظلماني وليس النوراني . لبقيت الغابات وشرائعها ، نموذجاً للبقاء المعتدل ، لا يطغى فيه التكاثر ، ولا يجحف به الإنقراض ، ونموذجاً للجمال والحكمة المتعالية ، ولا استطاع الإنسان ، لو كَفَّ عدوانيته عنها أن يؤاخي أشدّها عتواً وأكثرها وحشية . ولنظر إليها كيف ترتزق ، فتعلم منها حسن التوكل لا التواكل ، وشهامة القناعة ، والكف عن طلب المزيد عند الشبع ، وعدم التخزين والاحتكار المخلّ باقتصاد الغابات ونواميسها ونظامها الرائع ، وعدم الخوف من المستقبل ، الذي يدبره الله سبحانه ، كما دبر الماضي وكما هو يدبر الحاضر ، بقدرته ، وكرمه ، ورحمته ، وقيوميته ، وعينه التي لا تنام ، عن خلقه في الغابات والصحارى ، والبحار والأجواء ، فهل يا ترى ، هذه الفصائل من الخلق ، أكرم عليه من هذا الإنسان ؟ هو سبحانه يقول لا ، في الآيات كأنما اختص بتكريمه بني آدم وحدهم تحت هذه السماء . قوله عز وجل وتبارك وتعالى: { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } . [ 70 : الإسراء ] .

فالغابات والبحار ، والأجواء والقفار سخرها الله سبحانه لبني آدم وخلق لهم فيها الأنعام ، وعلمهم فدجنوها ، وهي لتاريخه وإلى قيام الساعة مصدر أغنى غذاء لهذا الإنسان المكرّم عند ربه العظيم ، الحكيم الكريم ، وإضافة إلى ما فيها من فوائد جلى ومتع للنفس والعين :

{ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ

إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ . وَالْحَيْلُ وَالْبِعَالُ وَالْحَمِيرَ لَتَرْكَبُوهَا  
وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } . [ ( 8.5 ) : النحل ] .

وما أجمل هذه اللغة ، وما أبلغ حقائقها ، وإضافة إلى ذلك كله ، ينبغي  
الإلتفات إلى آخر الآيات هذه ، قوله تعالى : { وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } وفي ذلك  
وعد لأن يخلق سبحانه خلقاً له صلة وثيقة بموضوع هذه الآيات ، خلقاً ليس لأولئك  
المخاطبين الأوائل بالقرآن الكريم ، بل هو لأواخرهم ، نعني به السيارات والقطارات  
والطائرات ، حيث يقال فيها كذلك : لكم فيها دفاء ومنافع ... ولكم فيها جمال  
حين تريحون وحين تسرحون ... وتحمل أثقالكم ... إلى آخر المعاني في الآيات الكريمة

ثم شجر الغابات التي فيها كذلك شريعته ، الشجر الذي كان رفيق الإنسان  
منذ القدم وما زال وسيبقى من ضرورات الإنسان الأساسية ، وما أروع اختصار  
حقيقته ، حقيقة هذا الشجر الذي هو من أجمل وأبهج وأنفع عناوين الأرض ، في  
آيتين كريمتين ، قوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ  
تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } . [ ( 11.10 ) : النحل ] .  
نعم { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } .

ومن يتفكر يؤمن ويوقن ويمجد الله في عظمته وجلاله وجماله وقدرته المعجزة  
المطلقة التي بغير حدود : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ ... ومن هذا الماء  
كانت الغابات والبساتين و { .. حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا  
أَلَلَّةٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ } . [ 60 : النمل ] . من هذا الماء كان الشجر  
والثمر والخضرة والظلال والجمال والحقول والوديان ، والهضاب والجبال المكسوة  
بالسندس المطعم والموشى بما لم يستطع أن يلبس مثله لا الأكاسرة ولا القياصرة ولا  
أغنياء العالم : من الأحمر والأزرق والأصفر وعداً ما راق لك من عشرات الألوان  
والأنوار لنجوم الأرض على مطارح السندس . نعم ، سبحانه وحده وتبارك وتعالى ،

ما أجمله وما أحلمه ، وما أغفره وما أرحمه ، فبرغم كثرة ما فيكم من متجبرين ومتكبرين وأهل عمى وضلالات وجرائم لا تغتفر ، فقد { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ ... } منه شراب ... ومنه شجر ... ومنه إضافة إلى ما ذكرنا ما تعجز عنه الأقلام وعبقریات الرسامين .

فيا إنسان ، يا أخي ، كيف إذا كنت جانحاً وعدواً لنفسك ، كيف تعادي ربك الله وهو بهذا الجلال والجمال والقدرة التي لا تطاول ، وهو سميع لك إذا طلبت منه ما يصلحك ، عليم بك ، ولا أكثر من أن تسأله العون فيعينك ، والمغفرة فيغفر لك ، والنجاة فينجيك من مستنقع الإنحراف والعداوة له ولنفسك ويرفعك ما حلقت بجناحي عقلك وقلبك ، وقلبك وجوارحك : وصدق الله الحبيب : { .. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } . [ 3 : الرعد ]  
{ .. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } . [ 46 : الحج ] .

## المدنية أم الغابات

التوازن الذي كان في الطبيعة ، لعقود خلت ، والذي دمّره إنسان البندقية الأتوماتيكية ، إنسان المدنية المتحضر ، هذا التوازن، لو قبيض له أن يبقى ، لاستطاع الفلاسفة والمنظرون والمفكرون بحياة أرقى وبمخرج من فخاخ الحضارة، لاستطاعوا أن ينسجوا على منواله تقليداً لشريعة الغاب، التي صحيح أنها يستحيل أن ترقى أو تتماثل

مع الشرائع التي أنزلها الله سبحانه للناس ، لفارق العقل بينهم وبين الحيوان، إلا أنها تبقى . أي الشريعة المنظمة للمجتمع الحيواني . أرقى وأسمى خلقاً من حضارة الرنا والفواحش والشذوذ الجنسي ، وقتل النفس التي حرّم الله بالمئات والألوف ، وقرصنة الدول والإرهاب المنظم ، وديمقراطية الأقوياء المزيفة .

بعض العلماء اكتشفوا مؤخراً، ولكن بعد فوات الأوان، أن في الطبيعة توازناً مدهشاً ، لو كان بقي بدون عدوان عليه من قبل الإنسان ، لكانت سلمت البيئة من أخطار التلوث المفزع، ولكانت سلمت الزراعة في جميع مستوياتها من حبوب وثمار وخضار .

إلا أن علماء النبات والحشرات والمناخ ، بعد أن ساهم فريق ما قبل الستينات منهم بتدمير هذا التوازن ، لا سيما بصيدلية الأدوية الزراعية التي تتضخم عاماً بعد عام ، وتتكاثر معها الأمراض في سباق أتعب العلماء والمختبرات، وأفقد الثمار طبيعتها الحلوة ، وروائحها الأصيلة الزكية ، وكذلك الخضار بمختلف أنواعها ، والبقرة والغنم والدجاج ، كل ذلك أصبح وكأنه

يصنّع في معامل كيميائية ، مما ينعكس حتماً على الإنسان . إلا من رحم ربك . بالضعف وعدم المناعة والأمراض الكثيرة التي تفاجيء الحضارة بتحديات وصراع لا نهاية له ، ما دام إنسان الحضارة مصراً على أن يكون هو الإله ، وهو لم يتوصل بعد ، إلى أن يكون إنساناً حقيقياً كما اراد له الله عزّ وجلّ ، الله الذي لا إله إلا هو ، والذي وحده يجب أن يعبد ، أي أن يطاع ، لأنه الأقدر بلا قياس ، والأعلم بلا قياس ، والأحكم بلا قياس ، وله الأسماء الحسنى ، وهو سبحانه قال في مثل ناس هذه الحضارة المعاندين المغرورين :

{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } . [77 \_ 81 :يس]

في الغابات ، يكفي ساكنها أن يأكل ويشبع من غير جنسه ، ولو تركها الإنسان في أمان من ناره وعدوانه ، وطمعه وجشعه ، فإن الرزق فيها وفير ، وحتى الأمان فيها أحسن ما يكون حالاً ، فالأسد آمن في عرينه ، والثعلب في وجاره ، والغزلان في مراتعها ، والطيور في أوكارها وعلى أغصانها، فلا موت جماعي، ولا تخمة ورفاه لملايين، ولا مجاعات وموت بطيء لملايين، ولا محاولة اجتثاث وإبادة لبعضها البعض، فلا الجنس الواحد يبيد جنسه، ولا هو يبيد أجناساً أخرى .

وحده الإنسان الذي في غضب الله وفي لعنة الله ، والمدعي كاذباً أنه يعبد الله ، يحاول إبادة الإنسان الذي من غير ملته أو لونه أو مشربه ، ويتفنن في تعذيبه وقتله والتمثيل به وارتكاب الفظائع بحق نسائه وأطفاله، وحده الإنسان الجاحد ربه، المتحجر قلبه .

لا، لا يوجد صنف من الوحوش الضارية يفعل ولو شيئاً من ذلك كله .

أما أن بعض الحيوانات تنفق أو تقتل في آجال معقولة ، وبأعداد معقولة ،

فهي سنة الله في الخلائق ، هو الموت الذي لا مفر منه ، فحتى في المدينة الفاضلة، التي هي حلم الفلاسفة والناس الطبيعيين ، لا بدّ من الموت . كل شيء في السماوات والأرض يميتة الله ، يعني يحوِّله ويبعثه من جديد ، بموجب سنن ونواميس إلهية ، عندما يدركها الإنسان بكليتها ، بعد أن يكون أسجد جبينه لعظمة الله ، يسجد قلبه ، وإذا كان أسجد قلبه ، يسجد معه جوارحه ، وإذا كان أسجد قلبه وجوارحه ، يسجد كيانه كله حتى الفناء . الذي بعده بفضل من الله ، الصحو بعد الخو . طاعة الله ، وتمجيدهاً لله ، وحباً بالله ، فيكون الله له العوض ، وما أكرم الله ، وما أعظم كرمه إذ يعوّض على حبيب من خلقه ، بذل نفسه . وهي في الأصل ملك لله . في سبيل عزة الله وجلاله ، وحاكميته وهيمنته ، ولطفه ورحمته ، وقربه وحبه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

وما الله بحاجة لكل ذلك ، وإنما الإنسان هو المحتاج ، ولكن الله سبحانه يجب لعبده التكامل، والكمال، الكمال الإنساني ، ولا يكون ذلك إلاً بالمجاهدة والبذل والتضحيات: مجاهدة النفس، ومجاهدة الباطل ، وبذل وتضحية أعزّ ما يملك الإنسان

، حتى نفسه يبذلها خالصة لله ، وفي سبيله ، عرفاناً وشكراً ، وشوقاً إليه ، وحباً هو الأسمى والأصفى، والأشرف والأقدس، فيما عرف ويعرف قلب الإنسان وعقله ، وسمعه وبصره، من أنواع الحب .

## هل تريد أن تكون من المرزوقين ؟

من البديهي أن كل إنسان يريد أن يكون في سعة من الرزق ، ولكن على اختلاف في مفهوم الرزق وطرق الإرتزاق .

فالإختلاف في مفهوم الرزق يكون بين المؤمن والكافر من جهة ، وبين المؤمن والموقن ، أو المؤمن والعارف من جهات أخرى .

أما بين المؤمن والكافر ، فالمسألة واضحة ، هي أن المؤمن يعلم علماً نسبياً حسب درجة إيمانه أن الرزق من الله ، بينما الكافر يعتمد على قواه الذاتية متعاملاً مع ما يمكن أن يتوصل إليه من القوى والموجودات الكونية ليحصل رزقه ، ظاناً بالنتيجة أن لا علاقة لله عزَّ وجلَّ بالرزق والتوفيق ، وهذا هو كفر الجحود ، أو أن يكون غير مؤمن بوجود الله ، وذلك هو كفر الإلحاد .

أما الإختلاف بين أهل الإيمان وأهل اليقين فيكون في مفهوم الرزق أولاً وثانياً في السبل والأسباب .

ففي الدرجة الدنيا من الإيمان كلمة الرزق تعني للمؤمن المال والقوت والملبس والمسكن ورفاه العيش .

وفي الدرجة العليا يدخل مع المال العافية في الدين والنفس والأهل والولد وسعادة الدارين . واعتماد الأسباب ، وصولاً إلى مسبب الأسباب .

أما أهل اليقين ، أولياء الله ، فلهم كذلك مراتب ودرجات ، ومفاهيم أعلاها أن يسألوا الله سبحانه بصدق نية وسلامة طوية ، وصفاء نفس أن يقطع عنهم سبحانه كل شيء يقطعهم عنه ، وأن يكونوا أهلاً للإجابة . فإذا استجاب تبارك وتعالى ، كان هو سبحانه همهم الأوحد .

أما بخصوص الرزق واختلف المفاهيم فيه ، فلهؤلاء وللآخرين ، مؤمنين وغير مؤمنين ، معانٍ بين آيتين كريمتين ، الأولى قوله تبارك وتعالى :

{ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }  
[ 60 : العنكبوت ] .

والثانية قوله عزَّ شأنه :

{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ } . [ 62 : العنكبوت ] .

وتتراوح الإفادة من هاتين الآيتين . والله الهادي . بين إشارتين في تعاليم الله في  
قرآنه المجيد :

الأولى ، قوله تعالى في كلامه عن مريم عليها السلام :

{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا  
دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ  
هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } . [ 37 : آل عمران ]  
والثانية قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ } [ 6 : الإنشقاق ]  
والناتج { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } . [ 3 : الرعد ] . ( 1 ) :  
الروم ) . ( 42 : الزمر ) . ( 13 : الجاثية ) [ 2 ] .

والخلاصة أن الإنسان المؤمن مدعوٌ لفهم الرازق والإرتزاق ، ولفهم ذلك  
ينبغي أن يحيط علماً بالآية الكريمة ، قوله سبحانه وتبارك وتعالى :

{ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ  
اللَّهِ قُلُوبٌ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . [ 64 : النمل ] .

أمن يبدأ الخلق ثم يعيده مرّة أو اثنتين أو ثلاثاً أو سبعاً أو سبعمائة أو أقل أو  
أكثر أو إلى قيام الساعة .

وهذا الرزق المنوّه عنه في الآية الكريمة في قوله تعالى { وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } مطراً من السماء ونتاجاً من الأرض ، للناس ، للجماعات ،

وكما للجماعات كذلك للأفراد ، يؤتية الله سبحانه بعلمه ومشيتته وتقديره وقضائه  
وتسخيره من السماء والأرض .

وأن هذا الأمر من حيث العلم فالمشيئة فالتقدير فالقضاء والتسخير ، وفي  
شمولية ، والإجمال والتفصيل ، لا يقدر عليه خلق ولو اجتمعوا له .  
هذا فعل مهيمن .

ومهيمن إسم ، هو معنى من معاني الإله ، ولا إله إلا الله . هذا برهاننا . فإن  
لم يكن الأمر كذلك ، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . برهانكم على أن أحداً غير  
الله مهيمناً يبدأ الخلق ثم يعيده منذ عمر الكون ، ويرزق بعلم ومشيتة وتقدير وقضاء  
، مسخراً من وما في السماوات والأرض وعلى صعيد الكون كله ، وعلى صعيد كل  
فردٍ مما دق وعظم من جميع ما خلق الله .

2

دعوة إلى الله

مفهوم الولاية

الإيضاحات الكاشفة الثانية



## مفهوم الولاية

من اختار الدنيا لن يفهم الله

أولاً : معنى الولاية في اللغة :

كلمتا ( ولاية ) و ( ولاء ) بمعنى واحد ، وهما مصدران من ولي الشيء يليه ، إذا لزمه ، أو توجه إليه ، أو تبعه فكان إلى جانبه ، قبله أو بعده ، وفي جملة مشتقات هذا الفعل ، ( والٍ ) وهو صاحب السلطان ، و ( مولى ) و ( وليّ ) بتشديد الياء ، وهما كذلك بمعنى واحد ، وكل واحدة منهما تحمل معنى التابع والمتبوع ، ولا يعرف معناها إلاً بالقرينة . فنقول : الله عزّ وجل مولانا وولينا ، وفلان الذي من أولياء الله مولاك ووليك . وتقول أنا ولايتي لله وولائي ، وأنا وليُّ الله ، والعبد

الرفيق مولى سيده وسيده مولاة ، وفلان وليّ الشيطان أو مولاة ، والشيطان وليّه أو مولاة ... ووليّ وتوليّ ومشتقاتهما لهما معانٍ كثيرة غير ما ذكرنا تعرف بالقرائن .

الولاية : مصدر وِلِيَ . . : النصره " الناس عليه ولاية " مجتمعون لنصرته في خير أو شر . . : القرابة والنسب .

الولاية : مصدر وِلِيَ . . السلطة والإمارة . . : البلاد التي يحكمها الوالي . . في القانون : إدارة شؤون القصر أو المحجور عليهم .

والى موالاةً وولاءً ( ولي ) بين الأمرين : تابع . . الشيء تابعه . . فلاناً : صادقه وصافاه وناصره وحاباه .

الوالي : صاحب السلطة . وكانت رتبة إدارية في بعض البلدان . هذا

بإيجاز عن ( لسان العرب . لابن منظور ) و ( الكافي . معجم عربي حديث ) .

## ثانياً : معنى الولاية في القرآن :

أن تفهم الله سبحانه ، يعني أن تمشي في الضوء ، لا في عتمة ، ولا في ليل بهيم . وقد تترقى في مطارح النور درجة درجة ، تصل معها إلى سعادة متصلة بمناخات السماوات وما فوق السماوات .

فكيف تتلافى الظلام ، وتبدأ في فجر ينتهي بك إلى نور النور والجمال المطلق ؟ فمعنا في هذه الإضاءات ، ولا قوة إلا بالله الحليم الكريم .

قال الله تبارك وتعالى :

{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } . [ 41 : العنكبوت ]

لكي نفهم مضمون الآية الكريمة هذه ، وبعد أن استعرضنا المعنى اللغوي للولاية ، ينبغي أن نحاول الإحاطة بمعاني الولاء والولاية في القرآن الكريم ، وعلى هذا الأساس ، نجد أن الولاية في الحقيقة على ثلاث درجات :

## الدرجة الأولى :

وهي العليا بداية ونهاية ، هي درجة الإختيار لله ، رباً ومالِكاً مملِكاً ، وهي مرجع الأصول والفروع ، حيث تصدر عنها لترجع إليها تكاليف الولاء لأهل الحق من عباد الله الصالحين .

ولإظهار الأهمية المطلقة ، لهذه الدرجة العليا والنهائية فقد أنزل الله سبحانه ، وتحت طائلة الكفر والتخليد في العذاب ، مؤكِّداً في سبعين <sup>(1)</sup> آية قرآنية ، وجوب الرجوع بالولاء ، في النهاية ، إليه وحده سبحانه ، لإمكان التوصل إلى الكمال الإنساني ، والإنعتاق ، وروعة الحرية في أنوار قربه ، وظلال رحمته ، وحده لا شريك له ، ولا مساعد ولا معاضد ، ولا تمليك ولا

---

(1) رقم عربي \_ قرآني يدل على الكثرة .

تفويض من دونه لأحد من جميع خلقه . فالملك ملكه ، والحكم حكمه ، وهو وحده الحي القيوم ، السميع البصير ، القاهر القادر المهيمن ، المنفرد بالكبرياء والعظمة ، والجود والجبروت وهو وحده أهل التقوى والمغفرة ، وأهل العفو والرحمة ، وله وحده الأسماء الحسنى ، والأمثال العليا ، في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ولأن الموضوع ، هو أخطر المواضيع ، إذ تترتب عليه ، مصائر الأفراد والجماعات ، والأمم والشعوب ، وذلك في عمر البشرية ، والتاريخ الراهن والآتي ، ويوميات الإنسان ، حتى ودقائقه وجزئيات ثوانيه ، رأينا لزاماً علينا حشد هذه الآيات الكريمة ، الناصة على الولاء المطلق لرب العالمين . لنقارنها من حيث مضامينها وعددها بالآيات التي تنص على الولاء لأولياء الله بأمر الله ، فلم نجد إلا آية وحيدة فريدة ، هي المشهورة في سورة المائدة ، قوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } . [ ( 56 . 55 ) : المائدة ] .

أما الآيات التي توجب الولاء أو الولاية ، في النهاية ، لرب السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما ، وحده ، بدون شرك ولا تفويض ولا التباس ، والتي أنزلها الله عز وجل إلى عباده ، ليتدبروها ، وليتفكروا بها عميقاً ، ويلزموا بها أنفسهم إلزاماً تعبدياً تحت طائلة المسؤولية المصيرية ، حيث يقول سبحانه :

{ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ . وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِمَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . [ ( 84 . 82 ) : النمل ] .

وهذه هي آيات الولاية لله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له : قال سبحانه وتعالى :

{ .. قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ . إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ . وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } . [ ( 197.195 ) : الأعراف ] .  
وقال سبحانه وتعالى :

{ .. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } . [ 11 : الرعد ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } . [ 155 : الأعراف ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . [ ( 126 ) .

(127) : الأنعام ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ } . [ 122 : آل عمران ] .

وقال سبحانه وتعالى على لسان يوسف عليه السلام :

{ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ لِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي

بِالصَّالِحِينَ } . [ 101 : يوسف ] .

وقال سبحانه وتعالى : { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ

دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } . [ 3 : الأعراف ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا

يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَلَا يَحْزُنكَ قَوْمُهُمُ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } .

[ (65.62) : يونس ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ

لَا تُنصَرُونَ } . [ (113 . 112) : هود ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

لَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ

تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ

عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } . [ 16 : الرعد ]

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا . الَّذِينَ كَانَتْ أُعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا . أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا . قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } . [ ( 104 . 100 ) : الكهف ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا . فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظلم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا } . [ ( 19 . 17 ) : الفرقان ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } . [ 3 : الزمر ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ } [ 6 : الشورى ]  
{ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ } . [ 9 : الشورى ] .  
{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ . وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا

مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ } . [ 6-11 الجاثية ]

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ  
عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ  
اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا } . [ 42. 44 : الكهف ] .

وقال سبحانه وتعالى : { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا  
لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } . [ 107 : البقرة ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ  
الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا وَاقٍ } . [ 37 : الرعد ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ  
يَكُن لَّهُ وَّلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا } . [ 111 : الإسراء ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمَعُ  
مَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } . [ 26 : الكهف ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ  
وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } . [ 22 : العنكبوت ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ  
عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } .

[ 4 : آلم السجدة ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ جَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ  
وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَليِّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ  
وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . [ (98) :  
الشورى ] .

{ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ  
الْحَمِيدُ } . [ 28 : الشورى ] .

{ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليِّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا  
الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ .. } . [ 44 : الشورى ] .  
وقال سبحانه وتعالى :

{ .. قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي  
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَليِّ وَلَا نَصِيرٍ } . [ 120 : البقرة ] .  
{ اللَّهُ وَليُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ  
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } . [ 257 : البقرة ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ  
وَليُّ الْمُؤْمِنِينَ } . [ 68 : آل عمران ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَليٌّ وَلَا  
شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } . [ 51 : الأنعام ] .

{ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَهَوًّا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ  
تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَليٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ

عَدَلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ  
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } . [ 70 : الأنعام ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ .. فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } . [ 74 : التوبة ] .

{ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ  
اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } . [ 116 : التوبة ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ  
وَاللَّهُ وَليُّ الْمُتَّقِينَ } . [ 19 : الجاثية ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا } . [ 45 : النساء ] .

{ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَدِ  
لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } . [ 123 : النساء ] .

{ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن  
فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ  
مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } . [ 173 : النساء ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ  
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } . [ 14 :  
الأنعام ] .

وقال سبحانه وتعالى :

{ .. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } [

17 : الكهف ] .

الدرجة الثانية :

درجة الإلتزام أو الإلتقياد أو الإقتداء ، ويكون الولاء فيها للقادة الكبار

والزعماء على مستويي الحق والباطل ، وذلك كما يلي :

أولاً : الولاء على مستوى الحق :

قال الله عز وجل :

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الغَالِبُونَ } . [ ( 55 . 56 ) : المائدة ] .

هذه الآية دارت حولها معارك فكرية ، ربما كانت في زمن مضى أكثر من

ضرورة . وذلك بين شيعة قالوا إن متعلق قوله تعالى : { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } ، هو الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ،

وآخرين اجتهدوا في أن يحولوها عن هذه الخصوصية .

وقد رافقت هذه الآية ساسة الأمة وسياستها طيلة ما يسمى بالعصر الراشدي

، ثم العصر الأموي ، ثم العباسي . ولا سيما في عهود الشيعة الزيدية الذين يقولون

بأئمة خمسة ، ثم الشيعة الإسماعيلية الذين يقولون بسبعة أئمة ، ثم الشيعة الإثني عشرية

الذين يقولون بإثني عشر إماماً . يقابل هؤلاء جميعاً ، شطر الأمة الآخر ، الذين أنكروا

على الشيعة دعاواهم ، كما أنكروا عليهم الشيعة أساس الخلافة منذ وفاة رسول الله

(ص) ومشكلة السقيفة ، قائلين بحق الخلافة فقط لعلي بن أبي طالب وولده الأحد

عشر من بعده . وقد ملأت احتجاجات الجانبين ، كتباً ومجلدات ترخر بها المكتبة

الإسلامية لتاريخه . كما أن أقلاماً كثيرة ما زالت بين الحين والحين تتصدى لهذا الموضوع الحساس والتاريخي .

إلا أنه بعيد سقوط الأمة في هوة التراجع عن موقعها الحضاري والقيادي للعالم ، ولا سيما بعد انقراض الدولة العباسية ، ثم تشرذمها في دويلات ، ثم تباعد هذه الدويلات فيما بعد عن الدين موزعةً في قوميات عرقية ما أنزل الله بها من سلطان ، حصل الفراغ عند الفريقين المشكلين شطري الأمة .

فالشيعية ، بعد انقضاء عصور أئمتهم ، ما زالوا ينتظرون المهدي المنتظر الذي يقولون بحياته وغيبته .

والسنة ما زالوا ينتظرون المهدي المنتظر الذي يقولون بولادته في عصر ظهوره

وظاهر أن الإجماع على المبدأ هو دلالة قوية جداً على صحة الوعد الذي وعد رسول الله (ص) به أمته .

إلا أن هذه الآية الكريمة { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. }

يمكن أن تشكل استقطاباً مستقبلياً لجميع المؤمنين ، إذا اعتبرناها منطلقاً لنظام إسلامي عام ، تتجمع على أساسه الأمة . فإن العلماء والعقلاء من جميع الأطراف الإسلامية . إذا كان هناك أكثر من طرفين . لا يمكن أن يجادلوا بحقيقة الفراغ الحاصل من جهة ، ولا يمكن أن يجمدوا الشريعة والنظام والأحكام عامة بانتظار مهديهم المجمع عليه من جهة ثانية ، لأن ذلك عين العجز وعين العمى عن اللجوء إلى الله وحده ، والتمسك بكتابه الأقدس ، قرآنهم الكريم . وبهذه الآية التي تستدعي جميع الأطراف لأن يجمعوا اجتهاداتهم ويبنّوا حولها ، حيث سيرون أن الخاص فيها لا يتنافى مع العام ، والعام لا يتناقض مع الخاص .

والحقيقة المرة هي في غلو الغلاة عند العامة من الفريقين ، وكذلك أشباه العلماء الذين لهم سمت العامة وعصبيتها .

فغالباً ما كان جهل العوام في المراحل الماضية حائلاً دون إظهار قناعات كثير من أولياء الله وعلمائهم الكبار ، الغياري على وحدة الأمة ، بعد بُعدها الزمني عن أيام الفتن وأسبابها وأعلامها . وعدم قناعاتهم بأن يكون الهدف الباقي عند بعض

المسلمين ، هو الإنتقام من أحفاد أحفاد الذين أساءوا أو أجرموا أو غدروا ، وهم ،  
 أي العلماء في مواجهة قوله تعالى : { وَلَا تَرِزُوا زُرَّةً وَلَا تَرِزُوا أُخْرَى } ، وقوله عز وجل :  
 { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ  
 بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَدَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا مُنِّدُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ  
 . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ } ، وقوله تبارك وتعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ  
 لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ

الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
 يَعْلَمُونَ . مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ  
 فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } .

وكذلك هذه الآية الكريمة : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ... } يمكن أن يتخذ منها حالياً  
 ومستقبلاً ، مدرسة للجمع بين الأخوة في التوحيد ، والأخوة في الإسلام ، والأخوة  
 في القرآن ، بعد أن كانت لأسباب قاهرة ، سبباً لحروب طاحنة ، حساب الفئات  
 الباغية فيها على الله . ومن الجهل الكافر أن نعيء له الأجيال الإسلامية في القرن  
 العشرين ، الأجيال المستضعفة المغلولة المقدمة للذبح بين السيف والنطع : سيف  
 الصهيونية العالمية ونطع النظام الدولي الغادر . ولو كنا نعلم أن الله عز وجل ، يريد منا  
 الإستمرار في إشعال الحروب بين المسلمين ، لصدعنا بأمر الله ، وأوقدنا لها كل وقود  
 . ولكن تعاليم الله ورحمة الله وعقولنا التي وهبنا الله ، وقلوبنا التي طهرها الله ، كل  
 ذلك يقضي بالعمل الدائب على توحيد الأمة على كلمة التوحيد ، وبالتالي توحيد  
 العالم في ظلال لا إله إلا الله .

وسنعتقد لذلك بحثاً متصلاً بهذا الموضوع ، في سياق كلامنا عن مفهوم الولاية  
 إن شاء الله .

ونكتفي الآن بالإشارة ، إلى إجماع المفسرين قاطبة ، على أن كلمة  
 { وَلِيُّكُمْ } في الآية وهي في صيغة المفرد ، وبعدها عبارة { وَالَّذِينَ آمَنُوا } وهي  
 جمع ، قد أريد منها أن حقيقة الولاية هي لله وحده أصالة ، وهي لغيره سبحانه بالتبع

ثم إننا نذكر بأمور ومعانٍ خيض فيها بصدد هذه الآية الكريمة ، منها تعداد أنواع الولاية ، بين ولاية نصره وولاية مودة ومحبة ، وولاية رعاية وعناية ، وغير ذلك ، ثم قسمت هذه الأنواع إلى ولاية تكوينية وولاية تشريعية جعلنا لله عزّ وجلّ ، وجعل الباقي إلى غير الله من أوليائه ، بعد أن أشركوا الرسول والذين آمنوا ( ص ) بالولاية التشريعية .

والحقيقة أن الولاية الحقيقية والعامة الكاملة ، هي لله وحده سبحانه بالأصالة ، كما هو الإجماع الموفق .

فحتى الدور التشريعي للرسول والذين آمنوا ( ص ) والدور الدعوتي إلى الله والتربوي للناس كافة ، والحكم والقضاء والقيادة العسكرية والمدنية وغير ذلك من المهام المجتمعية ، ظاهرها للرسول والذين آمنوا ( ص ) ، وحقيقتها لله المهيمن الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

ففي قوله تعالى مثلاً لرسوله ( ص ) " وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " فهو (ص) لا يهدي إلا أن يهديه الله ، قوله سبحانه : { قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى } والرسول والذين آمنوا (ص) لا يهدوا إلا أن يهدوا ، وقوله سبحانه : { النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } أو { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } أو { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } أو { لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } فيوضحها في كون الولاية الحققة العامة الشاملة والنهائية ، هي لله سبحانه ، مثل قوله عزّ وجلّ : { لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } وقوله تعالى : { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } وقوله جلّت عظمتها { وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ } وقوله له الحمد : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وقوله له العزة : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } ، إلى عشرات الآيات التي تؤكد هذه الحقيقة .

هنا يخطر ببال بعض المؤمنين الذين اعتادوا على التقليد ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث حتى والتفكر والتأمل ، هذا السؤال :

إذن ، فما هو دور الرسول والذين آمنوا ، المنوّه عنه في الآية الكريمة حتى ولو كانت وحيدة مفردة مقابل عشرات الآيات التي تحصر الولاية أصالة بالله وحده بدون شرك ولا شريك ؟

والجواب أن كل ما قام به الرسول والذين آمنوا (ص) ، في الماضي ، من قيادة مدنية وعسكرية على صراط الله المستقيم ، واتباع الناس لهم في سبيل الله واستجابة لأمره سبحانه ، هو دورهم . وما يقوم به الذين آمنوا في الحاضر هو دورهم ، وما سيقوم به الذين آمنوا في المستقبل هو دورهم ، وما يقوم به رسل الله من الملائكة في الماضي والحاضر والمستقبل هو كذلك دورهم . والجميع على شتى مراتبهم النبيلة عند ربهم الكريم سبحانه ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، هم مأمورون مكلفون ، مرعيون برعايته ، وتسديده وهدايته ، وقيوميته وإحاطته ، وهيمنته وعينه التي لا تنام ، لا يساعده مساعد ، ولا يعاضده معاضد ، وهو الغني الحميد ، والعزيز الحكيم ، والسميع البصير ، والفعال لما يريد ، وله وحده الأسماء الحسنى والأمثال العليا .

أما شأن من كان منهم ومات أو رفع ، فكشأن المسيح عليه السلام كما علمنا إياه الله سبحانه في الآيات الثلاث التالية ، قوله عزّ شأنه :

{ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } . [ (116 . 118) : المائدة ] .

وجواب آخر على قول الذين قد يسألون : وما هو دور الرسول والذين آمنوا ؟ هو ، إذا كنتم أوكلتم أموركم ووجهتم ووجهكم إلى أصحاب المقامات (ص) ، فما هو دور الله إذن في إدارة ملكه وخلقته؟ وماذا يعني قوله سبحانه : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ

الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبَّحَ بِحَمْدِهِ { وغيره يموت. وقوله : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } وغيره ليس إلهاً ولا حياً ولا قيوماً ، بمعنى المشاركة والظهور، وبالمعنى الحقيقي الذي قاله الله سبحانه لرسوله (ص) وللناس : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } ، وقوله : { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } وقوله : { فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } وقوله { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } وقوله : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } وقوله : { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ } وقوله : { فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ } وقوله : { لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ } وقوله : { بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ } وقوله : { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } وقوله : { عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } وقوله : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَخَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } ... إلى مئات الآيات الحاسمة في إحاطته سبحانه ، بالكون جملته وتفصيله ، والتي قد يلخصها قوله عز وجل : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } وقوله تبارك وتعالى : { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } وقوله : مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } .

فهل هذا كله حقيقة أم مجاز؟! بلى { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى

الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } .

وأخيراً لا آخرأ ، قوله عزت عظمته : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ

إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } .

فهل هو إله فاعل على مدار الساعة الكونية ، لا إله إلا هو ، أم هو سبحانه

متوقف عن العمل ، حتى يظهر الإمام المهدي المنتظر؟ حيث ينتظره أناس ، كادوا

يعطلون القرآن والعقل والمنطق بانتظار ظهوره أو إظهاره (ص) .

والسؤال الأهم ، مع من يجب أن نتعامل ، في هذا العقد العشرين للميلاد

المبارك ، والخامس عشر للهجرة الميمونة ، في ظروف زلزالية على مستوى الأرض

وشعوب ساكنيها بشكل عام ، حيث يتقهقر دين التوحيد في كل مكان ، لتحل محله

العلمنة المؤهلة للعلم والشهوات الفتاكة ، من جانب الغرب والبدع الآخذة بالتجسيم

والتجسيد ، من جوانب الشرق . و { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } : حروب وتشريد وعذاب ، ومجاعات ، وجهالة جهلاء بالأسباب التي جعلت الأرض كلها مهددة بغضب الله وسخطه ، يعني بالدمار الشامل .

إلّا من شاء الله وما شاء الله . فمع من يجب أن نتعامل ، أفضل التعامل ، وأسلمه ، وأرقاه وأعلاه ؟ وكيف ؟ ما دمنا بانتظار مخلص أو مهدي منتظر منذ بضعة عشر قرناً من الزمان ؟ قال الله تبارك وتعالى :

{ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ } . [ 12 : الأحقاف ] .

فهذه هي الإجابة . فإذا لم تستطع أن تتخذ القرآن إماماً ، وتتدبره ، وتفهم منه الدعوة إلى الله ، والحلال والحرام ، والإستقامة في الدين ، الذي هو سياسة حكم واجتماع ، وسياسة حياة ، وتأخذ عن أنبياء الله وأئمة الحق الذين أمرهم سبحانه بالتبيين والتفصيل ، لما يجب تبيينه وتفصيله ، فابحث عن ثقة حي من الذين قال فيهم سبحانه : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } وقال : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } وقال : { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا } وقال : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } وقال : { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } ... وغيرها من الآيات التي تشير إلى صفات الثقات من أهل الحق ، ورضى الله سبحانه ورضوانه . إبحث عن ثقة حي حاضر ظاهر ، ومن خلال ولائك له ، سله وتعلم منه كيف يكون الولاء الأعظم والمطلق لذي الجلال والإكرام ، لله سبحانه وتعالى عما يشركون .

أما إذا استطعت أن تكون موحداً ، وفي طاعة الله وحبه ، متدبراً القرآن الكريم ، عاملاً ومحققاً ، بالضروري ، مما ترك الأنبياء وأئمة الحق ، فأنت على معراج الواصلين ، من أولياء الله الصالحين .

هناك حقيقة مؤلمة ، يعانيتها بعض من جنبهم الله عبادة هواهم وموروثاتهم ،

هي أن الكثرة من المؤمنين ، يذكرون ، ما داموا أحياء ، أولياءهم من الناس، أكثر مما يذكرون الله ، ويدعون إليهم أكثر مما يدعون إلى الله ، ويدعون إلى أنفسهم أكثر مما يدعون إلى الله . ولعلَّ بعض الأئمة

عليهم السَّلَام يملأون عليهم السمع والأبصار ، والقلوب والأدمغة ، فينظرون إليهم على أنهم آلهة ، ويتعاملون مع كل واحد من كبرائهم تعاملًا تعبدياً ، كأنه هو السميع وهو البصير وهو الرزاق والناصر والشافي والمعافي وهو على كل شيء قدير . فيسألونه ويخاطبونه كما يسألون ويخاطبون الله عزَّ وجلَّ . وكلما نسوا ذكر الله وابتعدوا عنه ، كلما ترسخ في ظنوتهم ، أن هذا الإمام ، هو إله حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ومجاميع هؤلاء في أقطار الأرض ، يمزقون سنة بعد سنة ، ويشردون من ديارهم ومن أوطانهم ، حتى غدوا هدفاً عالمياً للقصف والحسف والهوان . فقد سلَّط الله عليهم الظلمة والطواغيت الجبابرة ، عقاباً لهم على تأليه غيره ، وذكر سواه ، أكثر بكثير من ذكره ، وهو سبحانه غني عن جميع خلقه ، وليس بحاجة لذكر من يذكره ، وإنما يسخطه الخونة ، الذين يخونون العهود والمواثيق ، الذين بلا شرف وبلا خلق . وإضافة إلى سقوطهم هذا يخزيهم ويعذبهم بما يرتكبون من بدعٍ نافرة منفرة ما أنزل الله بها من سلطان .

والأ فإين المعادلات الإلهية التالية :

قوله سبحانه :

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . [ 96: الأعراف ] .

فهل إن القصف والدمار والقتل بالجملة والتهجير من جراء الحروب ، وهل أنواع الحمم والقذائف التي تسقط على الناس وعلى بيوتهم وحقوقهم والألغام التي تتفجر تحت أقدامهم ، هل كل ذلك بركات من السماء والأرض ؟ !

وهل إن الزلازل والفيضانات التي تقتل الألوف المؤلفة وتهدم وتشرد وتشغل الدول والحكومات ، وهل المجاعات المفزعة من جانب ، والتخمة والبطر المخيف من جانب ، هل هي بركات من السماء والأرض ؟ !

بل هم مصاديق لقوله عز وجل :

{ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا } . [ (8 . 10) : الطلاق ] .

ولعل أفضل علاج منقذ لهم عامة . إذا لم يستطيعوا الصعود إلى فكر التوحيد . ، أن يجعل لهم علماءوهم ، ولا سيما في مواسمهم التعليمية المباركة ، في تجمعاتهم وحلقاتهم ونواديهم ، لتجنبهم الغلو والانحراف ، ومداخلات الشرك والشيطان ، أن يجعلوا لهم في الدروس والمواظع ، الآيات البينات التالية ، بمجموعها ، عسى أن تكفي كمنطلق أولي ، لفهم عظمة التوحيد ، وتلافي الشرك ، والاستجابة بفرح ، لإرادة الله وعنايته ، وحاكميته ورحمته ، وتجنباً لخزيه ونقمته ، وسخطه وعذابه في الدنيا قبل الآخرة : قال سبحانه وتعالى :

{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلْ

ادَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ } . [ 59 . 66 ) : النمل ] .

من هم حزب الله ؟

ما دمنا بين يدي الآيتين الكريمتين : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ... } إلى قوله تعالى في الآية الثانية : { وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ } . فحزب الله على هذا الأساس ، هم الذين يتولون { اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا } حسب الآية الكريمة .

أما حقيقة الولاء ، ومفهومه ، وكيفيته بداية ونهاية ، فأمر تكلمنا فيها آنفاً ، ولله الحمد . وعرفنا من خلال ذلك كله ، ما ينبغي أن يكون عليه المحارب لله جلّت عظمته ، من حيث الاعتقاد بوحدانيته ، والإعتصام بجله ، والثبات على طاعته ، والجهد في سبيله، والترقي في معراج عبادته ، تقرباً وحباً . وبقي أن نعرف في أي مكان وزمان نجد هؤلاء الذين هم حزب الله في الحقيقة . وبقيادة أي صنفٍ من أولياء الله ، وهل ينبغي أن يكون القياديون أحياء أم أمواتاً ، حاضرين أم غائبين؟ ولعل هذه هي الخطوط العريضة ، التي إذا أوضحت معالمها ، يرتاح إليها كل مؤمن ، وينجو من كثير من حالات الإضطراب الفكري والحيرة والضياغ ، فيما ينبغي أن يعمل ، ومع من ينبغي أن يتعامل . وإلّا ضلّ وغوى ، ووقع في محذور قوله عزّ شأنه :

{ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا . قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } . [ 102 . 104 ) : الكهف ] .

أما في أي مكان وزمان ، كان ويكون حزب الله المعنيون في الآية الكريمة ؟ والكلام فيها موجه للعقلاء من أهل الأرض ، فالكوكب الأرضي هذا الذي نحن عليه ، هو كله مكان حزب الله المنوّه عنه ، وأما الزمان ، فمنذ وجود الناس والوحي والرسالات السماوية .

فمضمون الآيتين الكريمتين ، له إنطباقان ، عام ، وخاص ، أما الإنطباق العام فيستقطب كل عهد من عهود البشرية كان فيه رسول وناس ومؤمنون . فتخاطب الآية الناس بمعنى قوله { بآيات آخر سابقات } أو بنفس قوله هذا سبحانه : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا } ثم قوله سبحانه وتعالى: { وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } . وهكذا تبقى الولاية ، بحقيقتها وأصالتها ، وتستمر عبر العصور والعهود والأنبياء والرسل والأئمة أبدية سرمدية لله وحده، وحده وحده. وأما الإنطباق الخاص ، فهو عصر نزول الآية الكريمة والمعنيين بها في هذا العصر ، وإلى قيام الساعة . وكذلك تبقى الولاية بحقيقتها وأصالتها وتستمر عبر السنين والأولياء والأسماء ، والمنتظرين وغير المنتظرين من الصالحين أبدية سرمدية لله وحده، وحده وحده . فهو وحده الحي القيوم ، وهو وحده السميع البصير ، وهو وحده على كل شيء قدير .

ويساعد على فهم مضمون هذا التوجه قوله تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } . [ 14 : الصف ] .

وأقواله في التاريخ والحاضر والمستقبل ، وهذا القرآن الكريم حوى هذه العناوين الثلاثة ومضامينها ، مركزاً على هدف واحد هو :

## عبادة الله وحده

وأن توهب له القلوب : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } ، والحب الأعظم : { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } ، وحياة الإنسان ما بين بدئه ونهايته : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } ، وحقيقة الإنسان { وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } .

وفي التاريخ : نوح عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ  
إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } . [الأعراف]  
وهود عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا  
تَتَّقُونَ } . [ 65 : الأعراف ] .

وصالح عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ  
جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } . [ 73 : الأعراف ] .  
وشعيب عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ  
جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ } . [ 85 : الأعراف ] .

وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، ومن قبلهم ومن بعدهم ، أنبياء  
كثير ورسول ، يدعون ذات الدعوة إلى الله ، ودائماً نفس الهدف : عبادة الله وحده. حتى  
أرسل سبحانه محمداً عليه السلام ، خاتم النبيين ، وزوّده بزيادة يكفي لحاضر الناس  
ومستقبلهم إلى قيام الساعة، توجّهاً وتوجيهاً وتعليماً ، وتشريعاً وتنظيماً. في إشرافه  
سبحانه ورقابته، وتسديده وترشيده، وعقوباته وبلائاته، وعطاءاته ورحماته :

{ أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } .

[ 50 : المائدة ] .

أليس الله بـ { أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ } . [ 45 : هود ] .

الحاكم الشرعي فريضة على الأمة :

إن آية : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... الآية } ، هي من أخصر

الآيات وأغناها بالمعاني .

هي آية للتعبد بأمر الله ، كما يريد الله ، تعبداً اجتماعياً وإجماعياً ، ينتهي

بالولاء المطلق لله سبحانه .

وهي آية تستقطب أهل الأرض ، إن شاءوا ، و{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ

الرُّشْدُ مِنَ الْعَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا

انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } . وإلا فهي فريضة على الأمة ابتداءً ، إن صدقت

بها وصدقته، تحكم بالعدالة والرحمة أهل الملل، وتستغني بشريع شريعة الناس، والفرق بينهما كما هو الفرق بين النعيم والجحيم ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

هي فريضة على الأمة ، فإذا هي تستقطب المؤمنين فرداً فرداً . وإذن هي فريضة ولاء لله ولمن نصَّ عليهم سبحانه إلى قيام الساعة .

أما لعصور الفراغ ، ففيها وجهان متداخلان متراكبان : نظام حكم ، وشورى ، أي اختيار للحاكم . فنظام الحكم ينبغي أن يكون على سنة الله التي سنَّها الرسول ( ص ) ، وذلك بفهم من قوله سبحانه : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ... الآية } . وطريقة الإختيار هي الشورى ، التي تظهر المؤمنين المميزين ، ليختاروا بأية وسيلة شرعية أو عقلية ، أميراً للمؤمنين ، يكون زعيماً أوحداً للأمة . وذلك في قوله سبحانه : { وَالَّذِينَ آمَنُوا } بعد قوله : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } .

وولي الله الذي يجب أن يختار للحكم ، يبرزه الإختصاص في قوله سبحانه : { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } . وذلك ليس قياساً ، وإنما حجة وبرهان وبينة . فإلى قيام الساعة ، يبقى الله في الناس أولياء ظاهرين هم وورثة للرسول (ص) من جهة ، بما ترك من شريعة وتراث . وورثة لـ { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } بما تركوا من نماذج للصدق الفذ ، مع الله ومع عباده من جهة ثانية .

أما الذين يتنكرون لهذا المنطق وهذا الإحتجاج ، فليست لديهم حجة دامغة ولا بينة قاطعة ، إنما هم غالباً ما يتعصبون تعصباً ذمياً ، ويتبعون الظن كما قال سبحانه وتعالى : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } . [ 36 : يونس ] .

فإذن ، الحكم الشرعي للأمة ، ولأهل الأرض إن شاؤوا ، هو ولي الله الذي يختاره المؤمنون المميزون ، في الأمة . ولا بأس بتحديد هؤلاء إما انتخاباً أو تعييناً فيما بينهم . وهؤلاء هم جميعاً أولو الأمر الذين أمر الله سبحانه بطاعتهم : { وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } . [ 59 : النساء ] . فالولاية لولي الله

المنتخب أو المعين عن طريق الشورى استجابةً لأمر الله تعالى ، هي ولاء الله عزت عظمته . وذلك إنطلاقاً ، كما قلنا آنفاً ، من آية :

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... الآية } . فمن الذين آمنوا هؤلاء ، وفي كل عصر ، يتتابع أولياء الله الصالحون ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

### حزب الله تنظيم خاص أم الأمة جمعاء ؟

بقيت الآية الثانية ، قوله سبحانه : { وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } . وهي استمرار لقوله تعالى : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... الآية } فكأنما هما آية واحدة . وهي تنص على الشروط والصفات التي نوهنا بها قبل هذا الكلام ، تحت عنوان : ( من هم حزب الله ) ، والتي بما يكون الإنسان حزباً لله في الحقيقة ، أي مقبولاً عند الله ، عبادته وعمله وجهاده ، وإلا فهو دعوي متورط إما في جهله وإما في ضلاله وإما في كذبه ، ولو تغطى بهذا الاسم ، وليس لبوسه الظاهري دهنراً طويلاً . فإن ذلك لا يغني عن الحق شيئاً . ونجد أمثال ذلك في قوله سبحانه : { الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } .

فحزب الله إذن ، أو المحازب لله حقيقة ، هو . كما نصت عليه الآية . من يتولى من أولي الأمر ، المنتخب أو المعين عن طريق الأمة ، ولياً لله ، بناء على هذه الآية ، أساساً ، أو على مضامينها ، اعتقاداً يوافق هذه المضامين . سواء كان منحرفاً في تنظيم ، يتوافق مع هذه المعاني ، أو لم يكن . وربما كان من هم خارج تنظيم مؤطر محدد يحمل هذا الاسم " حزب الله " هم أولى وأقرب وأحب إلى الله سبحانه ، ولو كانوا في أقاصي المعمورة .

وخلاصة القول ، إن حزب الله ، هم الأمة جمعاء ، إن تولت طاعة لله ، ولياً لله معاصراً ، يباشر سياسة الأمة ، بجهاز . كذلك من أولياء الله الصالحين . وكل ذلك ضمن عقد أو عهد ، تعقد فيه النية ، على أن الولاء لهذا الرجل ، إنما القصد منه . ما دام أمراً من الله . هو الولاء المطلق في النهاية ، لله وحده ، وحده ، وحده ، الذي نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

## متى المهدي المنتظر عليه السلام ؟

لا متى ، وكذب الوقيتون .

إنما حيث أن الأمة ترتقب مهديها المنتظر ، فكل ما ذكرناه من لزوم نظام الأمة وانتظامها ، وارتفاعها من بؤر البؤس والذلة ، والتمزق والتشرد ، والتبعية والفساد ، هو فريضة تعبدية ، تأتي في سياقها ومن ركائزها فرائض الصلاة والزكاة ، والصوم والحج ... قلنا كل الذي ذكرناه ، ينبغي أن يقام كواجب تعبدية لله . والعبادات كلها مصالح للبشر والله غني عن العالمين . لبينا يظهر الله عز وجل وليه المهدي الموعود المنتظر ، فرجاً للمؤمنين ، ورحمة للعالمين .

أما الذين يريدون تجميد القرآن وتعطيل الأحكام بانتظاره عليه السلام فأفضل تشبيه لهم بالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال ، حتى لا يراها الصياد ، ويستهدفها ... بناره .

وَالْأَفْئِدَةُ مِنَ أَنْزَلِ اللَّهُ عَزَّتْ عِظَمَتُهُ :

{ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } .

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } .

و { وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } .

إلى عشرات الآيات التي تلزم وجوباً بالحكم بشريعة الله وتعاليمه ، وبتهيئة

المناخ المناسب لإظهار مهديه المرتقب عليه السلام .

وَالْأَفْئِدَةُ سَبْحَانَهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَرْضَى بِالْفَوْضَى وَالتَّسْيِبِ ، وَالتَّفْكَكِ وَالتَّضَعْفِ

وَالتَّشْتَاتِ وَالتَّهْوَانِ ، هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي تَعَانِي مِنْهَا الْأُمَّةُ ، الَّتِي قَالَ فِيهَا سَبْحَانَهُ : {

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... } .

أربعة عشر قرناً من الإنتظار ، ولم يظهر مهدي الأمة المنتظر ، وما مضى قرن

من هذه القرون ، إلاً وكان فيه محن وفتن وبلاءات ، كانت تشتد وتتفاقم ،

حتى كان الناس يعلنون معها في كل جيل ، قائلين: هذه أيام الظهور ، ظهور المهدي المنتظر ، جميع أجدادنا ، منذ توفي الله محمداً (ص) توقعوا ، كل منهم في جيله ، ظهور المهدي عليه السلام . والله راءٍ ، والله سامع ، والله قادر ، والله فاعل . ثرى ، أهو ابتلاء دهري للناس ، لا سيما منهم أولو الألباب ، مضمونه هكذا : إنه يا عقلاء ، برغم أنكم عقلاء ، وقد عرفتم أكثر فأكثر ، كل جيل يعرف أكثر من سابقه ، بحكم زيادة العلوم والمعارف ، أن الله عزّ وجلّ معكم ، وأقرب إليكم من حبل الوريد ، وسامع بصير قادر ، بيده الخير ، كل خير ، وهو رب المهدي وربكم ، وهو سبحانه لو استقمتم على الطريقة لأسقاكم ماءً غدقا ، ومع ذلك كأنكم لا تريدون منه سبحانه وتبارك وتعالى ، وإنما تريدون فقط ، من المهدي المنتظر ! ...

صحيح ، الله أعلم بعباده ، وهم لو كانوا جميعاً يستطيعون التعامل معه سبحانه تعامل العارفين ، وتعامل الواصلين ، وتعامل المصطفين المجتبيين الأبرار ، لكان منذ البداية كفاهم مؤونة اتباع هؤلاء جميعاً ، وألزمهم الفطرة التي فطروهم عليها ، والعقول التي جهزهم بها ، ولكن رحمته أوسع وأعظم ، حيث تفضل عليهم تفضلاً ، بإنباء الأنبياء ، وإرسال الرسل ، وإقامة الأئمة والأولياء الصالحين ، واعداداً إياهم قبل قيام الساعة ، بعودة رسوله المسيح وظهور وليه الموعود ، عليهما أزكى الصلاة والسلام . كل هذا صحيح ، وحققي ، ولكن العقل يقضي بالحقيقة الأعظم ، وهي أن الله عزّ وجلّ ، هو الحي القيوم ، والسميع البصير ، وأنه بكل شيء محيط ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن فوق هذه الحقيقة ، الحق الذي يقضي به الله عزّ وجلّ وليس فوق هذا الحق فوق ، سوى الله جلّ جلاله ، قوله تبارك وتعالى : { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [ 20 : غافر ] .

والذي نريد أن نقوله ، هو الطعن بطريقة الإنتظار ، الطريقة . البلاء ، التي يمارسها أكثر الناس ويعيشون تحت وطأتها . فهم ينتظرون المهدي ناسين الله عزّ وجلّ ، المهدي عندهم مع هذا النسيان ، كأنما هو بديل عن الله عزّت عظمته . ينتظرونه وكأنه سيحول الدنيا إلى جنة ، إلى أموال وثروات ، وكشف كنوز الذهب والياقوت

... وتأمين الرفاه والبحبوحه والنعيم المقيم ، بعد أن يحصد أعداء المسلمين وجميع الكفار حصدا . وهذا مستحيل ، لأن الدنيا هي الدنيا ، والجنة هي العليا .

كان اليهود ينتظرون المسيح بنفس هذا التصور ، وعندما جاءهم المسيح ، رسول سلام ومحبة ، أنكروه ، وما اكتفوا ، بل آذوه أذى منكرًا ، وكذبوه وقذفوه بأشنع التهم هو وأمه عليهما السلام ، وما زالوا ، وادعوا صلبه فخورين بذلك . ومع ذلك نصره الله نصرًا عزيزاً ، على طريقة الله بنصر رسله وأحبتة وأوليائه . يعني نصر دعوته ، دعوته إلى الله وإلى التسامح والمحبة والتطلع إلى رضى الله ورضوانه ، فوق هذه الأرض المحطة ، التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

فما رأي منتظري المهدي عليه السلام ؟ أن يأتي بمثل هذه الوظيفة أصالة وتفريغاً . وهو عليه السلام ، سيأتي بها أصالة ، وهي الدعوة إلى الله ، تجديد الدعوة ، وإحياء مفهوم التوحيد على أصالته . أما في التفريع ، فمن يعلم غير الله ، أبالسيف ، سيأتي ، أم بالعلم والعقل والمحبة ... وعلى هذا الأساس قد ينكره ناس كثيرون ، من الذين ينتظرونه ، حيث أنهم ينتظرونه كما يجونه هم ، لا كما يريد الله سبحانه . وقد يلحقون به الأذى الشديد ، ويحاولون قتله ، كما فعل اليهود ، مع من كان وعدهم الله به ، رسوله المسيح عليه السلام .

ولقد أتى محمد بعد المسيح سلام الله عليهما ، فما أتى بالأموال لأتباعه ، ولا بكنوز الذهب الإبريز ومناجم الياقوت ، وإنما أتى بأعظم من ذلك بدون قياس . أتى بمفهوم التوحيد ، وحقائق التوحيد . أتى بشهادة أن لا إله إلا الله ، وعلم الناس ، أن هذه الشهادة هي مفتاح السماوات والأرض ؟ والحق والحقيقة ، أن قوم محمد الأصفياء (ص) من بعده ، فتحوا بهذا المفتاح الكوني الأعظم ، فتحوا الأرض ، معظمها . وفتحوا جوانب كبيرة من السماء .

فلو أن الناس انتظروا المهدي عليه السلام بهذا المفتاح ، باقياً في قلوبهم وأدمغتهم وأعمالهم ، لظلوا يفتحون بالعلم والعدل والرحمة ، جوانب الأرض ، وبالتقوى والخشوع والخضوع والحب لله تبارك وتعالى جوانب السماء .

أفلا يمكن أن تكون وظيفة المهدي عليه السلام هي استكمال ما جاء به محمد (ص) ، لا للانتقام ولا للمال ولا للرفاه ، وإنما لإستكمال فتح ما لم يفتح من جوانب

الأرض ، بالتوحيد ، بالدعوة إلى الله وحده ، وفتح ما لم يفتح من جوانب السماء ،  
بالتقوى والخشوع والحب الأعظم للحبيب الأعظم ، رب السماوات والأرض وما  
بينهما رب العالمين ؟

أوليس ممكناً ، بهذا التوجه إلى الله ، وهذه المفاهيم ، مفاهيم التوحيد والولاء  
الأصيل لله وحده ، أن نمهد للمسيح وللمهدي عليهما السلام ، قبل إظهارهما ،  
فنوفر عليهما مشقات ، ونوفر على أنفسنا انتظاراً معقداً ومحيراً في وقت واحد ، والله  
الرقيب ، والله الحسيب .

أو لا يستحي المنتظرون ، الذين نسوا الله ، وهو الحي القيوم ، السميع البصير  
، الأقرب إليهم من حبل الوريد ، أن يتوكلوا على عبد من عباده ، ولو كان من  
الصالحين الأبرار المنتجبين ، الذين ليس لهم من الأمر شيء ، إلا أن يهديهم الله ،  
ويظهرهم الله ، وينصرهم الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

ولعله يلاحظ تكرارنا لعبارة : وحده بدون شريك ، أو التأكيد على كلمة ،  
وحده ، هكذا : وحده وحده وحده ، أو بما هو بمعناها . والحقيقة أن ذلك مقصود  
عن سابق تصور وتصميم . فإن حقيقة التوحيد ، التي تقوم عليها السماوات والأرض  
وما بينهما ، أصبحت ضعيفة حتى عند الموحدين ، لدرجة أنه ترتب على قلة العناية  
والإهتمام بها ، التصدع والتفكك والإهتزازات في الأفراد ، وجوانب واسعة من أمة  
التوحيد أو شعوب التوحيد في الأرض . وهذه البلاءات والكوارث ناتجة عن هوى  
الأنفس ، في الميل إلى بديل أو أبدال عن الله جلّ جلاله ، لا سيما في صفوف الأنبياء  
والأئمة ،

حتى الزعماء الدينيين المعاصرين ، أمواتاً وأحياء . أما الآيات التي تصدع بالنهي عن  
عبادة المخلوقين أو النظر إليهم وكأنهم آلهة ، فكثيرة جداً ، يكفي قليل من الفطنة  
والتدبر لأي قارئ عادي للقرآن أن يطلع عليها حيثما يفتح قرآنه باحثاً ومتأملاً  
. وهي آيات تناسب جميع الناس بجميع درجات وصورهم العلمي والثقافي ، حتى  
والإيماني ، لكل درجة منهم لغة . ونأخذ هنا مثلاً نموذجاً ، آية وسطية تخاطب عقل  
الجاهل كما وعقل العالم ، لنقول معها أن كفى بُعداً عن الله وعن توحيده ، وكفى

معاذير ، فيها التعصب والعمى أكثر مما فيها من الإخلاص لله والتقرب إليه بحق لا إله إلا هو . يقول سبحانه :

{ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } . [ 28 : الروم ] .

أي انظروا إلى تعاملكم فيما بينكم { هل لكم من مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } من عبيد وإماء ، شركاء لكم في أموالكم وأعمالكم وتصرفاتكم ، يساوونكم في التسلط والتملك ؟ وتخافونهم كخيفة بعضكم بعضاً ، وأنتم الأسياد المالكون وهم العبيد الأرقاء المملوكون على شتى درجاتهم وقدراتهم ؟ فإن كنتم لا ترضون مساواتهم ولا ترضون مشاركتهم ولا ترضون معصيتهم لكم ، وهذا بديهي منكم ، رغم أن حريتكم كأحرار ، وسيادتكم كأسياد ، وكذلك قواكم وغناكم وجميع معطياتكم هي أمور محدودة ولا تكاد تقاس بما لله عزّ وجلّ ، الذي { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } . فكيف ترضون لربكم رب العالمين ، الذي لا إله إلا هو ، خالق الخلق ، وخالق العباد من جن وإنس وملائكة وغير ذلك ، كيف ترضون له أن يتعبد عباده لغيره ، أو أن يكونوا له شركاء في ملكه وسلطانه وأرضه وسمائه ، وأمره ونهيه ، وتقريره وتشريعته ، إلى غير ذلك من شؤونه في إدارة ملكه العظيم الذي لا يجد ولا يطاول ولا يحاول ، وهو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . فسبحان الله عما يشركون .

## ثانياً : الولاء على مستوى الباطل :

بعد أن تحدثنا عن الولاية لأهل الحق ، في كلامنا على الدرجة الثانية للولاية ، بقي علينا أن نتكلم عن الولاء لأهل الباطل بشكل عام . فأقول وما توفيقي إلا بالله الحليم الكريم :

إن الولاء لله سبحانه بالأصالة ، ولرسوله والذين آمنوا (ص) بالتبع ، والمتمثل بلزوم الآية الكريمة { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } ، هو واجب عيني فيه توسعة ، من جهة العلم والإعتقاد ،

والعمل بهما بقدر التمكين . هذا من وجه ، ومن وجه آخر ، هو واجب كفائي من جهة إقامة نظام حكم وتشريع ، أي نظام دولة ، وفي الحالين ، هو ملزم . أي الولاء . إلى قيام الساعة .

هذا الولاء . القضاء أصالةً ، هو لله وحده بدون شريك أو شركاء ، { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } ، يقابله عدااء لله متمثل بمخالفته سبحانه إلى غير دينه وشريعته . ومعنى ذلك باختصار : الحكم بغير ما أنزل الله جلّت عظمته ، سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي أو الدولي بشكل عام .

ولذلك اعتبر . في الفقه عامة . النظام الذي لا يحكم بما أنزل الله ، نظاماً ظالماً ، أو حكماً ظالماً ، والمواقف التي لا تستوحى من الولاء لله عملاً بدينه وشريعته وسنة رسوله ، مواقف ظالمة .

وكذلك اعتبر الحاكم الذي لا يحكم بما أنزل الله ، طاغوتاً ، ومساعدوه طواغيت والطاغوت ، هو كل ما يعبد أو يطاع أو يتوجه إليه أو يقاتل في سبيله من دون الله . ولذلك كان الشيطان طاغوتاً ، والنفس الأمارة بالسوء طاغوتاً ، وكذلك المخالف لشرائع الله حاكماً أو محكوماً . والطواغيت أعداء الله ، لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب . { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } . [ 19 : الأحقاف ] .

وهذه المعاني مستفادة من كتاب الله تبارك وتعالى ، ولا سيما الآيات التي تنص على أنواع الولاية .

وربطاً بالمرحلة التي وصلنا إليها من بحثنا هذا ، نكتفي الآن بإدراج الآيات المتعلقة بالولاء لغير الله سبحانه، أي المتعلقة بالولاء للطواغيت بشتى أسمائهم ودرجاتهم، وبما أن هذه الآيات واضحة مفصلة، لذلك ندونها هنا، تاركين للقارىء تدبرها، كل بمقدار همته وصفائه ، ومدى حرصه على طاعة الله ورضاه، عزّ وجلّ ، وتبارك وتعالى :

قال لا إله إلا هو :

{ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ  
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ  
بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا }  
[ ( 116 . 115 ) : النساء ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ  
أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا  
قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَكَذَلِكَ  
نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [ ( 129 . 128 ) : الأنعام ]

وقال لا إله إلا هو :

{ وَمَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعْ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ  
مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ } [ ( 4 . 3 الحج ]

وقال لا إله إلا هو :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ  
وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ... } [ 15 . 14 ]  
( : المجادلة ) .

وقال لا إله إلا هو :

{ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ  
وظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [ 9 :  
المتحنة ] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ  
بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [ 51 :  
المائدة ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } . [ ( 100 . 98 ) : النحل ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَليُّ الْمُتَّقِينَ } . [ 19 : الجاثية ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . وَذُؤًا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليًا وَلَا نَصِيرًا } . [ ( 89 . 88 ) : النساء ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وُليًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا } . [ 119 : النساء ] .

وقال لا إله إلا هو : { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ

لِلشَّيْطَانِ وُليًا } . [ 45 : مريم ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وُليُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } . [ 63 : النحل ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ  
الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } . [ 76 :  
النساء ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ  
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْبَسْتَهُمْ فِي أَعْيُنِنَا الْوَدَانَ فَلْيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَعَلَّهُمْ  
يَرْجِعُونَ } . [ 139 : النساء ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ  
أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } . [ 144 : النساء ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُورًا وَلَعِبًا مِّنْ  
الدِّينِ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } .  
[ 57 : المائدة ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ  
سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا  
أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } . [ ( 80 . 81 ) :  
المائدة ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ  
عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرََاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا  
جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } . [ 27 : الأعراف ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ  
مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ } . [ 30 : الأعراف ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... } . [ 73 : الأنفال ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ  
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ  
تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ  
عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } . [ 16 : الرعد ]

وقال لا إله إلا هو :

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ  
فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ  
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } . [ 50 : الكهف ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا  
جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } . [ 102 : الكهف ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي  
هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن  
دُونِكَ مِن أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا .  
فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يظلم مِّنكُمْ نُذِقْهُ  
عَذَابًا كَبِيرًا } . [ ( 19 . 17 ) : الفرقان ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } . [ ( 43 . 41 ) : العنكبوت ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ } . [ 19 : الجاثية ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ } . [ ( 2.1 ) : الممتحنة ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } . [ 175 : آل عمران ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ... } . [ 257 : البقرة ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } . [ 121 : الأنعام ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا . ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ  
بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا } . [ (69 . 70 ) : مريم ] .

وقال لا إله إلا هو :

{ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ  
. يَدْعُوا لِمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَنَسِ الْمَوْلَىٰ وَلِبَنَسِ الْعَشِيرِ } . [ (12) .  
( 13 ) : الحج ] .

الدرجة الثالثة ، ولاء المؤمنين لبعضهم البعض :

كما أن الدرجة الثانية ، من جهة الولاء لأهل الحق ، تتمثل بآية واحدة في  
القرآن ، هي قوله تعالى : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ  
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } . كذلك الدرجة الثالثة ، التي هي ولاء المؤمنين لبعضهم  
البعض ، تتمثل بآية واحدة ، في القرآن المجيد : هي قوله تبارك وتعالى :

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } . [ ( 71 : التوبة ) ] .

هذه الآية تعود إليها كل آية في القرآن الكريم تصف أي فريق من عامة الناس  
بصفة الإيمان، ومثال على ذلك الآيات 72 و73 و74 من سورة الأنفال. وكذلك تعود  
إليها كل آية فيها اشتقاق من (الولاء) واشتقاق من (الإيمان)، مثل الآية السادسة من  
سورة الأحزاب وغيرها .

وهذه الآية { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ } . كما يشير  
مضمونها . ، تأتي فوقها آية { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... } ، كما يأتي  
فوقهما الآيات السبعون التي تدعو لأصالة الولاء أو الولاية لله وحده سبحانه ، أو  
تخذر من الولاء لغيره من دونه ، تمجد وتبارك وتعالى عما يشركون .

الولاء لغير المؤمنين من الخلائق ممنوع :

كذلك في الدرجة الثالثة، الشعبية، المؤمنون مأمورون بالولاء لبعضهم  
البعض، ومنهيون عن الولاء لغير المؤمنين من خلق الله ، وهكذا أصبحت صورة حزب

الله واضحة المعالم على مستوى أهل الأرض : جميع المؤمنين على هذا الأساس الحقيقي الواضح هم حزب الله ، وجميع الباقين ، هم حزب لغير الله ، هم حزب الطاغوت أو أولياء الطاغوت .

والإطار التنظيمي لأية حركة دينية ، قد تفترض من الناحية الشرعية حزباً لله، ولو لم تأخذ نفس الاسم ( حزب الله ) . هذا إذا اكتملت فيها مضامين الآية الكريمة : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... } لأنها تكون شريحة من مجتمع المؤمنين، فتكون جزءاً من كل ، كما يكون ( حزب الله ) المؤطر المحدد ضمن عامة المؤمنين جزءاً من كل .

أما الحقيقة ، فهي أن حزب الله الحقيقي المتكامل ، هو الكل ، أي الأمة المؤمنة المتلبسة بشروط الآيتين الكريميتين : آية الدرجة الثانية : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... } ، وآية الدرجة الثالثة : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... } ، المؤديتين بالضرورة إلى الدرجة الأولى ، التي هي الولاء المطلق لله وحده ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

وهكذا نرى أن البناء الإسلامي . الإيمان ، هو بناء أرضي . سماوي ، فيه الثلاث درجات المنوّه عنها: درجتان فيهما الحاكمون بأمر الله ، والمحكومون بشريعة الله، والدرجة التي فوقهما هي المطلقة التي فيها الولاء المطلق لأحكام الحاكمين {رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ } . [ 15 : غافر ] .

هذا إذا كان منجزاً النظام الشرعي الحاكم. أما إذا لم يكن منجزاً . وبذلك يَأْتَم جميع المؤمنين كل بنسبة موقعه . فإن ولاء المؤمنين الحي والعملي ، ينبغي أن يكون لله وحده ، تمسكاً بمضمون الكتاب وضروريات الدين . ويسقط الإثم النسبي عن المؤمنين في الأمة ، إذا كانوا عاملين ، كفايةً ، وبما يرضي الله ، على إنجاز نظام يحفظ شرفهم وكرامتهم في الحياتين : الدنيا والآخرة . أو إذا كانوا في مناطق إختلاط مع ملل أخرى ، تساويهم أو تزيد عليهم ، مما يؤدي بهم ، إذا سعوا إلى إقامة النظام الشرعي الإلهي ، إلى إشعال الفتن والحروب التي تتنافى مع الحكمة والتعايش العادل المتراحم .

أما الشريحة الثانية ، في مجتمع محلي ، أو في المجتمع العالمي ، التي تقابل عامة المؤمنين، أو عامة حزب الله العالمي، فهم كما قلنا حزب غير الله . أمثال اللادينيين أو الوثنيين، أو العلمانيين أو أهل الشرك من أهل الكتاب ، أو أهل الشرك عامة ، أو العرقين والعنصريين، فهؤلاء يكون التعايش معهم في حالي وجود نظام إسلامي شرعي، أو نظام غير إسلامي شرعي، على أساس الآية الكريمة ، قوله تبارك وتعالى :

{ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ } [ (20.19):الرحمن ]

وقوله سبحانه :

{ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ

بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا } . [ 53 : الفرقان ] .

وظاهر الآيتين واضح على أساس العبارة، أما تأويلاً، فمنهما المجتمعان المتعايشان في الأرض : مجتمع المؤمنين العذب الفرات ، ومجتمع الآخرين المالح الأجاج. مرجهما الله سبحانه ، خليطاً يتبادل المنافع والمصالح في حدود شرعه ومن يعمل بشرعه سبحانه ، جاعلاً بينهما برزخاً ، أي فاصلاً من قدرته ورحمته ، كما جعل بين الماء المالح والماء العذب في البحار، فلا يبغي أو يطغي أحدهما على الآخر، إلا إذا أخل أحد الطرفين، فيكون عند ذلك لكل إخلال حكم، ولكل واقعة موقف من قبل المؤمنين، عاملين على إصلاح الحال وإصلاح ذات البين، بما يحفظ شرفهم وكرامتهم وولاءهم لرب العالمين. كما علمهم سبحانه في مجمل كتابه وستة رسوله وأوليائه(ص).

وإذا دار الأمر على وجود حكومتين ، إحداهما إسلامية كما هو الحال في إيران ، والأخرى غير إسلامية كما هو الحال في أميركا مثلاً ، فالمقبول عقلاً من الآخرين ،

والمفروض شرعاً من المسلمين ، حسب تأويل الآيتين { مَرَجَ ... } و { هُوَ الَّذِي مَرَجَ ... } ، في كل حكومة أن تؤمن وتحترم الأحوال الشخصية لكل ملة من الملل الموجودة فيها، وأن يتساوى الجميع في الحقوق والواجبات ، وأن لا يخل المسلمون بقوانين الدولة غير الإسلامية ، التي هم فيها ، فإن أكرهوا على ما لا يوافق أمر الله تعالى ، وجب عليهم الخروج من تلك البلاد .

كما وأن لا يخل غير المسلمين بقوانين الدولة الإسلامية التي هي شريعة الله ، فإن أكرهوا على ما لا يوافق ملتهم أو توجهاتهم وأفكارهم ، خرجوا كذلك .  
على أن الحوار الفكري ، والمنطقي العادل ، والمفاهيم الأخلاقية المتقاربة ، ينبغي أن تعالج كل إشكال ، وتسبق كل خروج . وإذا لم يكن لا هذا ولا ذاك ، وقعت الفتن الدامية المدمرة، ووقع معها غضب الله ولعنته على الغادرين المعتدين ، والبغاة الظالمين، حيث يكون لهم من الله، خزي في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة عذاب عظيم .  
أي إن أي إخلال من الطرفين، تكون عاقبته فتنة . كما إذا أخل بتعكير الماءين المتجاورين وخطب العذب بالمالح . يكون مردودها في حكم الله على مفتعلها ، نقمة وعذاباً ولو بعد حين .

هذا في مجال التعامل الجماعي، بين المؤمنين من جهة، وغير المؤمنين من جهة ثانية .

وشريطة الله عزّ وجلّ، على المؤمنين أن يكونوا يداً واحدة على من سواهم .  
أما في مجالات العلاقات الفردية، أو الإجتماعية الضيقة، فهناك قواعد وضوابط قرآنية للسلوك، حتى القلبي منه، فضلاً عن العلاقات العملية مع غير المؤمنين بشكل عام . نذكر منها قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } . [ 1 : الممتحنة ] .

والآية أوضح من أن تفسر ، إلا أنه ينبغي الإلفات فيها إلى عميق قوله سبحانه : { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ } .  
وقوله سبحانه :

{ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } . [ 67 : الزخرف ] .

الأخلاء، أي الأصدقاء الذين يقيمون علاقات مودة دائمة يعامل فيها المؤمن وغير المؤمن على مستوى واحد ، أو أكثر من ذلك ، يكون لغير المؤمن فيها الأولوية في الولاء والصحبة والمودة ، أو أكثر من ذلك ، يستبعد منها المؤمنون ، ويكون التصافي فيها بين العلمانيين ، أو العرقين ، أو اللادينيين ، أو حتى الزنادقة وغيرهم . هؤلاء تنقلب صداقاتهم الحميمة في الدنيا إلى عداوة ونفور شديد في الآخرة . بينما تستمر العلاقة بين الذين بنوا علاقاتهم على أساس الإيمان والتقوى والأخوة في الله ، كما في الدنيا كذلك في الآخرة، مع فارق ما بين الدنيا والآخرة .

وكذلك قوله تبارك وتعالى :

{ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ } . [ 25 : العنكبوت ] .

وفي هذه الآية الكريمة يبين الله حكمه في العلاقات الحميمة بين الأفراد والجماعات، والمبنية على المودة ، والتحالف في المصالح ، والأنس في المجالس ، والتفاخر والتباهي بها وبالمظاهر الدنيوية ، في مواجهة المؤمنين الأتقياء ، بعيداً عن الله وعن تقواه ، وعن دينه وتعاليمه . فإن حكمه سبحانه في هذه العلاقات ، هو أنها وثنية ، كعابدي الأوثان والأصنام والأنصاب . وأن هؤلاء الأصدقاء والأصحاب في علاقاتهم الحميمة فيما بينهم ، غداً ، يوم يحشرون للحساب يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ، وأكثر من ذلك ، يلعن ويشتم بعضهم بعضاً وكل ذلك يهون أمام مأواهم الذي هو النار وما لهم من ناصرين .

وكذلك قوله عز وجل :

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } . [ 16 : التوبة ] .

أي أن المؤمنين ولو كانوا جاهدوا في سبيل الله ، وفي نفس الوقت استعانوا بمثل الحمية الجاهلية ، بغير الله ورسوله والمؤمنين ، وغرقتهم في أصدقاتهم من غير المؤمنين ،

الكثرة ، أو القوة ، أو العرقية والعصبية ، ناسين الله وسنة رسوله وأخوتهم في الله ، المؤمنين ، ولم يعقدوا النية على أن جهادهم هو في سبيل الله وحده ، هؤلاء عملهم حابط ، وحتى يكون مقبولاً ، يجب أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى ، وأن لا تكون وليجتهم ، أي بطانتهم وأصفيائهم ، من غير المؤمنين .

وكذلك الآية التي يتلى فيها سبحانه ، أهل الإيمان ، ويمحص بها قلوبهم ، وينقي نفوسهم ، ويشحذهم شحداً ليكونوا في النتيجة سيوف صدق لله وحده لا شريك له ، فيكون لهم حظ الترقى في معارج الكمال والقرب من الله الحبيب والسعادة الأبدية . قوله تبارك وتعالى :

{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } . [ 4 : الممتحنة ] .

حتى إذا صدقوا الله ، وروضوا قلوبهم ونفوسهم وأفكارهم وتوجهاتهم على تصديق الآية قولاً عقلياً ، وعملاً قلبياً ، رفع عنهم الله سبحانه وطأة هذه الآية العظيمة ، وبلاءها العميق ، ونقلهم إلى بعض مصاديق ما بعدها ، قوله سبحانه وتعالى :

{ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } . [ 7 : الممتحنة ] .

وذلك إما بهداية من عاديتهم منهم ، وإما بالتخفيف عنكم بإدخالكم مداخل صدق ، في هذا الموضوع ، فيها الكثير من نعمه ورحمته الواسعة .

ثم تضيق مساحة الإبتلاء على المؤمنين ، يريدهم ، أو يريد منهم ، أولياء ، أصفياء ، صديقين مقربين ، ليجعل منهم قادة ومعلمين دعاة إلى الله وحده كما ينبغي لكرم وجهه ، مجاهدين في سبيله وحده ، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكبريائه ، وعزته ووحدانيته ، يقول سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا  
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ  
آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ  
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي  
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } . [ (23)  
. (24) : التوبة ] .

ففي الآية الأولى ، نهي الله سبحانه عن أن يتخذ المؤمنون ، أقرب الناس إليهم  
أولياء ، إن استحبوا الكفر على الإيمان ، وإن كانوا آباءهم وإخوتهم فمن باب أولى ،  
ما دام الأمر كذلك أن يمتنعوا عن الولاء لأي إنسان آخر إذا كان من غير المؤمنين ،  
والملاحظة في الآية أنه سبحانه لم يذكر الأبناء ، لأنه من الشاذ اتخاذ الأبناء أولياء من  
قبل الآباء .

فيكون ، على هذا الأساس ، أيما مؤمن عادي ، هو أقرب إلى مؤمن آخر ،  
من أبيه وأخوته وذويه ، إذا كان هذا الأب وهؤلاء الأخوة وهؤلاء الأقارب ، يستحبون  
الكفر على الإيمان ، مجانبين للمؤمنين متكررين لهم أو زاهدين فيهم ، مفضلين عليهم  
غير المؤمنين .

والحكم في ذلك كله ، لله تبارك وتعالى ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي  
الصدور ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، ويجاسب على توجهات الإنسان في مشاعره  
وعواطفه وميوله ، وخطرات فكره ونبضات قلبه . والآية الثانية تشير إلى هذه المحاسبة  
الدقيقة ، على هذه الحركات والمعاني النفسية والقلبية البالغة الحفء :  
{ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ... الآية } .

فالأحب الأعظم . حسب مضمون الآية . هو الله سبحانه وتعالى ، وله  
الولاء الأعظم والحب الأعظم ، وما يفيض من هذا الحب فهو للرسول (ص) وللجهاد  
في سبيل الله ، وهذا يعني أن الجهاد ، ينبغي الإقبال عليه بحب وبشوق وإقدام ، وليس  
بوجل وتكاسل وتردد . وبقية ما يفيض من هذا الحب ، هو لأئمة الحق ، وأعلام  
الصدق ، وبقية الأعيان والمعاني بنسبة قربها من الله تعالى وبنسبة حبه هو تعالى لها ،

إذ من صفات المؤمن الأساسية ، أن يحب ما يحبه الله وأن يبغض ما يبغضه الله ،  
وتحصيل ذلك والفصل فيه ، هو بفضل منه سبحانه ، سهل وبسيط عند الصديقين  
والأولياء والأصفياء .

بقيت الخلاصة المفزعة ، في أواخر آية الحب هذه ، هي قوله سبحانه { فَتَرَبَّصُوا  
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } . وهذا يعني أن أمراً من هذه  
الأمر التي ذكرها تعالى في الآية ، إذا كان أحب إلى إنسان ما من الله ... فهو فاسق  
. ومن يجب أباه ، أمه ، أبناءه ، أطفاله ، إخوانه ، زوجته ، بعض أقاربه ، ماله ...  
أكثر مما يجب الله ... فهو خارج من دين الله ، وذلك هو معنى الفسوق . والخروج  
من دين الله فيه معنى الردة والإرتداد ، ومن يخرج من دين الله

متراجعاً مرتداً ، فهو إلى جاهلية جهلاء أو ضلالة عمياء ، فيها الزيفان عن الحق :  
{ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } . [ 5 : الصف ] . وفيها عبادة الهوى : { أَفَرَأَيْتَ مَنْ  
اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً  
فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } . [ 23 : الجاثية ] . وكذلك ، وفيها  
الإستجابة لشياطين الجن والإنس والتعامي عن الآخرة والحساب : { إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ  
... فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى } . [ (16.15) : طه ]  
. وفيها السقوط الأبدي ، نتيجة الإخلاق إلى

الأرض ، بسبب الإنسلاخ من آيات الله : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا  
فَانسَلَخَ مِنْهَا ... وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ... }  
[ 176 : الأعراف ] .

وذلك كله ، وفوقه أنواع من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، في ثنايا قوله سبحانه :  
{ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } .

وقد يظن القارىء في ذلك ، مخارج سهلة من تربص الله به ، ومن الإدعاء  
بالفسوق عليه ، ذلك بأن يصرح للناس لفظاً أو كتابة ، بأنه يجب الله ورسوله والجهاد  
في سبيل الله ، أكثر مما يجب أباه وأمه وأولاده ، ولا سيما الأطفال ... وإخوته وماله  
و ... و ... إلى آخر المذكورات في الآية الكريمة .

ولا بد هنا من الإشارة ، إلى أن هذه الأمور التي ذكرها سبحانه في الآية ، هي من متعلقات الحب الحلال . فأما متعلقات الحب الحرام فكثيرة ، ولا تجوز معها المفاضلة والترجيح ، كما هو الشأن في الآية الكريمة . فحب الحرام أصلاً من المهلكات . وعلى أي حال ، ففي المحاولة ، محاولة الخلوص من المطبات والبؤر السوداء ، جهاد ، إذا اغتسل له المتورط غسل التوبة إلى الله ، وهو غسل باطني ، تغسل وتطهر فيه النفس والقلب والجوارح . فإن في ذلك طموح شريف ، أو شرف طموح . والله المنتقم الجبار ، هو ذاته الغفور الرحيم . سبحانه وتعالى ، له المجد وله الحمد .

قلنا قد يصرح الإنسان بأن الله سبحانه هو الأحب ، ولكن التصريح هذا ، قد يخدع الناس ، وقد يخدع أكثر المؤمنين ، ولكنه لن يخدع الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . فإذا كان الإنسان صادقاً ، فهو تعالى أعلم به من نفسه ، فيثيبه ويزيده من هداه ومن كل خير أحاط به علمه . وإن كان كاذباً ، فالله كذلك أعلم به من نفسه .

قال سبحانه :

{ .. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً . مُذَبَذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً } . [142 . 143 : النساء]

لذلك ، على المؤمن أن يحرص حرصاً شديداً ، على ضبط عواطفه ، وميوله ، وتركيز حبه ، محاسباً نفسه بين الحين والحين ، متسائلاً باحثاً ، منقياً ، مجتهداً ، ليعلم إذا كان شيء من أشياء الدنيا والآخرة ، أحب إليه من الله ... وإذا أمكن أن يحاسب نفسه كل يوم ، وكل لحظة ، يعني أن يحاسب أنفاسه ، فإذا فعل ذلك ، طيب الله حتى أنفاسه ، وطيب عمره ، وطيب حياته وطيب آخرته . وجعله سبحانه من { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . [32 : النحل] . وليس من الذين قال فيهم سبحانه :

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
إِسْرَارَهُمْ . فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } [27.26:  
محمد ] . وقال تبارك وتعالى : { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ  
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [ 50:الأنفال ]

# 4

دعوة إلى الله

وحي الله هل ينقطع عن العباد؟

الإيضاحات الكاشفة الرابعة

## وحي الله هل ينقطع عن العباد ؟

الوحي في اللغة العربية :

جاء في لسان العرب لابن منظور في باب وحي ما يلي :

[ قال الأزهري : وقال الله عزّ وجل : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ }

قال الوحي ههنا إلقاء الله في قلبها ، قال وما بعد هذا يدل ، والله أعلم ، على أنه وحي من الله على جهة الإعلام للضمان لها : إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ؛

وقيل : إن معنى الوحي ههنا الإلهام ، قال وجائز أن يلقي الله في قلبها أنه مردود إليها وأنه يكون مرسلًا ، ولكن الإعلام أبين في معنى الوحي ههنا . قال أبو إسحق : وأصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء ، ولذلك صار الإلهام يسمى وحيًا ؛ قال الأزهري : وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحيًا والكتابة تسمى وحيًا . وقال الله عز وجل : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ } ؛ معناه إلا أن يوحي إليه وحيًا فيعلمه بما يعلم البشر أنه أعلمه ، إما إلهامًا أو رؤيًا ، وإما أن ينزل عليه كتابًا كما أنزل على موسى ، أو قرآنًا يتلى عليه كما أنزل على سيدنا محمد رسول الله ، (ص) ، وكل هذا إعلام ، وإن اختلفت أسباب الإعلام فيها . وروى الأزهري عن أبي زيد في قوله عز وجل : { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ } ، من أوحيت ، قال : وناس من العرب يقولون : وحيت إليه ووحيت له وأوحيت إليه وله ، قال : وقرأ جُوِيَّةُ الأسدي : قل أُحِيَ إِلَيَّ من وحيت ، همز الواو . ووحيت إليك بخبر كذا أي أشرت وصوتُ به رويدًا . قال أبو الهيثم : يقال وحيت إلى فلان أحي إليه وحيًا ، وأوحيت إليه أوحى إيجاء إذا أشرت إليه وأومأت ، قال :

وأما اللغة الفاشية في القرآن فبالألف ، وأما في غير القرآن العظيم فوحيت إلى فلان مشهورة ، وأنشد العجاج :

وحي لها القرارَ فاستقرت

أي وحي الله تعالى للأرض بأن تقرّ قرارًا ولا تميد بأهلها أي أشار إليها بذلك ، قال : ويكون وحي لها القرار أي كتب لها القرار . يقال وحيت الكتاب أحيه وحيًا أي كتبه فهو مَوْحِيٌّ . قال رؤبة :

إنجيلُ توراةٍ وحي مُنَمِّمُهُ

أي كتبه كاتبه . [ انتهى كلام ابن منظور .

\* \* \*

وفي الميزان في تفسير القرآن ج 12 ص 292 جاء ما يلي :

[ الوحي . كما قال الراغب . الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرد عن التركيب أو بإشارة ونحوها ، والحصل من موارد استعماله أنه إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي وكذا ورود المعنى في النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسة أو بالإشارة كل ذلك من الوحي ، وقد استعمل في كلامه تعالى في كل هذه المعاني . ] .

\* \* \*

قال الله تبارك وتعالى :

{ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } . [ 51 : الشورى ] .

فعلى أساس هذه المعاني المستفادة من اللغة العربية ولغة القرآن الكريم ، نلخص مفهوم الوحي في ثلاثة أقسام :

أولاً : ما كان خيراً محضاً ، فهو ينسب إلى الله تعالى ، ويكون بما يلي : العبارة والإشارة واللفظ والحقائق المستكنة تأويلاً في الكلام الظاهري ، والإشارة السريعة ، الرمز ، الصوت بالواسطة ، إلقاء المعاني سراً ، الإلهام ، التفهيم ، التعليم بدون معلم غير الله ، الرؤيا الصادقة ، غرز الغرائز في الحيوان .

ثانياً : ما كان خيراً بين عباده سبحانه ، ويكون إما كتابة أو إشارة ، أو صوتاً ، أو رمزاً .

ثالثاً : ما كان شراً أو أذىً أو ضراً ، وهو ما يكون من شياطين الإنس والجن ، إما وسوسة ، وإما بزخرف القول .

وما يهمنا من هذا البحث هو القسم الأول ، لذلك سنقصر كلامنا عليه ، والله المستعان . وعدتنا في ذلك آيات الله البينات .

فلنتأمل في هذه الحقيقة الماثلة في القرآن الكريم وفي واقع الحال وهي أن الله كان يكثر من إرسال الرسل ، يوحى إليهم ، فيرسل إلى كل قرية رسولا ، وأحيانا، اثنين ، وأحيانا ثلاثة ، قال سبحانه :

{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ... } . [ (15:13) ]  
يس : .

وأحيانا ثلاثة عشر رسولا ونبياً دفعة واحدة وفي قرية واحدة ، يوحى إليهم ، كما كان الحال مع يعقوب وأبنائه الإثني عشر ، الذين يمكن القول فيهم إن اثنين منهم فقط كانا نبيين ، وواحد ما علمنا من القرآن ما يشينه ، فهؤلاء ثلاثة ، هم يعقوب وولده يوسف وأخوه لأبيه وأمه ، أما الآخرون العشرة ، فهم أبناء يعقوب الذين سماهم القرآن الكريم : الأسباط ؛ وكانوا مجرمين جناة ، حاولوا قتل أخيهم برميهِ في بئر أنقذه الله سبحانه منها ، وهم رجعوا إلى أبيهم يكذبون ويكذبون ، ويأتون بدم كذب على قميص أخيهم زاعمين أنه أكله الذئب . هؤلاء جميعاً ، الثلاثة الأنبياء والمجرمون العشرة ، جمعهم الله في مدة زمنية واحدة ، وأوحى إليهم جميعاً بدون استثناء ، أما بالنسبة للعشرة العصاة الجناة ، فبعد أن تابوا إلى الله توبة نصوحاً . ثم جعل سبحانه ، من هؤلاء الأسباط ، يوسف وأخيه ، والعشرة المذكورين ، قادة نقباء لأقوامهم . قوله سبحانه وتعالى :

{ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ } . [ 12 ]  
المائدة : .

أما عن أنه أوحى إليهم جميعاً فقوله سبحانه :

{ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } . [ 136: البقرة ] .

وقوله تبارك وتعالى :

{ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } . [ 84 : آل عمران ] .

والملاحظ في هاتين الآيتين ، كما أن المسلمين عامة ملزمون بالإيمان بما أنزل إلى هؤلاء المذكورين جميعاً عليهم السلام ، كذلك النبي (ص) هو ملزم أيضاً بدلالة الآية الثانية : قُلْ آمَنَّا ...

ثم الآية التي تذكر الوحي إلى الأسباط كما إلى غيرهم بصريح الكلمة:

{أَوْحَيْنَا} قوله سبحانه وتعالى :

{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } . [ ( 163 . 165 : النساء ) ] .

فما نستنتجه هنا أن الله كان يرسل الرسل بغزارة ، منهم من يحمل رسالات سريعة ، لم يبق منها في تاريخ هؤلاء الرسل وتاريخ البشرية ، إلا الكلمة العظيمة المختصرة : أيها الناس اعبدوا الله وحده . ثم يختفي الرسل بالتوفي وتختفي حتى أسماء كثير منهم ، ويبقى الحي القيوم وحده ، الذي أرسلهم وأرسل الآخرين الكبار غيرهم ، وإنما برسالات كبيرة وغنية مغنية إلا عن الله سبحانه الذي هو المغني بالنتيجة وحده لا

شريك له . ختم هذه الرسائل بأجلها وأغناها وأكفأها إلى يوم القيامة ، عنيت الرسالة التي حملها رسوله العظيم ونبيه الكريم محمداً (ص) .

إلا أن السؤال ، هل توقف الزمان وتوقفت الرسائل الصغيرة السريعة والمتنوعة ، عند محمد (ص) . وهل توقف الوحي بجميع معانيه المذكورة لله سبحانه ، توقفاً نهائياً بعد محمد (ص) ولو كان هو خاتم النبيين كما قال عنه سبحانه وتعالى . يعني هل توقف تدبير الله لخلقه أفراداً وجماعات بما ذكرنا من الإشارة ، التي نفهمها من قول الصادق جعفر بن محمد رضي الله عنهما : القرآن على أربعة أمور : العبارة للعوام والإشارة للخواص واللفظ للأولياء والحقائق للأنبياء .

والإشارة السريعة، مثل صوت ينبهك لصلاة الفجر، وصوت آخر مختلف ينبهك لقيام الليل، وهذه الأصوات أو الحركات المنبهة في الأذنين أو المنخرين ليست كالأصوات أو الحركات المألوفة غالباً في حياتك الظاهرية، ومن الإشارة السريعة كذلك، تنبهك الفجائي لعدوٍ آتٍ من خلفك دون هسيس ولا حسيس. أو انحناءة سريعة منك دون قصد لتمر رصاصة كنت بما مستهدفاً، أو انتقال من مكانك وحدك أو مع عيالك أو آخرين انتقالاً لا مبرر له في الظاهر ، حتى تعلم السرَّ بعد سقوط قذيفة أو شظية في نفس المكان ، أو... أو... ولا تنتهي هذه الحكايا وأشباهاها عندك وعند المؤمنين العاديين ، وحتى عند كثرة من الناس العاديين وحتى الكفار والفساق، الذين تأبى عظمة الله إلا أن تنالهم برحمته الواسعة، عسى أن يعوا ويرجعوا، ويرجعوا إلى مولاهم الحق مدعنين خجلين تائبين، والله وحده يغفر الذنب العظيم ويعفو عن الجسيم ويقبل التوبة ويجب التوابين . ويبدل السيئات بحسنات .

أما عن الرمز فكما هو في رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا فرعون . السبع بقرات، كذلك هو في رؤى الناس مؤمنين وكافرين أيام يوسف وفرعونه ، وقبلهما وبعدهما إلى قيام الساعة ، وهذا وحي من وحي الله ، وبالكيفية التي يعلمها الله .

وما دمننا ذكرنا الكيفية ، فهنا ينبغي القول معها ، أنه كما لا يجوز لنا أن نتعرض بالبحث لذات الله سبحانه ، من جهة الكيف والكم والأين إلى آخر ما توصف المجسمات وتحدد به المخلوقات ، فكذلك لا يجوز البحث بالكيف أو الكيفية التي يوحي بها سبحانه لخلقه وعامة عباده ناهيك عن خاصتهم من أنبيائه وأوليائه ورسوله .

ونتابع أنواع الوحي ، فبعد الرمز ، حسب الترتيب غير المقصود من حيث تقديم أو تأخير نوع من آخر ، يأتي بعد الرمز ، الصوت بالواسطة . فكم سمعنا ويسمع المؤمنون وعامة الناس ، عن فلان أو فلانة وسماع كل منهما هذا يقول إنه سمع في يقظته صوتاً يقول له وذلك يقول إنه سمع وهو بين النوم واليقظة ، وتلك تسألنا ماذا نسمي هذا الصوت ، وهذه الأصوات تخبر خبراً ، أو تعرض بأمر ، أو تأمر أو تنهى ، وقليل من الناس لم يسمعوا قضية إبراهيم بن أدهم إذ نودي وهو في الصيد أن يا إبراهيم ، ألهذا خلقت ولهذا تعمل ؟ ثلاث مرات ، بين المرة والمرة يبحث عن مصدر الصوت وهو في بیداء منبسطة منكشفة مدّ البصر ، ولما لم يجد أحداً ، ظاهراً ، ارعوى وفكر وتبصّر ، فنكس آلة صيده ، وصمم على فكرة حزم أمره عليها ، ومشى ناشطاً حتى إذا شاهد راعياً ، حاوره بكلام كان بنتيجته أن أقنعه بأن يبادل ثيابه بثيابه ، وثياب إبراهيم وهو الثري من الجلد المطعم الثمين وكذلك آلة صيده المتميزة ، فوهب الراعي كل ذلك وكل ما معه ، وأخذ منه مسوح صوف ، خشنة كان يلبسها ، وبها عرف فيما بعد ، إبراهيم بن آدم ، يتناقل أخباره الناس والكتب ، زاهداً متعبداً ، من أولياء الله العارفين المعروفين . أوليس هذا وحياً من الوحي ، وماذا نقول فيه إن لم يكن كذلك ، فإن كان هاتفاً ،

فهو من الوحي ، وإن كان صوتاً دون أن يرى مصدره فهو حسب إشارات القرآن وتصريحاته كذلك من الوحي ، وحيث أن ذلك كان بعد وفاة محمد (ص) ، فبديهي القول . اعتماداً على هذه الوقائع وغيرها كثير . أن الوحي ، لم ينقطع ولن ينقطع وبجميع أشكاله وأنواعه ، بعد محمد (ص) خاتماً للنبيين بشريعته الملزمة إلى قيام الساعة ، وبالقرآن العظيم الذي أنزله الله إليه وإلى الناس إماماً ورحمة ، ومرجعاً وحجة للأئمة والأولياء والحجج من بني البشر ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وإذا كان الله أوحى إلى الأسباط العشرة من ولد يعقوب عليه وعليهم السلام من بعد ما أكرموا ، إذ شرعوا في القتل ، وإن لم يجهزوا على غريمهم ، أخيهم ، حيث أنجاه الله سبحانه ، ومن بعدما كذبوا على الله وعلى رسوله يعقوب وعلى الناس أجمعين . فأما رجل بعدهم وحتى بعد محمد (ص) إلى قيام الساعة ، هو أولى منهم بالوحي من

الله عزّ وجل إذا لم يجرم ولم يكذب بمقدار جرمهم وأكاذيبهم أو كان أقل منهم جرماً وأخف ذنباً ، إذا تاب لله توبة نصوحاً .

وقوله سبحانه : { وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } . [ 60 : العنكبوت ] ، هل هذه الآية محددة بزمان أو بمكان ، أو أنها تنتهي بمدلولاتها عند كون محمد (ص) هو خاتم النبيين . إذ أن من المعلوم أن كل عطاء أو هبة أو رحمة أو عناية من الله سبحانه هي من الرزق ، ومن هذه الرحمات والعنايات ، الوحي بجميع أسمائه وأنواعه ، وهذه الآية ، بالضرورة ، تنتهي بجميع أنواع الرزق ، ولجميع ما يدب على الأرض ، وكذلك ما يطير في السماء ، والإنسان خاصة ، الذي كرمه الله سبحانه ، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه وفضّله سبحانه على كثير مما خلق تفضيلاً ، فمن باب أولى ، أن يعني سبحانه بالوحي إليه ، في أرض ، هو تبارك وتعالى أوحى فيها إلى النحل ، حسب نص القرآن الكريم ، وإلى النمل ، وإلى الهدهد ، يعني إلى أجناس هذه المسميات وكذلك إلى جميع البهائم حين غرز فيها الغرائز ، وهي كما ذكرنا من أنواع وحيه سبحانه وتعالى عما يشركون . وكذلك ، إذا كان سبحانه وتعالى ، أوحى فيما مضى إلى الخواريين ، أصدقاء المسيح عليه السلام وعليهم، وفيهم صياد السمك، وراعي الضأن والمزارع والعشار، وهؤلاء كانوا يعتبرون وما زالوا في بعض المجتمعات من الناس الدون ، أو من عامة الناس، وليس من خاصتهم حتى أن العشارين كانوا لظلمهم للرعية أعداء الله وأعداء الناس، فحيث أنهم تابوا واتبعوا ما أنزل الله واتبعوا رسوله المسيح عليه السلام ، فقد أوحى الله إليهم إيماناً فوق إيمان ، مما رفعهم إلى درجة المقربين عند الله والدعاة الملهمين الذين صفوا وتصافوا وجاهدوا في سبيل الله وكانوا قدوة في حياتهم لأقوامهم ، كما أرادهم الله سبحانه للذين آمنوا ضارباً المثل بإخلاصهم وفطنتهم وما ترتب على ذلك من نصرهم على أقوامهم المكذبين المفسدين الكافرين . أما بخصوص الوحي إليهم فكان نتيجة لعزمهم على اتباع المسيح وهو بين اليهود المكذبين به ، آنذاك ، مهدداً ، بالعدوان عليه في كل لحظة ، وفي كل خطوة يخطوها ، وبالقتل هو ومن معه ، ومع ذلك عزموا صادقين على اتباعه ، وباشروا هذا الإتياع ، والله أعلم بما يسرون وما يعلنون . قال سبحانه :

{ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ } . [ 111 : المائدة ] .

وقال تبارك وتعالى، عن عيسى عليه السلام ، عندما استشعر العداوة واللؤم والكفر من الأكثرية الساحقة من قومه ، وأراد حَمَلَةً حَفَظَةً لدين الله والدعوة إلى الله من بعده ، وهو علم من الله سبحانه مدى عداوتهم وقسوتهم عليه :

{ فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } . [ (53:52): آل عمران ] .

أما بخصوص أمره سبحانه باتخاذهم نماذج صدق وجهاد وثبات على التوحيد بدون وسيط بينهم وبين الله تبارك وتعالى ، وحتى لو كان هذا الوسيط رسول الله ، عيسى ابن مريم عليه السلام ، وذلك قولهم في قول الله فيهم سبحانه وتعالى عما يشرك الناس العمي الموتى القلوب الغافلون :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } . [ 14 : الصف ] .

ثم اعتماداً على ما ذكرنا ، وعلى كثير مما لم نذكر من الأمثلة والوقائع ، ليس كل من يوحي الله سبحانه إليه يكرس رسولاً أو نبياً ، فهو تعالى أوحى إلى أم موسى . قال تبارك وتعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. الآية } . [ 7 : القصص ] . وقوله تعالى ، عنها : { ... إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } . [ 10 : القصص ] .

وهذا الربط كذلك هو نوع من الوحي لا شك فيه ، وبرجعنا إلى أنواع الوحي التي ذكرناها ، نرى أن هذا من باب إلقاء المعاني سراً في قلب أو قلوب الموحى إليهم . وما أكثر ما يربط سبحانه وتعالى على قلوب المؤمنين والمؤمنات في مشاكلهم ومصائبهم وبلاءاتهم ، ومحنتهم وامتحاناتهم ، تفضلاً منه سبحانه ، وعناية ورعاية

ورحمة . فهذان الوحيان إلى أم موسى عليه السلام ، لم يجعلها نبيّة مكلفة بالدعوة إلى الله أو رسوله مكلفة بأعباء الرسالة وتبليغها . وكذلك القول في مريم عليها السلام ، قال سبحانه :

{ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ } . [ (42) 43 . ] : آل عمران .

إلى أن قال تبارك وتعالى :

{ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } . [ (45) : آل عمران . ]

وقال عز وجل :

{ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا } . [ (16) 21 . ] : مريم .

وهذا من أبلغ الوحي وأظهره إلى مريم عليها السلام ، إذ فيه إضافة إلى رؤية الملاك وقد تمثل بشراً ، وربما بقية الملائكة الذين معه ، حيث ذكرهم سبحانه في الآيات السابقة ، حوار ، مع روح الله ، قائد من قادة الملائكة ، حوار يبدأ بشيء من الخوف ، إذ تعوذت بالرحمن منه ، ثم بالنقاش التاريخي المنطقي ، ثم بالبشارة ، ثم ينتهي بثبوت الحقيقة الأزلية الأبدية التي هي أن الحكم هو حكم الله والمشيتة هي مشيئته ، وأنه هو وحده مالك الملك وخالق الخلق وهو على كل شيء قدير . المهم أن هذا الوحي مع نوعيته المميزة ، لم يجعل من مريم ، نبيّة مكلفة بمواجهة الناس ودعوتهم

وتبليغهم ولا رسولة مكلفة بأداء رسالة سواء كانت رسالة تشريع أو فقط دعوة إلى توحيد الله كما هو في العادة أساس الرسالات .

وإذا بقي شيء من الشك في كون مريم وأم موسى نبيتين فما هو القول بخصوص المرأة التي أشارت على وفد مكة بشأن ذبح عبد الله والد رسول الله محمد (ص) ، حيث أشارت عليهم بتوسل القداح لإختيار مائة ناقة بالنتيجة فداءً لعبد الله من الذبح وتقديمه قرباناً لله عزّ وجلّ عند بيته العتيق . من أين لها ذلك في وقت عجز أساطين مكة الحريصين عظيم الحرص على عدم ذبح هذا الشاب النبيل الجميل الحبيب على قلوبهم جميعاً عجزوا عن إيجاد مخرج من نذر عبد المطلب القاضي بذبح واحد من أولاده قرباناً لله تعالى إذا رزقه سبحانه ذكوراً عشرة . ورزقه الله ، وجمع أولاده العشرة وبالقرعة كان الذبيح هو عبد الله ، وكانت المشيرة بالفداء ، إلهاماً من الله تعالى ، امرأة صالحة فاضلة ، كان الناس يأتون إليها يستشيرونها في الخروج من مآزقهم الصعبة ، وهكذا اقتضت حكمة الله إظهار عبد الله الذي سيجمعه والد رسول الله محمد (ص) مَفْدِيّاً بمائة ناقة ، في حين كانت دية الرجل عندهم عشرة من الإبل . وكان هذا الفداء هو الأكبر والأغرب في تاريخ الجزيرة العربية .

وبعد أن أعطينا مثلاً عن الإلهام الذي من أنواع الوحي المذكورة نعطي مثلاً عن التفهيم ، وقد استفدنا هذه الكلمة من قول الله تبارك وتعالى :

{ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } [78 . 79: الأنبياء]

فَهَّمَهَا سبحانه سليمان دون أبيه داوود النبي ، لمصلحة لهما ، فيها إظهار لسليمان تمهيداً لنبوته وقضائه بين الناس وملكه ، فهذا وحي ، أما كيفيته ، فلا تسل ، لأنه معجز كبقية أنواعه ، ولذلك ممنوع عنه السؤال ، لأن الكلام فيه ، كما الكلام في ذات الله ، يوقع في المهالك ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

ويلاحظ في آية تفهيم سليمان ، قوله تعالى : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ } . فهذا التسخير للجبال والطير وهذا التسبيح ماذا

يقال فيهما، غير أنهما وحي من الوحي ، وكذلك كل تسخير ، سواء كان لما يعقل في الظاهر أو لا يعقل، أو كان للجسمادات أو نبات الأرض أو دواب البر والبحر ، بما فيه حوت يونس عليه السلام ، أو ما طار بجناحين . أو ربما بأكثر .

وتذكرنا هذه الـ ( ربما ) بنوع من الطير له أكثر من جناحين ، هم الملائكة الرسل

، وذلك قوله تبارك وتعالى :

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . [ 1 : فاطر ] .

فقوله سبحانه مثنى وثلاث ورباع ... يعني ملائكة ذوات جناحين أو ثلاثة أجنحة أو أربعة ، أما قوله تعالى { يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ } ففيها إطلاق ، وهذا الإطلاق يعني الزيادة فيما خلق من جميع أنواع خلقه، ويعني أنه يزيد في هذا الكون وعلى هذا الكون خلقاً جديداً حين يشاء وحيث يشاء .

أما مادة الأجنحة فهي نورانية من سنخ الملائكة ، وعلى ذلك فهي لا ترى ولا تمس مساً محسوساً ، إلا إذا تمثلت الملائكة بنوع من الطير أو بإنسان أو غير ذلك ، فإنها تأخذ صورة ما تتمثله ولكنها تبقى على جوهرها وحقيقتها الملكية (نسبة إلى ملك بفتح اللام وهو واحد ملائكة ) .

وهل يتوقف إرسال الملائكة إلى الأرض وإلى عباد الله ، أم هو باقٍ على مدار الساعة وإلى قيام الساعة ؟ في الآية الكريمة إطلاق كذلك بهذا الخصوص ، ثم إن قوله سبحانه { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا } ، يعني مبلغين رسالات ، وهذا يعني أنه سبحانه يوحي بهم إلى من يشاء من عباده وساعة يشاء، وعلى مدار الساعة وإلى قيام الساعة . ولعل هذا من أسباب قوله عن رسوله محمد (ص): { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ... } . [ 40 : الأحزاب ] . ولم يقل خاتم المرسلين، وواضح أنه سبحانه لو قال عنه (ص) أنه كذلك خاتم المرسلين لما أمكن قوله بعدها أو قبلها : { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ... } ولما أمكن قوله تعالى : { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } . ولما استقام معنى

الآية الكريمة : { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } . [ 165 : النساء ] . إلا إذا اعتبرنا الملائكة الرسل ، في جملة الحجج الباقية على الناس ، فيستقيم معنى الآية .

ثم قوله تبارك وتعالى :

{ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ } [ 15 : غافر ] .  
وهذه الآية الكريمة، ليس فيها قيد ولا تخصيص ولا تبيين، لا في الزمان ولا في المكان ولا في الأشخاص. فشأنها إذن الإطلاق والتعميم والإجمال، كما قبل محمد (ص) كذلك بعد محمد (ص)، وحتى كذلك في عصر محمد (ص) الميمون المبارك، وحياته الشريفة .  
وذلك في قول الله تبارك وتعالى مخاطباً رسوله محمداً (ص) وعلى جميع المؤمنين :

{ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } . [ 12 : الأنفال ] .

فما دام سبحانه يرسل رسلاً من الملائكة، غير متقيد بقرن من القرون ولا جيل من الأجيال، ولا بزمان ولا مكان، فهو كذلك، يوحى سبحانه إلى الملائكة هؤلاء، { أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ... الآية }، كما في عصر محمد (ص) ووجوده الشريف، كذلك في عصر طالوت حيث حملت الملائكة التابوت أمام بني إسرائيل تشجيعاً لهم على قتال جالوت وقومه، وذلك قبل أن ينبأ داوود عليه السلام، وطالوت، لم يكن رسولاً ولا نبياً، وذلك بدليل اعتراضهم عليه حيث جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :

{ أَمْ تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنْي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَقَالَ لَهُمْ

نَبِيَّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ { [246 . 248: البقرة].

وإنما ذكرت الآية الأولى هنا لإثبات أن هذه الواقعة وقعت بعد موسى عليه السلام في زمن نبي لم يذكر القرآن اسمه وإنما سمي الملك الذي اختاره لهم الله سبحانه وهو طالوت ، وفي الآية الثانية اعتراضهم على وضعه الإجتماعي ، فلا نسب يميزه ولا مال . وفيها كذلك قضية الإصطفاء ، فقد يصطفي سبحانه من الناس ملوكاً وحكاماً وقادة إلى غير ذلك من المصطفين الأبرار من بين عامة المؤمنين . وفي الآية الثالثة قضية الملائكة وحملهم التابوت فيه سكينه من رب العالمين، ولا يكون حمل الملائكة للتابوت إلاً بوحي من الله سبحانه، وكذلك الوحي هذا، ظاهرة آثاره لعامة الناس آنذاك، وإن كانت هذه الآثار، آثار الوحي إلى الملائكة، هي أبلغ ظهوراً وأكثر عدداً وأوسع مساحة، في حين، تلك التي تتحدث عنها بعض الآيات في سورة الأنفال، وعن إرسال الملائكة فيها نجدة للمؤمنين وهم آنذاك بقيادة الرسول الأعظم محمد (ص) ، قوله سبحانه : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ... الآية } .

وما ينبغي قوله من خلال هذا العرض، وربطاً بين آية { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ... } وبين آية الأنفال : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ... } . وآية حمل الملائكة للتابوت أمام الملك طالوت، هو أنه ما دام حصل ذلك قبل نزول القرآن ، وحصل كذلك أيام نزول القرآن ، فلا حجة تمنع أن يحصل ذلك بعد نزول القرآن في ظروف مشابهة ، لا سيما في حروب المؤمنين الخالص، في مواجهة أهل الكفر وأهل الشرك في أي زمان وأي مكان ، وحتى قيام الساعة، والعكس هو الصحيح، فإن الحجة قائمة وواضحة وقوية. في إطلاقه سبحانه قوله : { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ... } على أن الله سبحانه لم ولن يقطع وحيه الذي فيه لطفه بعباده ورحمته لهم وإدارته ملكه وفي جملته هذه الأرض الخضراء تحت هذه القبة الزرقاء، وما على الأرض، وما في هذه السماء، من أنواع

خلقه،الذين هم في قبضته،يصرف أمورهم من سامق عزته وكبريائه ، بعدله ولطفه ،  
وحكمته ورحمته .

أما عن التعليم بدون معلم غير الله جلّ جلاله ، فقوله تبارك وتعالى :  
{..وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ  
يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } .  
( 268 . 269 ) : البقرة ] .

فما هي الحكمة ، وهل هي كذلك وحي يوحى ؟  
ما دام القرآن الكريم سيد الكلام الذي لا يجارى،وهو كنز المعارف  
الحقيقية،واصفى الموارد.فترسم معاني الكلام وتتبعه إنما يجب أن يتم بالرجوع إليه ،  
وتدبره،تشرفاً بطاعة الله وتوجيهه،وتقريعه سبحانه لمن لا يتدبر قوله الكريم وقرآنه المجيد  
:

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } .  
{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ } .  
وبحثاً عن معنى الحكمة في كتاب الله العظيم،نجد ثلاث آيات تتعرض  
لمعانيها،علماً أنها وردت في آيات كثيرة معطوفة تارة على الكتاب وتارة إلى النبوة  
والملك وآيات الله البينات :

الآية الأولى ، قوله تبارك وتعالى :  
{ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ  
فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا } . [ 39 : الإسراء ] .

هذه الآية هي التاسعة والثلاثون من سورة الإسراء . وبعض المجتهدين في  
تفسيرها يرون أن المقصود بقوله تعالى : { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } جميع  
الآيات الثماني والثلاثين الواقعة قبلها .ونقول إن في هذا توسعة تتجاوز حدود  
الكلمات المقصود تحديدها في الآيات ، مثل كلمة الحكمة ، فهي حيثما وجدناها  
معطوفة على غيرها في الآيات ، فهذا يعني أنها مفهوم مستقل عن المعطوف عليه ،  
فقوله تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا { .فواضح أن الحكمة هي غير الكتاب، وهذه المغايرة مقصودة منه تبارك وتعالى ، ولو كان الكتاب هو الحكمة لما كان قال سبحانه عن داوود عليه السلام : { وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ } ، ومعلوم أنه سبحانه لم يؤته كتاباً كما أتى موسى وعيسى ومحمداً عليهم السلام . لذلك نقول إن آيات الإسراء من بدايتها حتى قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. } . هي من الكتاب الذي هو أعم من القرآن، (حيث زعم كذلك بعض المفسرين أن الآيات التي هي من الحكمة ، تبدأ من قوله تعالى أو بعد قوله مباشرة : { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } . ومن يتأمل في الآيات التي بعد { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ } يجد أن الخطاب فيها بصيغة الجمع . حتى يصل إلى قوله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ... } فيتحول الكلام إلى صيغة المخاطب، فالآيتان فقط: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ... } وبعدها { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا... } هما من الحكمة. وإلاً على أساس زعم من زعم أن الآيات من بداية السورة المباركة هي من الحكمة ، فذلك، إذن يجعل القرآن كله هو الحكمة ، أو هو من الحكمة ، ولا يستقيم ذلك مع قول الله :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ... } . [ 12 : لقمان ] .

فيستوي لقمان ومحمد (ص) ولقمان كما هو معلوم ليس بنبي ولا رسول ومحمد (ص) خاتم الأنبياء، نزل عليه { ..الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } و { مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } وأرسله سبحانه رحمة للعالمين. كما في نصوص القرآن الكريم .

وأكثر ما يعنينا ، بخصوص بحثنا هذا ، هو أن الحكمة كذلك من الوحي ، حسب تقرير القرآن في مخاطبة الله سبحانه لرسول الله محمد (ص) : { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية أن هذا الوحي ، يوحى الله به كما للأنبياء والمرسلين ، كذلك إلى عباد الله الصالحين ، كما أوحى إلى لقمان عليه السلام ، قوله تبارك وتعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ... } وهذه هي الآية الثانية من الثلاث التي قلنا إنها تنوه بمعاني الحكمة . فإيحاء الحكمة لرسول الله محمد (ص) وإبتاؤها لولي الله لقمان بمعنى واحد ، وهو نوع من أنواع الإيحاء .

يبقى أن نقول، وهو الأهم، إن الله سبحانه إذا كان آتى أو أوحى إلى لقمان، وهو عبد صالح من عباده أو ولي من أوليائه أفلا يعني هذا أنه يوحى لأمثاله الحكمة حين يشاء سبحانه ، قبل محمد وبعده (ص) ولو كان خاتم النبيين ، حسب المفهوم السائد ، فهو (ص) ليس خاتم أولياء الله وعباده الصالحين ، الذين قد يوحى الله إليهم الحكمة وغير الحكمة في كل حين .

أما الآية الثالثة فهي قوله عزّ شأنه : { حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّدْرُ } . [ 5 : القمر ] . ومعنى بالغة هنا، أي واصلة إلى هدفها، نافذة لا محالة، وما هي هذه الحكمة النافذة والواصللة إلى هدفها، لا يمكن أن يحول بينها وبين ذلك حائل ، ولا يعجزها معجز، ولا يمنعها مانع ؟ هي قوله سبحانه { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } فانشقاق القمر، وهو شرط من شروط الساعة وقع وحصل، ثم اقتراب الساعة وقيامها بعد تكامل أشراتها بغتة: { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ } . [ 18 : محمد ] . تلك هي الحكمة المقصودة ، هنا ، أو الأمر الذي أحكمه الله سبحانه بأعباده في أعماق الغيب ومجالات الشهادة ، وهي حكمة مبنية من الجملة ، وخاصة الحكمة العامة المطلقة ، التي منها يؤتي عباده ما يشاء، كما يؤتيهم من علمه ما يشاء : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... } .

أما الآيات التي بين قوله تعالى : { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ... } وقوله : { حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ... } ففيها إنذارات وتقرير للذين لا يصدقون بشرط الإنشقاق القمري الذي حصل ، رغم رؤيته<sup>(1)</sup> من قبل الألو ف من الناس، ولو كان أكثرهم فسره على غير حقيقته، وهذه الآيات هي قوله سبحانه: { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ } . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ { وفيها أنهم رغم تكذيبهم بهذا الشرط من أشرط الساعة ، وتكذيبهم حتى بالساعة نفسها، فإن ذلك لن يغير شيئاً من حكمة الله هذه الخاصة، أو حكمته العامة، ف { وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ } . [ 7 : الحج ] . وهذا في معنى قوله سبحانه ، في تلك من آيات القمر : { وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ } . أما التعليم بدون معلم فقد يكون إجماعاً إلقاءً إلى المتعلم وقد يكون عن طريق الملائكة، رسلاً

ومكلفين، كراماً بررة {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}. [6] :  
التحريم]. ومن أمثلته القرآنية : قوله تعالى :

(1) انظر كتاب ( العقل الإسلامي . باب أشراف الساعة ) .

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ ... إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا . فَاتَّبَعِ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ... ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ... ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ... قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ... أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا . فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا . قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ... } . [83 . 98 : الكهف] .

قوله : { هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي } تلخيص لجملة تعاليم بين عسكرية وهندسية ، وتربوية وجهادية وغير ذلك من الأعمال والمعاني التي تتحرك ضمن نشاطين إلى هدف واحد. أما النشاط الأول فهو الدعوة إلى الله وأما الثاني فالجهاد في سبيل الله، وأما الهدف فهو التوحيد . وكل ذلك ضمن تعاليم كانت من بداية نشاطاته هذه توأكبه تعليماً من الله سبحانه وعناية ورعاية ورقابة وحسابا . وما يجب قوله هنا ، أن الرجل هذا لم يذكر الله سبحانه له رسالة ، ليكون رسولاً ولم يخبر بنبوته إذا كان نبياً ، وحيث أنه لم يذكر لا هذا ولا ذاك ، فمن حقنا أن نعتبره في عداد القادة العسكريين العالمين ، الذين يوحي الله إليهم ، بأن يعلمهم بدون معلم ويهديهم ويوجههم ويؤيدهم بقوة من لدنه وهو وحده القوي العزيز . وما دام أن هذا الأمر حصل في مرحلة تاريخية ضاربة في أعماق الماضي ، بدلالة خلاف المفسرين حول تاريخ الرجل وهويته ، وحتى عين كل جهة أمها وحتى مكان ذلك السدِّ العلمي العملي وكذلك الأقوام وأسماؤهم ومستوياتهم الحضارية . فبيدهي جداً أن يتكرر مثل هذا التعليم وهذا التأيد من الله لرجال يختارهم سبحانه موحدين مخلصين لوحدانيتها عزَّ شأنه ولطاعته ، وذلك في طول التاريخ وعرضه تحت هذه القبة السماوية الرائعة بجمالها وفخامتها ، الداعية لشكر الله

ووحدايته ، المسبحة بحمده ، إلى أن يوحى الله إلى الأرض بأن تنزل زلزالها الكبير والأخير .

ومن الأمثلة القرآنية كذلك عن تعليم الله عزّ وجل لمن يشاء من عباده دون معلم غيره ، قصة الرجل الصالح صاحب موسى عليهما السلام. قال سبحانه: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ... . فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا } . [ 68 . 60 : الكهف ] .

هذا رجل ، لم يسمّه الله سبحانه ، رسولاً ولا نبياً ، وإنما قال : { عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا } وكونه عبداً من عباد الله ، فهذا أمر يشترك فيه جميع الناس بدون استثناء،العربي والأعجمي،والأسود والأبيض،والجاهل والمتعلم. إلا أن ميزة هذا الرجل ، التي ميزته في بعض الوجوه ، حتى على نبي الله ورسوله موسى عليه السلام،وهو من الأنبياء أولي العزم ، وأكثر من ذكر اسمه وقصصه في القرآن الكريم ، هذه الميزة هي قول الله تعالى : { آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا } أما كيف علمه الله سبحانه هذا العلم ، الذي بموجبه قال ذاك الرجل العالم قولته الشهيرة لربي الله ورسوله موسى عليه السلام {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا...} ، فلقد قلنا إن السؤال عن الكيفية ممنوع، وهو ممنوع لأنه محال ، ولأن الخابط فيه هالك . وكل ما يمكن أن نقوله في هذا العلم ، هو أن نسميه ، كما هو متعارف ، العلم اللدني ، وذلك اعتماداً على قوله سبحانه : { وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا } ، واعتماداً على نفس هذه الآية كذلك أسمينا هذا الإنسان "الرجل العالم" والمفارقة هي هنا : أن العادة المألوفة عند الناس ، هي أن الله سبحانه يبعث الأنبياء ويرسل الرسل معلمين ومرشدين للناس كافة . فلماذا انقلبت هذ القضية هنا ليصبح إنسان عادي ، هو عبد من عباد الله ، معلماً ، لكبير في الأنبياء والرسل ، كان من جملة ميزاته الكبيرة كذلك ، أن كلمه الله تكليماً . أما الجواب ففي قوله تبارك وتعالى : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } . [ 68 : القصص . ]

وقوله سبحانه : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } . [ 6 : فصلت ] . وفي قوله جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَصْرِيبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } . [ 41 . 43 : العنكبوت ] .

وخلاصة القول ، مما رأينا في بحثنا هذا ، أن وحي الله سبحانه وتعالى ، لم ينقطع ولن ينقطع عن خلقه على هذا الكوكب الأرضي، وتحت هذه القبة السماوية، والناس، عباد الله، على درجاتهم ، في جملة هذا الخلق ، شاؤوا أم أبوا . يتلقى الكثير منهم وحي الله ، نساءً ورجالاً ، وربما أطفالاً ، وبمختلف أنواع وحيه سبحانه ، يتلقونه ، خيراً من عند الله وبركات ورحمة وفضلاً . وأكثرهم لا يعلم أن هذا وحياً من الله سبحانه . وأكثر من ذلك فهم لا يتجرأون على تسميته وحياً بسبب البُعد عن التوحيد ومعانيه أولاً ، ثم البُعد عن كتاب الله ، القرآن الكريم ، وتدبره ثانياً ، ثم أخيراً وليس آخراً ، بسبب التعليم القصير النظر، والمتوارث غالباً عن العوام أو عمن هم بمنزلة العوام ، من الذين نظروا ، وجعلوا كثيراً من الناس، ينظرون إلى الأنبياء والرسل والأئمة والأولياء وكأهم آلهة ، يقدمون ذكرهم غالباً على ذكر الله، وأحياناً، يدعونهم ويسألونهم حاجاتهم، مثل الرزق، والعافية والنصر على الأعداء، والفرج من الضيق، وغير ذلك، مما يحرم أن يدعى به غير الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

ثم إن الله عزّ وجل ، ما أوكل تدبير أمور الناس ومعاشهم ، من تحصيل علم، أو رزق أو قوة في بدن ، أو شجاعة في قلب، أو شفاء من مرض ، أو ضرب في أرض إلخ... ما أوكل ذلك إلى الأنبياء والرسل أو الأئمة أو أولياء الله الصالحين في حياتهم ، فما كان ولا واحد مسؤولاً عن إدخال العلم في رؤوس أو قلوب جميع معاصريه ممن آمن له أو لم يؤمن له ، ولا عن إعالة العائل ، ولا رزق الفقير ، ولا نفخ الشجاعة في الجبان

ولا منح القوة للضعيف ولا شفاء جميع المرضى، ولا تيسير أمر المسافر ، ولا رده من سفره سالماً آمناً . ولا إدخال السكينة في قلوب المؤمنين ولا قذف الرعب في قلوب الكافرين ، ولا النصر على الأعداء ، ولا استجابة الدعاء . ولو كان الأمر موكولاً إليهم ، لما كان موسى عليه السلام ، هرب من ملاحقة فرعون " خائفاً يترقب " إلى مدين . ولما كان عيسى عليه السلام عانى من اليهود الأمرين : التكذيب والأذى الشديد ، إلى أن انتهى به الأمر محكوماً عليه بالموت مصلوباً على خشبة، لولا عناية الله به وحفظه منهم ورفعهم إليه سبحانه: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ } . [ 157 : النساء ] . ولما كان محمد (ص) هاجر من مكة متخفياً ، بعد أن كان هجر فريقياً ممن آمنوا معه في بداية الدعوة إلى الحبشة ولما كان قتل عمه الحمزة أسد الله الذي كان منه بالمنزلة المعلومة ، في أحد ، ومثل بوحشية الكفر الأسود ، ولا كان في نفس الوقعة هذه الشهيرة ، هزم وجيشه وقتل منهم الأبطال الصناديد بعد أن كانت المعركة لمصلحتهم في بدايتها، ولما كان ناله من أهل الشرك الأذى المباشر آنذاك إذ أصيب بجرح كسر ربايعته الشريفة . ولما كان علي بن أبي طالب ، وهو في سدة الخلافة ، أميراً للمؤمنين ، عانى ما عانى من والٍ من الولاة ، هو معاوية بن أبي سفيان ، حتى خاض معارك دامية ، معه ، تداخلت فيها الأحداث والبلاءات والتقارير ، وانقسام الأمة الذي ما زالت بصماته في أعماق الناس مؤلمة موجعة ، وبالنتيجة استشهد الخليفة الحق ، وحكم الوالي ، وجعل حكومة الإسلام وراثية من بعده ، خارجاً على القرآن وعلى سنة رسول الله (ص) ، كذلك لو كان الأمر موكولاً إلى الأنبياء والرسل والأئمة والأولياء الصالحين لما كان الحسين عليه السلام وهو آنذاك وحده ، في الرجال ، إرث الدوحة المحمدية المباركة ، لما كان قتل وذبح هو وجميع من كان معه من الرجال من أهل بيته وأصحابه ، في وقعة كربلاء ، بأمر من يزيد بن معاوية، الذي كفرته الأمة قاطبة ، ومات أو قتل شاباً في ظروف لم يعلم أحد إلى الآن حقيقتها وأسرارها .

ولو أردنا أن نعدد أموراً ، لم يكن الأنبياء ولا الأئمة ولا الأولياء قادرين على

تحويلها لمصالح أقوامهم أو حتى ما يرجونه ، ظاهراً ، لأنفسهم ، لذكرنا منها المنات بل الألوف . وكان القادر وما زال وسيبقى قادراً على تحويلها ، بل وعلى خلقها والإحاطة بها واستبطان أسرارها والحكمة منها ، هو الله وحده ، بدون مساعد ولا

ظهير ، ولا شريك ، ولا مفوض عنه سبحانه ، في جميع ما ذكرنا وما لم نذكره من مسائل المعاش والمعاد . سواء كانت الأمور متعلقة بالإنسان الفرد ، أم المجتمع الصغير ، أو بالشعوب ومصائر الأمم . وهو سبحانه وضع لكل ذلك قوانين ونواميس ، للأفراد والجماعات ، من عمل بها نجا ومن تخلى عنها هلك :

{ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } وفوق هذه القوانين والنواميس نشر ملائكته ، على اختلاف درجاتهم وقدراتهم ، في هذا الكون ، يصدعون بأمره عزت عظمته ، ومن جملة هذا الكون ، هذه الأرض ، التي عليها نحن البشر وغيرنا مما خلق سبحانه تحت هذه السماء . وفوق جميع هذا الخلق في السماوات والأرض ، الله ، الخالق ، الرازق ، الناصر ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . سبحانه الله عما يشركون . { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } . [ 5 : السجدة ] . { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } . [ 255 : البقرة ] .

ويكفي لمن يتأمل ويتدبر آية الكرسي هذه ، ليعلم من هو الحاكم الفعلي لهذا الكون وما فيه ومن فيه ، ناهيك بكتاب الله كله ، الذي فيه كلامه سبحانه ، وكتاب الله الذي فيه كافة آياته وصنوف خلقه ، عنيت هذا الكون العظيم .

أما أنه سبحانه لماذا لا يقتل الظالم ساعة ظلمه ، ولماذا لا يرزق الفقير أيام فقره ، ولماذا لا يشفي المريض حين مرضه ، ولماذا لا ينصر أهل الحق على الباطل كل يوم ومنذ أن خلق هذه الأرض وخلق عليها هذا الخلق ؟ وأكثر من هذا التساؤل ، لماذا الظلم في الأرض ولماذا الفقر والمرض والموت والحزن إلى آخر المسائل التي نغصت وما زالت تنغص حياة الإنسان على هذه الكرة الأرضية ؟

فأولاً ، لأن هذه الأرض أرادها الله سبحانه ، داراً للتنافس على طاعته ، يصار معها إلى التكامل الإنساني ، فالكمال الإنساني ، ثم ثواب ذلك في دار غيرها أرحب وأجمل بدرجات عالية، وأحلى ما فيها إنما ليس فيها منغصات ، وإنما فيها

سعادات، منها المنقطع، ليتجدد، ومنها ما لا ينقطع ، وتلك التي هي للذين يختارون الله ، يعظمونه لأنه أهلٌ للعظمة ، ويعبدونه لأنه أهلٌ للعبادة ، ويجبونه الحب كله ، لأنه أهلٌ للحب كله .

وثانياً ، بالإمكان، تطيب الأرض بأفضل مما هي عليه، والترقي في الحضارات بما يضيق كثيراً من مساحات الظلم والفقر والمرض ، وجبروت الجبارين ، وطغيان الطغاة ، ولصوصية اللصوص الإقليميين والدوليين والعالميين ، وأن يُنصر الحق على الباطل وهذا كله ، حقيقة ، هو بأيدي الناس وباختيارهم ، فإذا استصعب أو تعقد على صعيد الدول والطغيان العالمي ، فهو سهل وميسور على الأفراد { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } . [ 14 : الفجر ] . { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } . [ 8 : الزلزلة ] . وهو سبحانه ذكر الخطوط العريضة ، لتربية الإنسان بالعقوبة الرادعة، وللغاية من امتحانه على الأرض وما يجب عليه من الاعتقاد والعمل ، ثم ما يترتب على ذلك كله ، إن سلباً فسلباً ، وإن إيجاباً فإيجاباً ، وذلك في قوله تبارك وتعالى :

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } . [ 126 . 123 : طه ] .

ولقد ذكرنا في باب ( مفهوم الولاية ) من هذا الكتاب ، الوجوب الشرعي لإقامة دولة تحكم بما أنزل الله ، ففي هذه الدولة ، كما رأينا في دولة محمد (ص) التي أسسها وحكمت ردها لا يستهان به من الزمن، استطاع فيها الناس أن ينتقلوا بسرعة غير عادية، من جاهليات جهلاء، يسحق فيها الضعفاء والفقراء لحساب الظلمة والجباية، وأن بينوا على أنقاض ذلك الليل الموحش الدامس، فجر حضارة، لا نقول بلغت ضحاها، لأنها كذلك سرعان ما انحرفت عن التعاليم الإلهية ، وانجذبت إلى بهارج الدنيا وضاعت في متاهات الملك العقيم. إنما بقيت دولة الشرع وستبقى إلى آخر الدهر

، هي النموذج الصالح ، الذي ما زالت تبني عليه بين الحين والحين ، من أحيان الزمان دولة هنا ودولة هناك ، تبقى في تاريخ الماضي والحاضر ، منائر، للمسحوقين بفحشاء الحضارة العريضة، وفتلتها من التعاليم الإلهية ، يحلمون بمثل دولة محمد (ص) ، التي ما حكم فيها إلا بما أنزل الله ، ويعملون على تحقيق حلمهم ، لا لأجل أن يستمتعوا هم بثمراتها ، وإنما ليحققوا ذلك للناس الذين يأتون بعدهم ، فتلك مسؤولية دينية أخلاقية ، من فعلها فأجره على الله ، ومن لم يفعلها ، فعسى ألا يكون من خرس الشياطين .

وبديهي أننا لا ننزع ، كما يتخيل البعض ، إلى استرجاع الجمل والناقة ، لنقيهما مكان الكمبيوتر والمركبات الفضائية ، وما أضيق أفق من يظنون في الإسلام ، وفي تعاليم الله هذا الظن وهذا الجمود . فدين الله أوسع وأرحب من أفكار وظنون الذين يتعاملون مع غير الله . مشكلاتهم وعقدتهم ، ستبقى عقيمة ، إذا هم تخلوا عن تعاليمه سبحانه وتعالى عما يشركون . وهي سرعان ما تحل ، ويصلح الله بالهم وأحوالهم ، إذا عملوا بطاعته ، وتوجهوا إليه بعقولهم وقلوبهم ، بدون تأليه لأحد من خلقه ، الأموات والأحياء ، وكذلك بدون تأليه لأية قوة في الأرض أو في السماء أو الاعتماد عليها من دونه عزت عظمته ، ف { أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } [ 165 : البقرة ] .

وما دام كرم الله لا يحد ، ورحمته وسعت كل شيء ، وما دام الوحي حق وحقيقة لم ينقطع ولن ينقطع عن الناس . أفليس من العجز وقصر النظر وركاكة الفكر ، وهزال الشخصية ، أن يكون القرار ، هو الركوع لطاغوت بشري أو مجموعة طاوغيت ، فقط لأن عندهم لقيمات مدنسة بالخطايا مغمسة بدماء المقهورين ودموع الأرامل والأيتام . كل ذلك وربهم الله ، رب العزة والجبروت ، والرحمة والمغفرة ، حاضر ناظر ، يجب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويكشف السوء ، قوله تبارك وتعالى : { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } . [ 62 : النمل ] . ثم أي عشوائية يتخبط فيها الأخلاقيون ، والفلاسفة وهم يدركون حقيقة هيمنته سبحانه ، وحقيقة حاكميته فضلاً عن حضوره القوي الدامغ ، ومع ذلك هم يجبنون عن التصريح بلزوم الرجوع إليه سبحانه في قضايا السياسة ، والإحتكام لشريعته في قضايا الإقتصاد (يعني: الرزق) والإجتماع وشتى أمور الحياة والحضارة . ونحن هنا ذكرنا الأخلاقيين والفلاسفة ولم نذكر عامة الناس ، لأنهم غالباً هم تبع لأهل الفكر ، أما الرعا

فينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح ، وهم أشد عمىً، وأبلغ تشريكاً وبعداً عن فهم الألوهة وفهم التوحيد، وأكثر المتدينين منهم على استعداد أن يركعوا ويصلوا ويدعوا أي نبي أو إمام أو ولي من أولياء الله، ظانين به الألوهة أو القدرة المطلقة أو القيومية على الكائنات. هذا كله وفي كتاب الله المجيد، كلام عربي واضح لا يحتاج إلى كبير جهدٍ ولا حتى إلى قليل جهد، لفهمه الظاهري المقنع المشبع فضلاً عن فهم أبعاده وأعماقه، كلام عن الله تبارك وتعالى وعزّت عظمتة، وظهر سلطانه، وبهر نوره الخفافيش، خفافيش الناس، الذين كرمهم الله، أصلاً، فرفضوا هذه الكرامة وصموا وعموا ثم صموا وعموا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين: قوله لا إله إلا هو: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ... هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ... يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } . [14: الحديد ] .

لا كيف ولا أين ولا متى . يسقط الزمان، وتسقط الأسئلة، وتفنى الوسائط والوسائل، ف{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [26 . 27 الرحمن]. ومع ذلك، مع غناه المطلق عن جميع خلقه، يجب أن نتكلم عن بعض التكاليف التي أمر سبحانه بعض ملائكته بالقيام بها تعزيراً لهذا الإنسان ، الذي أسجد له يوماً ما ملائكته البررة، وأراد له إن هو آمن وأطاع وكان أهلاً لتكريم الله له، أن يصير بمستوى الملائكة أو أعلى مقاماً. أما وجوب هذا الكلام، فلأنه استكمال لموضوع الوحي الذي نحن بصددده ، والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان ، تبارك وتعالى عما يصفون .

## الناس والملائكة :

إستناداً للقرآن الكريم كضابط لجميع المفاهيم التي تدور حول الملائكة ، وكذلك إلى الحقائق العملية المعاشة ، ممارسة وإستنتاجاً ، فقد تبين أن الكثرة من القوى الفاعلة الخفية التي خلقها الله في عالمنا ، تقوم بأدوارها الكبيرة والمهمة جداً دون أن يحس بها الناس أو أن يتنبهوا إلى مدى فاعليتها ، وقد يكون الله مستقطباً بها حركاتهم

وسكناتهم ، كما ومستقطباً بها الكون المرئي والمعروف كله . ومثال على ذلك ما اتفق الناس على تسميته بالجاذبية ، ومعروف أنها على أرضنا تجذب الأجسام الوازنة إلى مركز الأرض بنسب حسابية علمية دقيقة ، وكذلك الجاذبية الكونية التي على أساسها ترتفع السموات ، وتقوم الشمس والأقمار والكواكب بوظائفها المدهشة ساجحة في هذا الكون الذي ما زالت تكتنفه الأسرار الجميلة والمخيفة ، وذلك حسب زاوية النظر الإنساني . ومن ذلك قوة الدفع المائي من أسفل إلى أعلى ، والمبنية كذلك على أساس علمي دقيق ، تعلقاً بأوزان الأشياء المعطسة في الماء وأحجامها فضلاً عن مداخلة الحركة والفارق بينها وبين مثلها قريباً من الأرض أو بعيداً عنها ، في كلا القوتين المتعاكستين : الدفع المائي والجاذبية . ومن هذه القوانين أو القوى الفاعلة الخفية ، الطاقة المحركة لكثير من الأجهزة والتي عليها بنيت حضارة التكنولوجيا الحالية . وجميع هذه القوى ، كما هو معلوم ، غير مرئية ، وأكثر من ذلك ، فإن كثيراً منها لا نكاد نحسه ، حتى ولو حاولنا تحسسه أو استشعاره ، حتى أن بعضنا إذا لم يكن قادراً على إجراء تجارب علمية على الجاذبية الأرضية ، فإنه لا يصدق بها ، ما دام لا يحسها لا في قيامه ولا قعوده ، ولا يقظته ولا نومه . وبديهي أن هذه القوى موجودة وفاعلة ، ولو كذب بها جميع الناس كما كان الحال مثلاً في القرون الماضية .

أما ما يهمنا من هذه المقدمة الوجيزة ، هو أن الله عزّ وجل خلق في جملة هذا الخلق ، الملائكة ، وجعلهم قوى عاقلة وفاعلة ، وجعل أعدادهم ، تتجاوز كثيراً عدد البشر ، وكذلك جعلهم قوى غير مرئية ولا محسوسة ، فإن الجاذبية إذن ، والدفع المائي وغاز الأوكسجين وغيره ، والطاقة بشتى أنواعها ودرجاتها ، وغير ذلك من القوى الفاعلة غير المرئية ، هي مخلوقات لله سبحانه ، خلقها وسخرها لمشيئته صادعة بأمره ، كذلك الملائكة وهم خلق أرقى وأسمى وأفضل ، هم عباد الله مكرمون ، يأترون بأمره ، ويسبحون بحمده ، ناشطين دائبين لا يسأمون . وهم كما سنرى من بعض الآيات القرآنية ، خلق نوراني من النوع الشفاف ، الذي لا يستطيع الإنسان العادي رؤيته لا في ليل ولا نهار ، إلا إذا تمثل بإنسان أو بطير أو بغير ذلك .

والإيمان بالملائكة فريضة ، كالإيمان بالكتاب والآخرة ، والبعث والحساب إلخ ... قال الله عزّ وجل : {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [ 177 : البقرة ] .

والله عز وجل ، مدح في الملائكة سجايهم ، وإخلاصهم ، وتفانيهم في طاعته سبحانه في أكثر من آية ، فقال فيهم مثلاً { عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } وقال { بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ } وقال له الحمد : { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ... وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } . [ 13 : الرعد ] . ومعلوم أن خشية الله ومحافته من الصفات التي مدح الله بها خاصة عباده ، قال سبحانه : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } .

أما كيف يجب أن ينظر الإنسان إليهم ، وما ينبغي أن يعتقد بهم ، فهو كما أخبر سبحانه عنهم { عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } { كِرَامٍ بَرَرَةٍ } يسبحون بحمد الله لا يسأمون ، ويخافونه ، ويتفانون في طاعته . وربما نظر إليهم بعض الناس في الحاضر كما في الماضي ، نظرة تعبدية ، فوقعوا في الشرك الذي لا يغتفر . وقد حذر سبحانه من ذلك ، في جملة ما حذر منه في قوله تبارك وتعالى عما يشركون :

{ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ... وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } . [ 79 . 80 : آل عمران ] .

ربانيين ، نسبة إلى الرب الذي هو الله رب العالمين ، فمهمة الأنبياء هي دعوة الناس إلى الله ، وإلى توحيد الله ، وإلى طاعة الله ، وحده بدون شريك ، فإنه لا إله إلا الله . وقوله سبحانه : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ } أي لا يحق لبشر أن يؤتبه الله النبوة أو أن يبعث به رسولا إلى الناس ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله ، وعلى افتراض أنه فعل ، { إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمَّرْصَادٍ } ، قال تعالى : { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا

مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ { والوتين هو الشريان الرئيسي الذي يغذي الجسم بالدم النقي الخارج من القلب. كذلك الملائكة هم دعاة إلى الله ، إذا كلفهم الله بذلك ، وهم رسل إذا جعلهم الله كذلك، وإلاّ فلهم وظائف ومهمات هم مخلوقون لها، متلبسون بها، بخلاف الإنسان المخير في معظم شؤونه، والذي قد يعصي الله سبحانه، وطالما عصاه مختاراً، يعمى عن الحق ويتسافل إلى الباطل . فالملائكة ليسوا كذلك، هم لا يعصون الله عزّ وجل طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر، وقد قال فيهم سبحانه: {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} . [6:التحریم]. عليها أو على جهنم، لا يعصون الله إطلاقاً وينفذون ما يؤمرون به، وقد ذكر مدى هذه الطاعة لهذا الصنف من الملائكة، وهو سبحانه يعني جميع بقية الأصناف، ولكنه هنا خصص، بمعنى أنه إذا كان هؤلاء وهم خزنة النار، والبيهي في خلقه لهم أن يكونوا الأقوى والأعتى والأشد قسوة، وقد وصفهم هو سبحانه بالغلظة والشدّة، ومع كل هذه الصفات الجافية التي هي لهم، مع كل ذلك، هم لا يعصونه طرفة عين ولا أقل ولا أكثر . لإطلاق قوله سبحانه: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ} . وينفذون بدقة كل ما به يؤمرون . كذلك لإطلاق القول وتضمينه معنى أدق التفاصيل، فيما يأمر به ويريده سبحانه لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم . فإذا كان هذا الصنف من الملائكة ، مدى طاعتهم لله عزّ شأنه هو كذلك ، فمن الطبيعي والبيهي أن تكون بقية الأصناف ، الأقل غلظة ، أو التي لا غلظة فيها أو التي هي رسل لطفه وعنايته ورعايته ، ورحمته وحبّه ، بنفس الطاعة ، ولا نقول أطوع ، لأن آية { لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } ليس فيها ما يشعر بأن هناك أطوع وأحرص على التنفيذ ، مما تضمنت كلماتها ومعانيها الكريمة .

ويظهر بقوة ، من تدبر آيات الله والتأمل العلمي في خلقه ، أنه هو سبحانه قد أبى أن تتم الأمور إلاّ بأسبابها ، وأنه هو سبحانه خالق ومسبب هذه الأسباب . ونحن بعونه وبإذنه تعالى سنستعرض بعض وجوه حكمته سبحانه في خلقه الملائكة ، من خلال مواكبتهم وعلاقتهم بالإنسان ، في مراحل حياته ومماته وبعثه وحسابه وجنته أو ناره ، حيث هم لا يعملون ولا يتحركون ولا يؤثرون إلاّ بأمر الله وبإذنه سبحانه ، وذلك كما سنرى إن شاء الله من خلال آياته البينات .

أما معنى الأسباب على ما جاء في ( اللسان ) : فالسبب : كل شيء يُتَوَصَّلُ به إلى غيره ، وفي نسخة : كل شيء يُتَوَسَّلُ به إلى غيره ، وقد تسبب إليه ، والجمع أسباب ، وكل شيء يُتوصل به إلى الشيء ، فهو سبب . وجعلت فلاناً لي سبباً إلى فلان في حاجتي ووَدَجاً أي وُصَلَةً وذريعة .

فكما جعل الله سبحانه أسباباً لحفظ السماوات والأرض هي أصناف الجاذبية ، حيث الأرض تسبح في مدار محدد هو الثالث حول الشمس بعد الزهرة وعطارد ، وذلك بسبب التجاذب بينها وبين الشمس من جهة وبين بقية الكواكب من جهات . ونفس الشيء يقال عن بقية الكواكب وأقمارها ، وبقية مليارات الشموس في مجراتها ، والمجرات في مساراتها ، مما لو حاول الإنسان تتبع نشاط وحركات كوكب واحد ضمن مجموعته متعلقة بحركاته بمركباتها ، لأصابته الدوخة، وفرَّ ساجداً لله يسبحه بعقله وقلبه ولب عظامه . وكما حفظ سبحانه السفن التي كالجبال في البحار بقوة الدفع المائي الذي استخراج سرّه العالم أرخميدس هكذا : كل جسم يغطس في الماء يتلقى دفعاً عمودياً من أسفل إلى أعلى يساوي وزن الماء الذي حل محله هذا الجسم . إلى آخر ما خلق الله سبحانه من الأسباب

العلمية الظاهرة والخفية لحفظ هذا الكون وتماسكه جملة وتفصيلاً . كذلك هو سبحانه خلق الملائكة من جملة الأسباب والوشائج والوسائط التي يدبر ويدير بها ملكه اللانهائي ومملكته هذه الجميلة الكريمة الرائعة التي بغير حدود . وفي جملة هذا الملك وهذه المملكة ، هذا الإنسان الذي كرمه الله الحبيب وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، وذلك في قوله له الحمد : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } . [ 70 : الإسراء ] . وقوله سبحانه : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } . [ 12 . 13 : الجاثية ] .

هذا الإنسان ، كذلك ، خلقه الله وحفظه ، ويسره وبصره ، حتى وخبره بالأسباب ، من كلمة كن ، ( التي هي إرادة الله سبحانه ، وليست هي أحرف ولا لفظ ولا صوت ولا استغراق زمان ) ، إلى التراب إلى النطفة إلى الطفل الذي منذ جنينيته

إلى ولادته إلى وفاته ، يرقاه ويحفظه حسب أسرار الغيب والمشيمة ، بأعداد من الملائكة ، متنوعة ومحسوبة مهامهم وهو سبحانه فوق كل ذلك الرقيب والحاكم والمسيطر والمهيمن .

أولاً : قوله تبارك وتعالى :

{ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } . [ 11 : الرعد ] .

فكلمة ( يحفظونه ) في الآية ، تدل على الجمع ، وعلى يقينية أنهم أكثر من اثنين ، وعبارة من بين يديه ومن خلفه ، تعني الإحاطة به ، في أي جهة تحرك ، واعياً أو غير واعٍ ومن أي جهة أتى إليه ، فله من المعقبات ما يتعقبه ويحفظه بأمر من الله سبحانه وله الحمد . إلا إذا غير الإنسان ما في نفسه متحولاً من إيجابية مع ربه الحبيب إلى سلبية ، فحسب درجات تحوُّله يكون تحول العناية والحفظ عنه ، فرداً كان أو جمعاً . { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } فالمعقبات هؤلاء ، كجميع الملائكة الآخرين مؤتمرون بأمره عز وجل ، ودرجة اهتمامهم بمن يؤمرون بحفظه ، كدرجة اهتمامه بربه ، ونسبة ولائه له سبحانه ، فإذا كان ولاؤه لغير الله من دون الله ، سقط ، ولذلك كان آخر تنويه في الآية الكريمة هذه : { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } .

ثانياً : قوله لا إله إلا هو :

{ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } . [ 17 . 18 : ق ] .

الآية هي خبر عن الملكين المرافقين للإنسان أحدهما عن يمينه يكتب صالحاته ، والآخر عن شماله يكتب سيئاته ، وهذا التلقي هو جملة ما يتلقاه المتلقيان عن الإنسان المعهود إليهما بكتابة أعماله .

هذا هو التفسير المتعارف عند المفسرين بشكل عام .

أما الحقيقة ، فتوقف قليل عند عبارة { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ } ثم الرجوع إلى ما قبلها مباشرة وهو قوله سبحانه : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ... } فهذا الكلام المقدس ، يشعر أن التلقي الأولي ، هو من الله سبحانه ، فالملكان يتلقيان من عزته الأوامر والنواهي ، والآية في رأس ما يقصد منها هو قرب الله إلى الإنسان واستبطانه وإحاطته به ، وكذلك بالملكين المكلفين برقابة هذا الإنسان ، إذ يوحي الله إليهما ما يشاء بخصوص هذا الإنسان ويبدو ، بقوة ، أن تكاليفهما هي أكثر من مجرد الكتابة ، كتابة الأعمال . وأقل ما يقال ، في بقية هذه التكاليف ، هو إشعار الإنسان ، ودائماً بأمر من الله ، بخطئه إذا أخطأ ، فيدخلان عليه الشعور بالخرج ، وإذا أصاب ، يدخلان عليه شعوراً ، عادة يسمى راحة الضمير ، ويتأكد هذا الأمر ، عند الصديقين والأصفياء من عباد الله الصالحين ، وكلما ازدادت نسبة الصفاء والصدق في التوحيد ، كلما ازدادت نسبة اليقين ليس فقط ، بهذين

النوعين من الشعور ، وإنما كذلك بتوجيه صاحب العلاقة ، بأحاسيس داخلية تقوى وتشتد أو تضعف وتنعدم ، حسب درجة القرب من الله عز وجل والإنشغال بذكره ، أو البعد عنه والإنشغال بسواه .

أما القول بأن قوله تعالى { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ } يعني من الإنسان ، فهذا تقييد وتوجيه لقوله تعالى بدون مبرر ، بلى ، يضاف إلى أولوية التلقي من الله ، التلقي من الإنسان ، وقد تعني عن ذلك ، عبارة { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } ، أي رقيب حاضر ، إذ تكفي لأخذ العلم بأن الملكين إنما يسجلان كل قول ، إضافة إلى الرقابة العامة ، على الإنسان ، وكل ذلك ضمن هيمنة الله سبحانه وإحاطته بالإنسان وملائكته ورقابته لهما ، لدرجة أنه سبحانه ، إذا أراد أن لا تكتب سيئة في صحيفة إنسان يحبه ، حجب السيئة عن الملائكة ، فما استطاعوا لها إدراكاً ولا تسجيلاً .

أما عن الشؤون الحياتية للإنسان المؤمن ، وعن رعايته في أدق مشاعره النفسية وأحاسيسه البدنية ، فإن الولاية العامة في ذلك ، لله سبحانه وتعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ } . [ 11 : محمد ] .

ويكون ذلك ، إما بملائكته سبحانه ، وإما بأسمائه الحسنى وأسبابه العليا . قال تبارك وتعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } . وذلك رهن بمدى صدق الإنسان ومنزلته عند رب العالمين ، وبالتالي على اختياره . والآية الكريمة التالية ، تشير إلى الأمرين ، وبطريقة الإعجاز القرآني الذي يستحيل أن يجارى ، قوله تبارك وتعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ } . [ 30 . 31 : فصلت ] .

فالخطاب في الآية الكريمة : { نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } فيه أمران حقيقيان هما نسبة الخطاب إلى الله تعالى ونسبته إلى الملائكة ، والحقيقة ، أن هذين الأمرين مقصوران ، على تأويل أن هؤلاء المؤمنين المستقيمين ،

إذا كانت غايتهم من وراء إيمانهم واستقامتهم ، الدنيا والآخرة ، فالله سبحانه يوكل بهم ملائكته ، يجلون عنهم : الخوف والحزن ، ويدخلون على أنفسهم البشرى بأنهم من أهل الجنة ، ويشعروهم بحقيقة أن الله يتولى شؤونهم ويحفظهم ويرعاهم ويدفع عنهم الأسواء . أما إذا كان الله سبحانه هو الغاية ، وهم يحيون له وبه تعبدًا وحبًا ، دون توقف عند زهرة الحياة الدنيا وحتى عند الآخرة ، فالخطاب : { نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } ، هو لهم ، وهو من الله سبحانه ، وليس من الملائكة ، وفي ذلك كما هو واضح ، فارق عظيم ، لا يجوز قياسه . بين أن يتولاهم سبحانه بأسمائه الحسنى وأسبابه العليا ، وبين أن يوكل بهم عباداً من خلقه ، ولو كانوا مكرمين وبررة . قال سبحانه : { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } . وقال له الحمد : { ... وَإِنْ تَطَّاهَرَا عَلَيْهِ فَيَنْ لِقَاءَ اللَّهِ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِزِيلٌ وَصَالِحٌ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [ 4 : التحريم ] .

ومن الآيات التي تساند معاني الآية الكريمة التي نحن بصدددها : { إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ ... } قوله عز وجل : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا } .

[ 13 . 14 : الإسرائ ] .. وقوله عزّ شأنه في حديث عن رسول الله صالح عليه السلام : { قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ } . [ 47 : النمل ] ، وفي كلام صالح هنا تورية ، هو تعمدتها ولو كان القوم الذين كذبوه لم يعلموا قصده . وذلك أن الملاك أو الملائكة الذين يكتبون أعمالهم وأقوالهم ، هم والناس جميعاً ، في سلطان الله وتحت سمعه وبصره . ومثل ذلك قول الله تبارك وتعالى ، خبراً عن المرسلين الثلاثة وقومهم : { قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ... قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ } . [ 18 . 19 : يس ] .

ثالثاً : قوله له الحمد :

{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } . [ 22 : المجادلة ] .

بحكم الرحم ، والألفة والمعاشرة ، من الطبيعي أن تحصل مودة بين الأرحام ولا سيما منهم الأقربين ، في الأسرة الواحدة ومتفرعاتها القريبة ، من أبناء وأحفاد وأعمام وأخوال وأبنائهم ، حيث يشكل هذا المجموع ، ما يسمى بالعشيرة . هذه المودة بين الأقربين وبين أفراد العشيرة ، لكي تكون مقبولة مباركة عند الله ، جعلها سبحانه مشروطة بالإيمان ، فالقربة الحقيقية هي التي تكون بين المؤمنين . فمن أصرّ على مودة أبيه أو ابنه أو أخيه ، أو عشيرته بعضها أو جميعها ، من خرج منهم عن شريعة الله وتعاليمه ، حرمه الله من نعمة الإيمان ومن تأييده بروح منه . ومن وادّ أحداً من هؤلاء أو جميعهم على شرط الإيمان ، كتب الله الإيمان في قلبه وأيّده بروح منه ...

وكأنما جعل الله هذا الأمر علامةً على إيمان المؤمن ، أو على حقيقة إيمانه ، فإذا كان لا يوادّ أباه أو ابنه أو أخاه ، طاعة لله ، بسبب انحرافهم عن الدين ، فتلك علامة ظاهرية على حقيقة إيمانه ، يقابلها ، في باطنه ، تبعاً لإخلاصه لله وللدين الذي أرسل به رسوله ، أن يكتب الله الإيمان في قلبه ، وما يكتبه الله لا يقدر على محوه أحد

، هي كتابة بحروف نورانية لا تنطفىء ولا تخبو . وأكثر من هذا ، فإنه سبحانه يؤيده بروح منه ، هذا الروح ، أولاً، هو زيادة على أصل العدد المخصص لكل إنسان من الملائكة ، كما رأينا وسنرى إن شاء الله من الآيات ، وثانياً ، إن الأمر المكلف به هذا الروح ، هو أمر عناية ورعاية وتوجيه وتسديد وبركات إضافية من جهة ، ولها صفة الديمومة من جهة ثانية ، باعتبار أن الذي كتب ويكتب في القلب الإيمان ، ويؤيد بهذا الروح ، هو الله جلّ جلاله ، وهذا الروح ، لا شك أنه غير عادي في الملائكة العاديين ، هو أعلى شأنًا ، وأكثر حملاً من بركات الله وكنوز رحمته .

هذا في الدنيا : الكتابة في القلب ، والتأييد بروح منه جلّت عظمتها ، ويدوم ذلك بفضل الله وكرمه ، حتى يدخل في الآخرة ، مخلداً في نعيم أنعمه رضى الله عنه وإدخاله سبحانه الرضى على قلبه ، مع ذلك الشرف الرفيع : حسبانه في أنصار الله وحزبه ، المفلحين الراجحين الأبرار .

رابعاً : قول الله له الحمد :

{ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } . [ 2 : النحل ] .

كأنما الملائكة أنوار علوية ، فوق ما نعرف ونرى من الأنوار ، يوجههم الله سبحانه ، كما يريد وكما يشاء ، بعقول فعّالة ، يحركها جلّت قدرته ، في جميع الإتجاهات الباطنية والظاهرية ، بقوى ودرجات مختلفة ، تذكرنا هذه الموجات النورانية المنحثة ، أو الطيور الشفيفة الضوئية اللامرئية إلاّ لمأماً ، تذكرنا ، على ضيق آفاقنا واختراعاتنا الطفولية ، مقارنة بطواهر هذا الكون وأسراره ، وأعماقه وأغواره ، وأنواره السبعين . بلغة القرآن الكريم . في مقابل ما نعرف من أنوارنا السبعة ، التي لم نخلق منها ولا ذرة ولا ظل ذرة ، تذكرنا بتلك الأداة التي هدانا الله سبحانه لاختراعها ، ندير بها التلفاز ، من بعيد ، بالطاقة ، بموجات نور أرضي ،

كذلك هو من خلق الله وصنعه ، ونوجه بها اللاقط والموجة والصوت واللون والجهات ... فكيف إذا كانت موجات النور هذه عاقلة ، وبهد الله عزّ شأنه ، إذا كانت من غير عالمنا الأرضي ، من سموات أعلى وعوالم أرقى ، يرسلها الله جلّت عظمتها ، تحترق

السموات وتعبر الأجواء ، بأسرع من الضوء ، وأسرع من الأسرع ، حتى يصل إلينا الأسرع الذي لا يجارى ولا يبارى ، الذي تحرس عنده الأرقام والحواשב ، والأفكار والأحلام والظنون ، ذاك الذي في قول الله سبحانه :

{ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } .

{ (وَاحِدَةٌ) كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } وليس كلمح البصر ، إذ لمح البصر يستغرق وقتاً ، هو قياس زمني ، إنما أمر الله أسرع من ذلك بلا قياس ، هو { وَاحِدَةٌ } كلمح بالبصر ، يعني ، هو جزء من الثانية ، هل جزء من ألف ، أم من مليون أم من مليار أو من مليارات ؟ كذلك هذا كلام وأسئلة أطفال في مواجهة علم الله

وأسرار الله ، أرقى العلوم تبقى في مستوى البهيمية مقارنة مع علم الله المكنون ، وفي جميع الأحوال ، فإن ما عند البشر هو من علم الله سبحانه { لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } . فما هي هذه السرعة التي قد تجتاز الأكوان من أقصاها إلى أقصاها ، في { وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } ونذكر كذلك بهذه ( الكاف ) التي في { كَلَمْحٍ } ، إذ أنها للتشبيه ، واللمح بالبصر المشبه به ، غير الحقيقة ، فالحقيقة يستحيل على البشر إدراكها ، لذلك شبه لهم الأمر ، بما هو أعلى سرعة عندهم ، سرعة النور ، التي هي اللمح بالبصر ، أما سرعة أمره سبحانه ، إذا شاء ، حين يشاء ، حيث يشاء ، كيف يشاء ... هي أسرع من جميع ما خلق من السرعات في الكون . فأقصى سرعة عرفها العلم البشري ، هي سرعة الضوء ، وإذا استطاع أن يرصد بالأرقام السرعات التي ما زالت مستعصية في حركات جزئيات الذرة ، فستكون سرعة جديدة أسرع من الضوء ، إنما تبقى سرعة صنف من الملائكة في آية كريمة . والملائكة أصناف ودرجات . تبدو معها سرعة الضوء المعروفة في علم أهل الأرض كسير السلحفاة في سباقها مع البرق الخاطف . هي في قوله عز وجل :

{ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }

. [ 4 : المعارج ] .

وهذه الخمسون ألف سنة لا بد أن تكون إلكترونية ، أي بسرعة الإلكترون حول نواة الذرة . فالمسافة إذن هي ما بين طرفي الكون ، إذا كان لهذا الكون نهاية

يقطعها هذا الصنف من الملائكة في خمسين ألف سنة. وإذا كان العلم قد قرر أن طول بعض المجرات العادية، تحت سمائنا الدنيا هذه، حتى نصل من بدايتها إلى منتهاها، يقتضينا ثلاثمائة مليون سنة ضوئية، أي طيراناً بريقاً فوقها بسرعة الضوء. هذا، مع أن أية مجرة من المجرات الكبيرة ما هي إلا كحبيبة غبار في مملكة رب العالمين وعرشه المجيد. فسرعة الملائكة إذن تقطع الكون كله، في خمسين ألف سنة ضوئية، وتصبح سرعة الضوء الأرضي عندنا مقارنة معها لا تكاد تذكر. كذلك سرعة هذا الصنف المدهش من الملائكة، التي يستحيل رصدها بإمكانات الإنسان وآلياته ومراصده، هذه السرعة الهائلة، كذلك تصبح قريبة من الصفر النسبي مقارنة مع سرعة أمر الله الذي أخبر عنه في قوله جلَّتْ عظمتُه : { وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ } والذي نرى آثاره جليَّةً، في إسقاط دولة هنا، وهدم عرشٍ هناك، ونصر عسكر أو عزيمته هنالك. وزلزال في بر وطوفان في بحر، وانشقاق أوزون في السماء أو انشقاقات، ومجرات تولد، ومجرات تغيب، وعنايات يبشر اهتدوا، ونقمات على آخرين ضلوا، إلى آخر ما يتعلق بإدارة هذا الكون العملاق، وما خلق الله فيه، ومن جملته هذا الإنسان المغرور بربه أو الفقير إلى رحمة ربه.

وفي جملة العناية بهذا الإنسان، مضمون الآية الرابعة عن الإنسان والملائكة:  
{ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } .

وهذا كذلك، كما قدمنا، لون من ألوان الوحي، الذي ينزل به ملائكة من لدنه سبحانه بقيادة الروح على أفراد من عباده أو حتى على مجموعات، حسب نص الآية، لينذروا أقوامهم، كلاً بلغته، وفي قومه وفي موطنه، في القارات وفي الدول والمدن والقرى، على مدار الأيام أنه لا إله يحكم الكون، ويدبره ويديره، ويهيمن عليه، إلا الله القاهر فوق عباده، الرحمن الرحيم والمنتقم الجبار. فحق عليهم أن يتقوه حق تقاته وأن يخشوه وأن يسترحموه ويستغفروه، فإنه سبحانه أهل الكبرياء والعظمة، وأهل التقوى والمغفرة، وأهل العفو والرحمة.

ويتكرر، هذا المعنى، إنزال الملائكة بالروح، أو إلقاء من أمره تعالى أو إحياء الروح كذلك من أمره سبحانه في آيات أخر: قوله عزَّ وجل : { يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ

عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ { . [ 15 : غافر ] . وقوله عزَّت عظمته : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } . [ 52 . 53 : الشورى ] . وفي الآية الأولى قوله تعالى :

{ نَهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } تلويح إلى استمرار الهداية بهذا الذي أسماه سبحانه { رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا } ، وهو غير جبرائيل عليه السلام أو الروح القدس الذي كان يوحي الله به من جملة ما يوحي به إلى رسول الله محمد ( ص ) وصحبه الأبرار الميامين . وفي الآية معنى صريح بأنه سبحانه جعله نوراً ، يهدي به ربما الكثير من خاصة عباده سبحانه ما دام على ظهر هذه الأرض بشر يرزقون .

خامساً : قول الله له الحمد :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } . [ 4 . 5 : السجدة ] .

{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } أي أمر الدنيا مدة أيامها ، تدبير العالم بكل شيء ، المحيط بكل شيء ، المهيمن على كل شيء ، قال تبارك وتعالى : { كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } فإذا اقتضت بعض هذه الشؤون ، الأسباب النورانية والقوانين المحكمة والملائكة على شتى درجاتهم ، كان ذلك كذلك ، في جملة تدبيره سبحانه ، من أدق الأمور إلى أعظمها . { ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } أهل النعيم من الجن والإنس ، بسرعات الملائكة على اختلاف درجاتهم ، تعلقاً باختلاف درجات المؤمنين من الجن والإنس . فمنهم السابقون إلى مقاماتهم المعدة لهم في عليين عند سدرة المنتهى ، ومنهم اللاحقون كذلك إلى مقاماتهم في بقية درجات النعيم ، والجميع يصلون خلال هذا اليوم المذكور في الآية الكريم { فِي يَوْمٍ } ، أي مدة . قياساً على حسابنا الزمان . هي يوم من أيام الآخرة المخصوصة للحساب ، والتي مجموعها خمسون ألف سنة ، وهذا اليوم الذي يقطعه المؤمنون عروجاً ، كان يقتضي منهم . لو كان الأمر موكولاً إليهم . ألف سنة ، بأرقى ما سيتوصل إليه علم البشر من

وسائل وطاقات، تختصر الزّ. مكان أو الأبعاد الأربعة ، أي بأسرع من الضوء<sup>(1)</sup> ، لو أرادوا قطعه ، أي اليوم الأخروي ، في ظروف مشابهة لظروف دنياهم ، وتركيبية ما تحت سمائها.

من هنا يتبين أن قضية العروج يوم القيامة ستكون عبر السماوات، بعضاً أو كلاً ، حسب الدرجات ، وبأسرع من أسرع ما سيتوصل الإنسان إلى معرفته من وسائل وقوانين علمية ، حيث سيكون العروج ، أي الانتقال صعوداً ، غير محكوم بالزمان والمكان والسرعة والقوانين العلمية ، مما عرفنا أو سنعرف على أرضنا هذه ، أو تحت سمائنا هذه الدنيا .

(1) وهذا دليل على أن الله سبحانه سيكشف للعلماء في الدنيا ، ما هو أسرع من الضوء. وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى يرفع الإنسان في نفسه ومتعلقاته وما يحيط به تحت هذه السماء من أفلاك ونجوم وقوانين علمية وموازين وأرض برطبها ويابسها وبحارها وأنهارها وبواطنها ، مشرفاً بعزته وجبروته ولطفه ورحمته على جميع ذلك بما يشاء من الأسباب ، حاضراً ناظراً ، سميعاً مجيباً ، بكل شيء محيط .

وكما قلنا بالنسبة للإنسان ، فإن الله سبحانه ، يرفع بعنايته ورحمته ، ما دام مستأهلاً لهذه الرحمة ، منذ خلقه من تراب ، ثم نفخ فيه العقل ، ثم تمريره في الأصلاب والأرحام . حتى أخرجهم طفلاً ، ثم درّجهم في مراحل العمر ، حتى يتوفاه إما عن تمام العقل ، وإما عن أرذل العمر ، وبين تمام العقل وأرذل العمر ، درجات. وقد أشار سبحانه إلى المفارقتين هاتين بقوله : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } . [ 67 : غافر ] . فهذا مسار يرجى فيه للإنسان أن يتوج حياته ويختمها عاقلاً أو بتمام عقله . أما عن الأخسرين فقال سبحانه : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا

الْمَاءِ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ { . [ 5 : الحج ] . وهذا مسار يختتم الإنسان فيه حياته وينتهي به ، كما قال سبحانه { إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا } .

أما الذين اعتبروا { أَرْدَلِ الْعُمْرِ } في هذه الآية الكريمة هو الشيخوخة والطعن في السن ، فهم قد فَصَّلُوا بين المعنيين المتلازمين في الآية ، وهما أَرْدَلِ الْعُمْرِ وانتفاء العلم ، [ والرُّذَالَةُ ، كما جاء في القاموس ، ما انتفى جيده وبقي رديئه ، والرُّذَالُ : الدُّونُ الحسيس . وَرَذَلَهُ رَذَلًا : جعله رذيلًا ، والرُّذُلُ : مصدر رَذَلَ . الحسيس الدون أو هو الرديء من كل شيء ] . فإذا اعتبروا هذه المعاني هي للشيخوخة واعتبارها عند الله والناس ، فهذا تجن على الحقيقة ، إذ أن شيخوخة المؤمن ، لها منزلة رفيعة عند الله سبحانه وطالما أوصى برعايتها بين الآي والأحاديث على ألسن الرسل . وهي كذلك عند الناس ، حيث تتجلى صفات الإيمان بنورانية وفهم وعلم جَم ووقار وجملة خصائل يفرضها الله على الناس فرضاً دون إرادة منهم ، ودون أن يكون لهم فضل في ذلك ، بل الفضل لله وَحْدَهُ لا شريك له . وأمثال ذلك كثيرة بين تاريخ الأنبياء ، وهم بشر من الذين عَمَّرُوا ، كنوح ، وإبراهيم ويعقوب وشعيب وغيرهم ، وبين عامة الناس ، من علماء ومفكرين وكتّاب ، كانت شيخوخة كل واحد منهم ، أكثر صفاءً ، وربما في بعض الحالات أكثر إنتاجاً من عهود شبابهم وفي جميع حالات هؤلاء إذا كانوا مؤمنين مرضيين عند الله سبحانه ، لا يقال عن واحد منهم أنه بلغ أَرْدَلِ الْعُمْرِ ولم يعد يعلم مما علمه الله شيئاً . ثم ماذا نفعل بمضمون آية { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ... الآية } وهل مضمونها لا ينطبق إلاً على الشباب ، في حين أن المؤمنين الشيوخ أولى بعناية الله سبحانه وبرأفته ، ورحمته ، ولا سيما ، إذا كانوا شبابوا وشاخوا مجاهدين في سبيل الله في شتى أنواع الجهاد . أما إذا بلغ الإنسان حقيقة أَرْدَلِ الْعُمْرِ ولم يعد يعلم من بعد علمٍ شيئاً ، أي ذهب كل ما يعلم ، فإن في ذلك علامات استفهام ، نختمها عادة بالتسبيح والتحميد والإستغفار لنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات .

وأمر الله عز وجل ، لملائكته ، المأمورين بتوفي الناس ، يجيب على علامات الإستفهام هذه إلى حد بعيد . فسلوك الملائكة في توفي الناس أو إماتتهم يختلف من إنسان لآخر ، وقد يكون في هذا الاختلاف مئات الحالات بين أحسن حالات الموت وبين أسوأها في النظر الظاهري ، على أن الظاهر غالباً ما ينبئ عن الباطن الذي يكون إما أبلغ سعادة وهناءة ، كما استغراق عميقة في نوم مريح ، يستيقظ بعدها على رحمة الله ، ونعمه ونعيمه ، وإما أشد إيلاًماً وانتقاماً ، كما سنرى في بعض آيات الله البينات ، قوله سبحانه وله الحمد .

سادساً : { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [11 : السجدة] . وطبعاً ، ملك الموت لا يتوفى الجميع ، ولا سيما إذا كان في الأمر موت جماعي ودفعة واحدة ، إنما ملك الموت جنود يأتمرون بأمره ، الذي هو أمر الله سبحانه ، والجميع هم جنود الله ، قال تعالى : { وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } . وهكذا ، فيما يتعلق بملائكة الموت ، نرى ، بعد تعميمه الخبر سبحانه ، يفصل الأمر نوعاً من التفصيل في الآيات التاليات ، قوله سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } . [ 97 : النساء ] .

وقال عز شأنه :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } . [ 93 : الأنعام ] .

وقال له الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم :

. { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ  
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } . [ 50 : الأنفال ] .

وقال جلَّ جلاله :

. { وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } [ 19 : ق ]

وقال لا إله إلا هو :

. { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ } . [ 85 . 83 : الواقعة ] .

سابعاً : قال تبارك وتعالى :

. { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ

وَشَهِيدٌ } . [ ( 21 . 20 ) : ق ] .

التوفي يتم قبل الساعة ، ويوم قيام الساعة ، أي قبل النفخ في الصور وعند  
النفخ فيه ، وذلك يوم القيامة . وفي جميع هذه الأحيان يكون توفي الأَشقياء كما ذكرت  
الآيات الكريمة التي أوردناها ، أما توفي المؤمنين السعداء برحمة ربهم ورضاه ورضوانه ،  
فقد ذكر سبحانه عنهم كذلك في آيات بينات ، حالات أظهر فيها بين العبارة والإشارة  
أمره للملائكة بتوفيتهم وإسعادهم بذلك في الدنيا ويوم القيامة والآخرة . ونستعرض  
الآن بعض هذه الآيات التي تتجلى فيها رأفته ورحمته على عباده الأبرار ، وأوليائه  
الصالحين . قال تبارك وتعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا  
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي  
الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ } . [ ( 31 . 30 )  
: فَصَّلَتْ ] .

فقول الملائكة لهم في الحياة الدنيا ، وحياءاً من الله سبحانه ، أَلَّا تَخَافُوا وَلَا  
تَحْزَنُوا ، وكذلك توليتهم برعايته ورحمته في الدنيا والآخرة ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً إِشْعَاراً  
بتسهيل الموت عليهم ، وتوفيتهم سعداء ، وطبعاً بموجب مضمون وعده جلَّتْ عظمتُه : {

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ { وكذلك تظهر أنواع العناية والدرجات في بعض إشارات الآيات التالية : قوله سبحانه :

. { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . [ 32 : النحل ] .

وقوله له الحمد :

. { جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } . فقوله تعالى { فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } فيه إشارة إلى حُسنِ التوفِّي ، إذ أن الدار المقصودة هي دار الدنيا ، وعقبها تبدأ من الموت فصاعداً وكذلك ، ربما قبيل الموت ، أي في المراحل الأخيرة من العمر ، والله واسع كريم .

وقوله سبحانه :

{ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } . [ 101 . 103 : الأنبياء ] .

وهكذا نرى أن رُسُلَ الله من ملائكته المكرمين، يواكبون الإنسان ، بأمر منه سبحانه، منذ هو في الأصلاب وفي الأرحام . ما داموا مواكبين آباءه وأمهاته . ومذ يتنفس على هذه الأرض ثم يجبو ويدرج ويشب، وكهلاً وشيخاً، إذا استكمل عمره . ثم يتوفونه ، إذا توفاه الله بهم . ثم إذا { وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } من الملائكة المكرمين عند رب العالمين . ثم إذا كان من أهل النار ، تتلقاه خَزَنَتُهَا من الملائكة : { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [ 70 . 71 : الزمر ] . وكذلك إذا كان من أهل النعيم ، تتلقاه خزنة النعيم وهم ملائكة الرحمة : { وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا

رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمْرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ { [73 . 74: الزمر]. وهكذا تستمر مرافقة الملائكة للإنسان، حَفَظَةً وَكُتَبَةً، وأرواحاً علويةً هم زيادة من فضل الله وكرمه ورحمته للصديقين الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ومع كل نفس يوم البعث سائق وشهيد ، وملائكة إستقبال وأحاديث ومناقشات منهم وإلقاء حجج على الأشقياء ، ومؤانسة وجميل إستقبال وخدمات جلى للمؤمنين السعداء بحبهم لربهم وبتدارهم الباقية ، التي لهم فيها ما يدعون ، ولهم فيها ما يشتهون ، من حلِيم كَرِيم ، ورؤوف رحيم ، وعَفُوٌّ غفور ، { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } وحتى في سماء الجنة سوف نرى ، بإذنه تعالى، وبكرمه وجوده ورحمته أسراب الملائكة ، طائرين محلّقين في مهمات أو استعراضات ، يزيدون بذلك ، الجنة جلالاً وروعةً وجمالاً ، مما لا يخطر في بال ولا يمر في خيال . قوله تعالى له الحمد وله المجد : { وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } . [ 75 :

الزمر ] .

فالحمد لله رب العالمين ، وله الشكر ، كما حمد نفسه ، وكما شكر نفسه ، وكما ينبغي لكرم وجهه .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## البدو الحفاة يكتسحون العالم

ليس جديداً هذا الذي سأكتبه ، وإنما لشدة ما يؤرقني ، ولكثرة ما يفعل في أعماقي ، وربما حتى في عظامي ، أحسبه جديداً جداً في كل مرة أتذكره ، وما أكثر ما أتذكره .

الكلام هو عن هذا النبي الأمي ، الذي جمع حوله أقل قوة ضاربة في التاريخ ، ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، أكثرهم حفاة ، وأكثرهم سلاحهم دون مستوى حروبهم ، وكلهم أو معظمهم فقراء جياع ، شبه عراة ، قادمهم هذا الذي اسمه محمد (ص) فضرب بهم أول ما ضرب ، وكأنا في مركز الكرة الأرضية ، فزلزل المركز ، وأخذت تتسع به وبهم ثم بالذين اتبعوه بإحسان ، دوائر الزلزال . حتى أخضع الأرض كلها لسلطان السماء .

هذا المشهد الظاهري ، يفهمه كوصف وموصوفين كل الناس وإنما فهماً سطحياً

هذا المشهد ، في هذه الكلمات المطلة كأنما من رأس جبل لعله عرفات ، تختصر تاريخاً ضخماً يقدر بأكثر من سبعة قرون من عمر الزمان . سبعة قرون خضراء

حمراء ... حمراء خضراء ... دائبة ناشطة تطبعها البطولات والفروسية ، وشهامة الرجال ، وعنفوان المغاوير ، ورهج السيوف وتصهال الخيل . حتى لم يبق مكان في الأرض معروف آنذاك ، إلا وكان له نصيب من وشم السنابك وخفق الرايات وطيران الأسنة .

هذا الكلام موقف ، هو موقف تاريخي بصري ، شهوده الكتب وأقلام الخلق . أما المشهد الباطني الذي تغطيه هذه الكلمات ، فهو غير ذلك . المشهد الباطني ، هو أن هؤلاء القوم ، بقوتهم الصغيرة العالمية الضاربة ، اعتقدوا شيئاً ، اعتنقوا شيئاً ، وهذا الذي اعتقدوه واعتنقوه ، هو الذي فتح لهم أبواب السماوات وسلطهم على الأرض ، وجعلهم بحق أساتذة أهلها . هذا الذي اعتقدوه وأعتنقوه ، اسمه الإسلام .

وهذا الكلام موقف ، هو موقف واقعي قلبي ، شهوده الجوارح وأقلام الحق . فما هو هذا النبي (ص) ؟ وما هو هذا الإسلام ؟ وما هو هذا السلاح الذي هزوا به العالم حتى استيقظ من غفوته ، وقلبوا به وجه الأرض الجذب الكالح يومذاك ، وزرعوه بالسندس والبركات وشقائق النعمان .

أما عن محمد \* فلن أتكلم وأطيل ، فبحسب محمد \* قول الله فيه من فوق سابع سماء :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } . [ ( 4 . 1 ) : القلم ] .  
وعن الإسلام كذلك لن أتكلم وأطيل . فبحسب الإسلام كذلك قول الله فيه

{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } . [ 19 : آل عمران ] و { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } . [ 85 : آل عمران ] .  
وقوله جلت عزته :

{ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } . [ 32 : التوبة ] .

وقوله عزّ شأنه :

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ  
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } . [ 33 : التوبة ] .

أما السلاح الذي جلوا به الظلام وأطلقوا به فجر الحق ، وحطموا به أنياب  
الوحوش والأفاعي ، وأسقطوا به عروش الظلم والبغي والطغيان ، وحرروا به إنسانية  
الإنسان من عبادة الحجر وعبادة البشر ، فهو مذهب الإسلام ، نهج محمد (ص)  
وأتباع محمد (ص) ، عنيت به التوحيد الحق ، الذي عرشه القلب والعقل ، والنفس  
والروح ، والسمع والبصر ، وتفان في حب الله وسبيل الله والشوق إلى الله .  
ذلك سلاح أنصار الله الذي فتح الله لهم به الممالك ، وضمن لهم شرف  
الدارين ، الدنيا والآخرة .

فعن هذا السلاح المقدس ، بل السلاح الأقدس ، عن التوحيد ، مذهب محمد  
(ص) ، وأتباع محمد (ص) أتباع الله عزّت عظمته ، عن هذا المذهب ، مذهب  
الفتوحات الإسلامية ، والجهاد الإسلامي ، بإذن الله تعالى سأكتب ( عبراً تراثية ) ،  
صوراً ووقائع ومواقف ، من التي في سبيل الله وحده ، وهي التي أذن الله أن تقوم  
على أساسها أمة عظيمة ، ودولة عظيمة ، صهرت الأجناس وأزالت الفوارق وقضت  
على العصبية المنكرة . ولم يسبقها من قبل ولم يلحقها من بعد ، أمة بنيت على  
أساس دين التوحيد ، ولا دولة .

فاليهود ما فتحوا فتحاً ، لا على اسم الله ولا في سبيل الله ، ولا بنوا دولة ،  
سوى هذه التي هي على كفّ عفريت ، لأنّها لا على اسم الله ولا في سبيل الله . ما  
بنوا وما فتحوا وهم اليوم على كف عفريت ، لأنهم تحكمت بهم العنصرية والعرقية  
والإنغلاق .

والنصارى ، ما فتحوا باسم الله لا فتحاً ولا بنوا دولة ، بل تلقفتهم منذ البداية  
دولة وثنية ، ثم دول وثنية ، استظلوا بظلمها واحتكموا لقوانينها ، وما زالوا لتاريخه  
يستظلون ويحتكمون إلى أنظمة وقوانين وضعية ، يعني غير إلهية .

والمثل السماوية البارزة في الأرض اليوم هي هذه : اليهودية والمسيحية والإسلام . فالإسلام وحده شكل أمة كانت لله وحده ، وبنى دولة عظيمة على تعاليم الله وحده . فرفع الله إلى السماء راياتها ، وأعلى قبائها ، ونصرها بنصره وأعزها بعزته ، وقهر أعداءه وأعداءها بسلطانه . وامتد ذلك بضعة قرون ، حتى دبّ الفسوق في الملوك ، وغلبت على أمرها الرعية ، وإنما بقيت خزاناً للجهاد العبقري كشف عنه بعد هذا النوم الطويل ، العدوان الصليبي على بلدان المشرق وبلاد المسلمين . وقبله غزو الوثنيين من البرابرة والتتار ، ويسر الله عز وجل ، تأكيداً لوعده بحفظ هذه الأمة ، وإظهار دينه على الدين كله ، قوله سبحانه :

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } . [ 55 : النور ] .

واستجابة لدعاء الداعين ، وابتهالات المبتهلين ، وإخلاص الموحدين ، يسر الله عز وجل ، بين عربي وفارسي وكردى وتركي ، وغير ذلك من الأجناس والأعراق ، رجالاً أبطالاً مسلمين ، ذادوا عن شرف الإسلام ومقدسات الإسلام ، كذلك على اسم الله وحده ، وفي سبيل الله وحده .

إنما سقطت الدولة ، وأصبحت دولاً تكاد تكون اليوم أصفاراً . سقطت الدولة الإسلامية ، هذا صحيح ، لأنه واضح كعين الشمس ، ولكن لم تسقط الأمة . فالأمة الإسلامية ، ما زالت ذلك الخزان العظيم ، الكامن فيه الجهاد العبقري ، على اسم الله وفي سبيل الله .

الأمة الإسلامية ما زالت مشروع الدولة العالمية الموعودة ، التي سترسي أسس العدالة الإلهية وتحفظ كرامة الإنسان . ولذلك حوربت من طواغيت الأرض ، وما زالت تحارب وستبقى تحارب ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

{ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } . [ 55 : الذاريات ] .

نذكر من له حول وطول ، بالعمل بحوله وطوله في حدوده القصوى . ومن  
ليس له حول وطول ، بالصبر الجميل ، والتبتل والدعاء ، دعاء المضطرين :  
{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ  
أَلِلهَ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } . [ 62 : النمل ] .

فعسى الله العزيز الرحيم أن يمنَّ على المسلمين بفتح هذا الخزان ، خزان  
البطولات العبقريّة ، التي سنرى إن شاء الله صوراً منها ومواقف ، على يد قائد موعود  
، موحد غير مشرك ، يعضده قادة موحدون قرآنيون ، موحدون غير مشركين . فإن  
وعد الله حق ، ولينصرن الله من ينصره فلا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن  
المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمّا يشركون .

الله يريد الأرض مجتمعاً يعمل بتعاليمه

قال عزّت عظمته :

{ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ } . [ 41 : يس ] .

كم عدد الذين حملتهم السفينة بعد الطوفان ؟

إستناداً إلى قوله عزّ وجل :

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ  
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } . [ 40 :  
هود ] .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سعة السفينة عقلاً ، ولو كانت بحجم بلدة  
متوسطة ، فإنه لا يمكن أن يتجاوز عددهم بضع عشرات من الناس على أكثر تقدير

وهذا يعني أن الله عزّ وجل ، أهلك البشرية كلها بالطوفان آنذاك ، وأبقى  
على بضع عشرات من الناس استخلفهم في الأرض ليقوموا عدالة الله ويحكموا  
بشريّته .

أهلك الله جميع أهل الأرض آنذاك ، لأنهم لم يقبلوا ولم يتعاونوا مع الداعية إلى الله نوح عليه السلام على إقامة حكم الله في الأرض .

إذن يريد الله إقامة مجتمع يعمل بتعاليمه سبحانه ، ويريده على مستوى العالم . وإلا فهو الإجتثاث أو الإبادة ، والإبقاء ولو على بضع عشرات من الناس ، نواة للمجتمع المراد : المجتمع المسلم لله ، المؤمن ، الموحد ، المحتكم إلى ما أنزل سبحانه :  
{ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } . [44: المائدة]

وهؤلاء الكافرون مهددون أبداً ، بالإهلاك ، أفراداً ، أو بالإبادة جماعات ، أو مجتمعات . يقول سبحانه وتعالى : { لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا } . [ 22 : الإسراء ] .

إن أيما قوة في الأرض أو في الكون بأسره يعتمدها الإنسان من دون الله ، ويرتكز عليها نفسياً ومادياً ومعنوياً ، فقد ، بذلك اتخذ إلهاً . فإن كان مؤمناً بالله فقد أشرك و { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } . [ 116 : النساء ] . وإن كان كافراً بالله ، فقد ألد ، والكافر والمشرك عند الله سيان ، عدوان له سبحانه في الدنيا والآخرة .

وقد تكون القوة المعتمدة من دون الله سلطاناً ، أو علماً ، أو تكنولوجياً ، أو مالاً ، أو عسكرياً ، أو أي شكل من أشكال النفوذ ومراكز القوى . فمن يعتمدها من دون الله ، فقد جعل مع الله إلهاً آخر . وإذا قد فعل ، فسيقعد ( مذموماً مخدولاً ) .

والدم : اللعن والتقيح . والخذلان : الإسقاط والإهلاك والذم والخذلان للمشرك ، سيكونان من الله عزت عظمته ، وإذا كانا كذلك فلن يشفع بالمشرك شافع ، ولو نبي ولو إمام ولو جيش لجب ، ولن يعصمه ملجأ في الأرض أو في السماء .

هذا من معاني قوله تبارك وتعالى ، على أساس مخاطبة الإنسان الفرد :

{ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا } .

ولكن كلام الله عز وجل ، أوسع وأشمل ، فكما أن التبادر في قراءة هذه الآية أو سماعها هو كونها خطاباً للإنسان الفرد ، كذلك ينبغي فهمها أنها خطاب للإنسان

النوع ، وأنها كذلك للمجتمع الصغير ، وأنها كذلك للمجتمع العالمي . ثم تنطبق نفس المعاني التي فيها على كل مخاطب ، قلّ عدداً أو أكثر ، وصولاً إلى الإطلاق ، ونقرأها الآن بعد هذه الدلالات :

{ لَأَتَجْعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } .

فنفهمها حكماً ، فهماً أوسع وأشمل ، وكذلك القرآن لأنه كلام الله الحق المبين

وإذا كانت هذه إرادة الله عزّ وجل : أن يقوم مجتمع عالمي يعمل بتعاليم الله سبحانه ، فهل بالإمكان عقلاً ، إقامة هذا المجتمع بدون دولة ؟ دولة بالمعنى المعاصر ، يعني : حاكم وسلطات عسكرية ومدنية ومؤسسات ؟

والإجابة عن ذلك ، نجدتها في دولة محمد ( ص ) والراشدين من بعده ، حيث عاصمتها المدينة المنورة ، وأطرافها أطراف الكوكب الأرضي المعروف آنذاك ، إن لم يكن بالفعل ، فبالقوة ، أعني قوة الفكرة ، وقوة الاعتقاد ، يعني قوة النصر الذي هو من عند الله وحده لا شريك له .

وتبنيهاً إلى أننا ما زلنا في معرض موضوعنا الأساسي : ( عبر تراثية ) ، نذكر من كلام الله عزّ وجل ، في الذين قادوها في سبيل الله وحده ، والذين خاضوها في سبيل الله وحده ، آية تعينهم كما تعني شتى أصناف المؤمنين والتوابين والمجاهدين أنفسهم والمجاهدين عدوّهم ، قوله عزّ شأنه :

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } . [16: الأحقاف].

وتمهيداً لهذه الدولة الموعودة في قوله عزّ وجل :

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } . [ 55 : النور ] .

وبشرى للمجاهدين التواقين للإنتعاق من سجن هذه الأرض الدنيا ، المشتاقين إلى ربهم والدار الآخرة ، دار البقاء والخلود في نعيم الله وجنانه ، ورضاه ورضوانه ، أكتب بإذنه تعالى وبِعونه وتأييده ، هذه ( العبر التراثية ) ، راجياً أن ينتفع بها عباده ، وأن تكون لهم مواقف مثل مواقف أبطالها وجهاد مثل جهادهم . فقد مدح الله السابقين ، وليسير سيرهم اللاحقون وهو بكل شيء عليم وهو اللطيف الخبير . راجياً بذلك وجهه الكريم وحده ، ورضاه وحبه ورضوانه ، لا أريد بذلك عرض الدنيا وإنما أريد الآخرة ، فأكتب تقرباً إليه وتحبباً ، فهو الحبيب الأعظم ، له روعي وقلبي ، وله كياني وحيي ، عليه توكلت ، بأمره ، وإليه أنيب ، وهو حسبي وإليه المصير . قال سبحانه وتبارك وتعالى :

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } . [ ( 4.3 ) : الأحزاب ] .

فسمعاً وطاعة يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين ، بك حولي وبك قوتي وأنت المستعان ، وحدك لا شريك لك .

## من الناصر والكافي ؟

### القائد النبوي أم العسكري أم الله ؟

للإجابة المقنعة المشبعة ، اخترنا ثلاثة مواضيع لثلاث آيات هنّ منارات هداية لمن يتدبرهن ، إذ يلخصن مضامين العقيدة في الكلمة الأزلية الأبدية التي هي : لا إله إلا الله . حيث يتبدى الكون وضمنه الإنسان ، محكوماً بأسمائه الحسنی . ولك أن تواليه فتكون في رعايته ورحمته وحبه ، أي مع الرحمن الرحيم . ولك أن تعاديه أو تعرض عنه سبحانه ، فتكون موكولاً إلى من لا يغني عنك من الله شيئاً ، وفي غضب الله وسخطه ولعنه ، أما أسماؤه الحسنی فيكون لك منها ظلال المنتقم الجبار . أما المواضيع أو النماذج الثلاثة ، فهي : وقعة الأحزاب ، ووقعة أحد ، ووقعة حنين .

العبرة الأولى ، الأحزاب :

وقد وقعت بين أنصارِ الله يقودهم نبيهم محمد ( ص ) وبين أهل شرك يقودهم طواغيتهم ، وإبتداءً من هنا ، لن أتعرض لكثير من الأسماء البارزة ، في تاريخ هذه الواقعة ، أو غيرها من الغزوات ، لأن الهدف هو التحوُّل إلى ذكر الله ، بعد أن كاد ذكر غير الله يطغى على ذكره سبحانه ، ولعل ذكر غيره سبحانه طغى ، وأصبح كثير من المسلمين ، على سنة أسلافهم النصارى ، يؤفون مع الله غيره وهم لا يشعرون . وإذا ووجهوا بهذه الحقيقة ، لفؤوا وداروا ، وتذرَّعوا بالذرائع التي ما أنزل الله بها في قرآنه نصاً ولا سلطاناً ، وتدفعوا محتجون بروايات مزورة يحسبونها قرآناً مبيناً .

أما الآية التي هي بمثابة عنوان لهذه الواقعة ، يستقطب جميع تفاصيلها ، ويغمرها غمراً بالنور الناصر لأولياء الله من جهة ، والخاذل المخزي لأعداء الله وأعداء أنصار الله من جهة ثانية ، فهي قوله تبارك وتعالى :

{ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ

الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا } . [ 25 : الأحزاب ] .

قوله تعالى : { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ } : قبل أن نشرح المفردات والعبارات والمضمون العام ، ننبه إلى أن الآية كمعظم آيات القرآن الكريم ليست حكراً على الواقعة التي نزلت بها ، أي وقعة الأحزاب ، كما سميت في القرآن المجيد ، وإنما هي ، تعليم وإعلام وإقرار حقيقة ثابتة ودائمة ، وهي سنة من سنن الله تعالى ، إضافة إلى الإطلاق الذي في قوله سبحانه { وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا } . وعلى هذا ، فإن قوله تعالى : { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } والردُّ الصدُّ والردع والإرجاع بعض معانيها ، وكل هذه المعاني هنا في الآية ، والله سبحانه ، هو وحده الذي فعل ، ما ساعده مساعد ، ولا أغنى عنه أحد ، وإذا كانت هناك أسباب إيجابية ، كضربة خارقة من النبي ( ص ) أو من غيره ، أو موقف بطولي تاريخي ، فردي كأن يكون عجباً من الأعاجيب ، أو جماعي يبدو فيه التعاون والفداء والأريحية ، والصدق والإيثار إلى آخر ما هنالك من المناقب ، فإن ذلك جميعه

بالنتيجة ، هو عطاءات من الله عز وجل ، الرقيب الحسيب ، والسميع الجيب . فتلك الإيجابيات الفذة ، والمواقف الخارقة ، ما هي إلا أسباب ، والله سبحانه هو

خالق الأسباب ومسبب الأسباب . فالفضل جميعه هو لله سبحانه . فإذا أتى منه أحداً ، فبنعمة وبرحمة وتفضل منه تبارك وتعالى { ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } . [ 4 : الجمعة ] ، { قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } . [ 74 . 73 : آل عمران ] .

وكذلك تفضيل الرسل بعضهم على بعض ، وتفضيل الناس بعضهم على بعض فمن نفس المصدر المقدس الذي هو فضل الله تبارك وتعالى عما يشركون . وبموجب أسباب ودوافع ، واختيارات وتصاميم ، تتجلى في شخصية الإنسان تجلياً إيجابياً أو سلبياً ، وبينهما درجات يكون على أساسها ، حب الله وتأييده أو بغضه وعداوته ، لفردٍ أو لمجموع من العالمين .

وكما رأينا ، فقولته تعالى : { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } فيه استبعاد واستعداد وبغض وهزيمة ، لهذا النوع من البشر ، هم الذين كفروا بالله وبدينه ، ورسوله ( ص ) وبتعاليمه ، ودعوته إلى الحقيقة العليا ، وإلى الحق المبين ، إلى توحيد رب العالمين ، إلى كلمة الإخلاص ، كلمة لا إله إلا الله . وكيف ردَّهم سبحانه ؟ ردَّهم { بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا } ردَّهم بحنقهم المرير ، وحقدهم الدفين ، وغرورهم الجريح ، وكراماتهم المطعونة بالهزيمة والرجوع الدليل ، والعنفوان المخطم ، وجريرة الخيبة ، وخسارة الهيبة والرجولة والأموال ، وكل هذه الأمور والمشاعر التي تحركها وتتفاعل معها ، إذا تجمعت على قلب غير مؤمن سحقتة سحقا ، حيث لا بديل ولا استنارة بنور الله ولا أمن يدخله الله على قلبه ولا سكينته .

{ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا } لم ينالوا ما كانوا أتوا من أجل حصاده : النصر المبين ، واستئصال أنصار الله الموحدين ، الذين أفسدوا عليهم غوغائيتهم وشركهم بالله ، وجاهليتهم الجهلاء وعاداتهم البهيمية ، وقوانينهم الظالمة الجائرة . فأتوا لينتقموا ويرتاحوا أبد الدهر ، مع طمع بالغنائم من مال وسلاح وسي نساء واستعباد عبيد بعد قتل المسلمين وإبادتهم . بهذا التوجه أتوا . وهم سيظلمون يأتون هكذا ، وبنفس هذه الأطماع والأفكار ، ما داموا هم كفرة ومشركين ، وما دام في الأرض أنصار لله حقيقيون ، ومؤمنون ومسلمون . وسيستمر الله سبحانه بردهم ما تشابحت

الظروف ، وهي غالباً ما تتشابه ، إلا إذا تراجع فكر التوحيد وتحول الولاء لله سبحانه إلى ولاء أو ولاءات لغير الله ، وتحول الذكر ، ذكر الله ، إلى ذكر المخلوقين وأمجادهم وبطولاتهم ، تحت دعوى كاذبة يدّعيها الغلاة عندما يواجهون بحقيقة أنهم نسوا الله ، ونسوا ذكره ، أو زaidوا عليه سبحانه بذكر غيره ، وبالحماس الطاغي لهذا الغير ، طغياناً طمس في أعينهم آيات القرآن ، حيث أسقطوها أو كادوا ، من كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم ، واستبدلوا بها الروايات التي بدون تحقيق ولا تمحيص ، والتي غالباً ما يكون فيها الكذب على الله وعلى رسوله وعلى آل بيت رسوله سلام الله عليهم أجمعين .

{ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } . [ 25:الأحزاب ] .

في اللغة : كفى فلاناً كفاية ، أي أغناه عن سواه ، فهو كافٍ وكفَى ، وقد تزداد الباء على كافٍ وعلى فاعل كفى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } . [ 36 : الزمر ] و { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } . [ 79 و 166 : النساء ] وكفى الله فلاناً شر فلان ، أي حفظه من كيده . { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } . [ 137 : البقرة ] وكفى الله فلاناً ، أي أغناه عن غيره في جميع وجوه الحياة والحاجات . والله سبحانه هو الكافي ، والكافي من أسماء الله الحسنى .

{ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } أغناهم عن القتال ، ولم يكلفهم مؤونته ومشقته ، ووفر لهم النصر على أعدائهم كاملاً ، بأن هزمهم هزيمة منكرة وردّهم وحده سبحانه على أعقابهم مغتاضين يحملون الخيبة والحسرة والندامة .

ولماذا كفى الله المؤمنين القتال ، والقاعدة التي تكاد تكون عامة عنده سبحانه ، هي أن يبلو المؤمنين بالكافرين ، ليجاهد المؤمنون في سبيله عزّ شأنه فيأجرهم ، ويلقي الحجّة على الكافرين فيهزمهم ويخزيهم ، وليكون من المؤمنين شهداء ، والشهادة منزلة عند الله مرموقة ، وليكون من الكافرين قتلى ينالون جزاء عنادهم وعداوتهم لله خزيّاً في الدنيا والآخرة . وهو قال سبحانه :

{ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ } . [ 4 : محمد ] .

وقال عز وجل : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُدْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } . [ 15 . 14 : التوبة ] .

وما دام الأمر كذلك ، فنعود إلى السؤال الذي طرحناه ، لماذا إذن { كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } بأن هزم هو وحده سبحانه الأحزاب وردَّهم بغيظهم خائفين أذلاء ؟

والجواب أن الله سبحانه ، إنما يريد من عباده ، توحيده ، والتصديق بوعدته ووعيده ، وطاعته ، وتوطين النفس على الجهاد في سبيله ، وبذلها دون ذلك مختارة ، حباً به سبحانه وشوقاً إليه ، ولتكون كلمته في الأرض هي العليا .

فإذا وطَّن الإنسان نفسه على كل ذلك ، وعزم على طاعة الله عزيمة صادقة ونجح في الإمتحانات والبلاءات التي سيفتنه الله بها ، ليجعل الله عليه علامةً إذا صدق وعلامة إذا كذب ، أو أشرك ، أو خان ، أو شك أو تردد ، ليعرفه بإحدى هاتين العلامتين لملائكته ولبقية خلقه . وذلك قوله سبحانه { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } . [ 29 : الفتح ] . وقوله تبارك وتعالى : { إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

سَنَسِئُهُ عَلَى الْخُرطوم } . [ 15- 16 : القلم ] . أي يُعَلِّمُهُ ، أي يجعله مُعَلِّمًا ، والمُعَلِّمُ ، الذي يُعَرِّفُ بعلامة ما ، والمقصود في الآية أنه يضع له علامة على وجهه من علمه المكنون سبحانه ، والخرطوم الأنف ، والمقصود صفحة وجهه ، وكفى عن ذلك بالخرطوم ، تعبيراً بالجزء عن الكل . وقد قال تبارك وتعالى : { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } . [ 2 — 3 : العنكبوت ] . وهذه هي القراءة الصحيحة لكلمة { لِيُعَلِّمَنَّ } بضم الياء ، من أَعَلَّمَ ، وليست { لِيُعَلِّمَنَّ } كما هو المشهور في القراءة ، والتي هي من عَلِمَ . وذلك ، أن الله سبحانه ، ليس بحاجة إلى

إجراء تجارب لِيَعْلَمَ هو سبحانه ، فعلمه سابق (\*) على الوقائع والحوادث والنوايا ، وعلى ما كان وعلى ما سيكون . قال سبحانه وتعالى : { وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } . [ 10 : يس ] . وقال تبارك وتعالى : { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } . [ 49 : المائدة ] . ففي الآية الأولى { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ... } هو سبحانه ليس بحاجة إلى امتحانهم ليعلم أنه : { وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } فعلمه سابق عن حالهم ماضياً يترتب عليه مستقبل من حيث المبدأ ، لا من حيث الاستفادة من الدرجات ، علواً أو تسافلاً . وفي الآية الثانية { فَإِنْ تَوَلَّوْا... } أي إن أعرضوا ، فيها إشارة أولاً ، أنه سبحانه لم يمنعهم عن الإعراض ، ولو شاء لفعل ، لأنهم لو كانوا من أهل الزلفى لحال بينهم وبين هذا التولي أو الإعراض ، ولكن خلى بينهم وبين الإعراض لأنه يريد { أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ } ثم يقرر في آخر الآية ، ملمحاً إلى فسوقهم بقوله تبارك وتعالى : { وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } وهو تقرير لواقع قائم لدى كثير من الناس ، يعلم الله فسوقهم ، أي خروجهم من الدين ، وهو تعالى ليس بحاجة كذلك لإجراء امتحانات جديدة لهم لكي يحيط بهذا الذي هم عليه . ونماذج هاتين الآيتين ، من البشر ، رغم علم الله بأن إنذارهم لن يغير من كفرهم ولا من فسوقهم ، فهم من مصاديق قوله سبحانه { أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } . لأن هؤلاء وهؤلاء طالما تظاهروا بالإيمان ، وهم قد يزايدون على المؤمنين الحقيقيين ، ابتغاء مكسب دنيوي ، وهم كاذبون .

وقد عقد الله لهم سورة كاملة يذكر فيها أبرز صفاتهم الظاهرة والمستبطنة ، وقد أسماها سبحانه باسمهم ، وهي سورة { المنافقون }

وقبل أن نختتم كلامنا عن علم الله السابق على ما كان وعلى ما سيكون ، نذكر قوله تبارك وتعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } . [ 13 : الممتحنة ] .. فهؤلاء الذين هم في علم الله قد يبئسوا من الآخرة يأساً فيه الإبلاب والقنوط من رحمة الله سبحانه ، كذلك هم عرضة لأن يفتنهم الله تعالى في جملة من يفتن —

(\*) راجع كتاب (العقل الإسلامي\_الفصل الخامس).

من الناس ، لا يعلم سوء نواياهم وبالتالي قنوطهم وإبلاسهم من رحمته ، فهو سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، وإنما ليظهر حقيقتهم لملائكته ومن يشاء من خلقه ، مُعلِّماً إياهم بسمات تميزهم في الدارين ، وتيسر لملائكته المكرمين ولغيرهم ، كيفية معاملتهم في الدنيا والآخرة ، من حيث حفظهم ودرجته وكيفيته ، وكذلك حفظ الآخرين منهم ومن شرورهم . فضلاً عن إلقاء الحجّة عليهم ، بالصوت والصورة:

{ اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } . [ 14 : الإسراء ] .

أما الآن ، فقد بات واضحاً الجواب على السؤال : لماذا { كَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ } بأن هزم الأحزاب وأرسل عليهم عواصف وأعاصير لم يبق لها من قوتهم وهيبتهم شيء ، وجعلهم يولون الأدبار خائبين خاسئين .

هو أولاً ، امتحن المسلمين سبحانه ، ، فقد جعل للبعض { سِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ } . [ 29 : الفتح ] أي الطاعة بشكل عام ، ومنها السجود بالقلب ، ثباتاً في الأهوال وأقلها السجود بالجبين . وجعل للبعض الآخر ، مضمون قوله تعالى { سَنَسِمْهُ عَلَىٰ الْحَرْطُومِ } وهو عزّ شأنه ، فصّل القول في ذلك ، بآيات بينات ، جرت أحداثها ورموزها يوم الأحزاب ، ثم في غيره من الأيام واللقاءات الحربية . كما أنها تجري في أيامنا هذه ، ونحن محاصرون ، بأنواع الأعداء السياسيين والعسكريين ، كما أنها ستبقى في مواجهة كل مؤمن ، ما دام في الأرض أعداء لله العزيز الحكيم ولدينه الحنيف . ومن هذه الآيات التي وصف سبحانه فيها بعض أحوال المسلمين ، وهم محاصرون بالألوف المؤلفة من أهل الشرك الحاقدين وحلفائهم من اليهود الذين خانوا عهد الله سبحانه وعهد رسوله (ص) ، قوله عزّ وجل ، في سورة الأحزاب ، وقد سميت باسم هذه الواقعة الحربية ، لجليل ما فيها من علم النفس الذي لا يدركه إلا الله ولا يكشفه إلا هو سبحانه وما فيها من عظام الدروس وبلغ العبر :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ

أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا .  
 هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
 مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ  
 لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ  
 يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا  
 بِهَا إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ  
 مَسْئُورًا . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا  
 قَلِيلًا . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا  
 يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ  
 لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ  
 يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ  
 سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ  
 ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ  
 بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا . لَقَدْ كَانَ  
 لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا .  
 وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا  
 زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ  
 قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ  
 وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا . وَأَنْزَلَ  
 الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا  
 تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ  
 اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا { . [ 9 . 27 : الأحزاب ] .

فإذن لأجل القلة المؤمنة التي عانت من أهوال الحصار ، ساهرة ، عاملة ،

جائعة ، مواجهة الذبح وسبي النساء والذرية بين اللحظة واللحظة ، طيلة أكثر من

عشرين يوماً ، في مواجهة جيش لجب ، حرّ الحركة في طول الصحراء وعرضها كثير المدد ، كثير العدد ، على حقدٍ وأطماع ، وقلوب وحشية قاسية ، وضمائر سوداء متحجرة أشبه ما تكون بأصنامهم المعبودة . لأجل ذلك كله ، ولأن المسلمين ، يستحيل عليهم ، موضوعياً ، أن يواجهوا مثل هذا العدد وهذه العدة ، لذلك نصرهم الله سبحانه على عدوه وعدوهم من مشركي مكة وحلفائهم من اليهود والقبائل .

وثانياً ، ينبغي أن يفهم العقلاء ، من هذه الآية الكريمة { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ... } أبعاداً أعمق في معاني التوحيد وحاكمية الله وقدرته وهيمنته على الكون ، ومن هذا الكون هذا الإنسان . فهل يفقه هذا الإنسان ، ويعي ، أنه لا إله إلا الله ، وأنه سبحانه وحده ، نصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ولروعة الضربة القاصمة ، التي قصم بها ظهر الأحزاب ، وزلزل بها جمعهم ، وشتت بها شملهم ، بقيت صورتها وأبعادها وصداها في ذاكرة الرسول الكريم محمد (ص) ، حتى أنه يوم الفتح ، فتح مكة ، وتحقيق أعظم أمنية عند رسول الله (ص) ، ورغم ما أعطاه الله في هذا اليوم من أمجاد وذخائر تبقى على الدهر ، ورغم ما أदान له سبحانه من طواغيت ، ومكّنه من رقاب كانت عصية ، وأذلّ له جبين الجاهلية ، وأوطأه حميتّها وعصبيتها ، ومع ذلك كله لم تنسه كل هاتيك المشاهد التاريخية التي ما زالت نديّة في صفحات التاريخ ، لم تنسه يوم الأحزاب ومعجزة النصر الإلهي في يوم الأحزاب .

ولذلك عندما دخل مكة المكرمة يوم الفتح ، توجه إلى بيت الله العتيق ، وحوله كانت الأصنام التي طغت القوم ما زالت قائمة ، فكان من على ظهر ناقه ، كلما مرّ بصنم ، وكزه بقضيب كان معه ، فيقلبه أمام أعين من كانوا بالأمس القريب يركعون ويسجدون له ، ويستترزقونه ، ويستنصرونه ، وكان محمد (ص) في طوافه ذاك يردّد ما كان يطوف في ذاكرته من يوم الأحزاب ، والمسلمون يسرون خلفه ألوفاً مؤلفة ، وهو يقول : الحمد لله وحده ، نصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده فيردّد وراءه المسلمون الموحدون الأبطال : وحده وحده وحده .

فلهذا كله ، ولغيره من آلاء الله وآياته ، في أنفسنا نحن البشر ، وفي هذا الكون الرائع الجميل اللامتناهي ، ينبغي أن نشكر الله وحده ، ونحمده وحده ، ونذكره وحده ، إلا ما أذن هو بشكره ، وما أذن بغير شكر الوالدين ، وإلا ما أذن هو بذكره ، وما أذن بغير ذكر الذين دعوا ويدعون إليه ، مقرونين بعبوديتهم له ، وسجودهم لذكره . وقطعاً لكل قول ، وحسماً لكل جدال ، نلجأ إليه سبحانه ، إذ لا يجوز اللجوء إلا إليه وحده جلّت عظمته ، وقد أمن من لجأ إليه وحده سبحانه ، ولم يأمن من يلجأ إلى غيره ، ولو كان هذا الغير ، الأنبياء أو قبور الأنبياء ، والأولياء أو قبور الأولياء . وهو سبحانه قال مخاطباً رسوله محمداً (ص):

{ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً } . [ 22 : الجن ] .

أي لن أجد من دون الله ملجأ ، وكذلك جميع من خلق الله لن يجدوا ملجأ غير الله تبارك وتعالى عما يشركون : { فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } . [ 50 . 51 : الذاريات ] . إذن نلجأ إلى الله تبارك وتعالى . وبصدد الذكر ومن ينبغي أن نذكر ، نستتير بكتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ونسترشد بآياته البينات . وفي مواجهة الشرك الخفي ، سنلاحظ في الآيات معاني التفريد والتوحيد ، والتركيز على ذكر وحده عز وجل ، بأسمائه الحسنى ، وأمثاله العليا ، في جميع سور القرآن الكريم ، وفي مئات الآيات النيرات .

وكأمثلة على ذلك نذكر منها بعضها ، قوله تبارك وتعالى وله الحمد وله الشكر :

{ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً } . [ 8 : المزمل ] .

وقوله سبحانه :

{ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً } . [ 25 : الإنسان ] .

وقوله عز وجل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } . [ 41 : الأحزاب ] .

وقوله عزّ شأنه :

{ ... وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } . [ 10 :

الجمعة ] .

وقوله جلّت عظمته :

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } . [ 2 : الأنفال ] .

وقوله لا إله إلا هو :

{ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ

الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } . [ 45 : الزمر ] .

وهذه الآية مقياس لكفرة الناس وفسوقهم من جهة ، ولؤمنيهم من جهة ثانية . وطالما رأينا ، وما زلنا نرى آثار مضامينها على وجوه بعض من يستمع إلينا ونحن نذكر الله ونتلو آياته ، وندعو إلى رحمته وتوحيده . حتى أن بعض النزقين كان يعلق على ذلك ، ويدعو صراحة إلى عدم الكلام عن الله ، والإكتفاء بالكلام عن الأئمة رضي الله عنهم وأرضاهم ، مُفَنِّدًا أقواله بادعاءات ، حتى الغلاة أفلعوا عنها ، في هذا العصر ، عصر العلم والكشوف في الآفاق وفي الأنفس . هذا فريق من الناس الضيقي الصدور ، الذين ما استطاعوا بعد ، أن يفهموا ، لا التجريد ولا التوحيد .

وفريق آخر أضيق صدرًا بالكلام عن الله سبحانه ، لا حرصاً على تأليه الأنبياء والأئمة والأولياء ، وإنما حباً بالنماذج الثورية ولو كانت وثنية أو ملحدة أو عدوة لله ولدين الله . هؤلاء وهؤلاء ، تراهم بأم عينك ، إن كنت تنظر بنور الله سبحانه ، تراهم تماماً كما قال فيهم ربنا المجيد ، له العزة وله الحمد: { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِّنْ ذَلِكَُمْ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } . [ 72 : الحج ] .

ثم بخصوص ذكره سبحانه ، قوله تبارك وتعالى :

{ ... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ  
وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ ... } . [ 40 : الحج ] .

وفيها إشارة إلى أن بيوت العبادة ، إنما تبني وتشيد ، ليذكر فيها اسم الله وحده ، ويدعى فيها وحده ، ويدعى إليه فيها وحده . فما بال أهل الكتاب : التوراة والإنجيل حولوها إلى عبادة الأشخاص والتمثيل ، وكاد أهل الكتاب . القرآن ، كذلك يفعلون ، ففي كثير من جوامعهم ونواديبهم ، يشطح بالعبادة شطحات مفزعة ، إما لبعدها عن الله وذكر الله وحده من جهة ، وإما لإدخال بدع منكرة تحت عنوان العبادة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، يذكر فيها غير الله ، وكثيراً ما ترافقها حركات هستيرية ، ما عرفت في كتاب ولا حديث صحيح ، ولا سنة ، ولا يقبلها عقل ، ولا عليها إجماع حتى العامة ، التي قد تجمع أحياناً على ألوان من الشرك وتحسبها من التوحيد . أما الخاصة من أولياء الله العلماء الورعين الأتقياء ، فهم يذمون هذه البدع ، ويتهمون أصحابها بالغلو المخرج عن صراط الله المستقيم . إنما مشكلتهم معها ، أنهم يتكتمون بذلك ، ولا يجاهرون به ، إما خشية من جاهلية العوام وترمتهم وضيق آفاقهم ، وإما عملاً ليس بأقوى الإيمان وإنما بأضعفه ، وعلى كل حال هم أدري بأنفسهم وعلاقتهم مع ربهم وربنا العزيز الحكيم ، والحليم الكريم .

ثم قوله تعالى : تعريضاً بمن ينكر الدعوة إلى الله وإلى توحيدِهِ وإلى ذكره

سبحانه وإلى طاعته والإستجابة لتعاليمه وآياته :

{ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ } . [ 19 : يس ] .

وقوله عز وجل :

{ ... مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } . [ 4 : السجدة ] .

وقوله تبارك وتعالى :

{...لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} . [21: الأحزاب].

وقوله عزَّ شأنه :

{ ... وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } . [

46: الإسراء ] .

وبخصوص هذه الآية الكريمة ، عجيب أمر الكفار والمشركين ، حتى في القرآن ، وهو كتاب الله ، والكون كله كتاب الله ، وهم في هذا الكتاب يتحركون ، وعلى أرضه وفي بحاره يرتزقون ، ويسمائه يستظلون ، وفي نعمه التي أسبغها عليهم ظاهراً وباطناً يرتعون ، ومع كل ذلك ، { وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } . والأعجب من هذا كله أن بعض الناس يعتمدون على أنه سبحانه رحمان رحيم ، ولا يحذرون ولا يتقون غضبه ونقمته وصدق وعده ووعيده : { كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا . وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا } . [ 26 . 21 : الفجر ] .

وقوله له الحمد وله الشكر :

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا... } . [ 227 :

الشعراء ] .

{ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لي وَلَا تَكْفُرُون } . [ 152 : البقرة ] .

{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ... } . [ 191 : آل عمران

. [

{ ... يُرَأُّوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } . [ 142 : النساء ] .

وفي هذه إشارة إلى أنه حتى إذا ذكره الذاكر ، وإنما كان ذكره له سبحانه فقط عند مصالحه وطلباته وأمور دنياه ، ثم ينساه طويلاً ، ثم يذكره طالباً ، فلا هو شكر ، ولا هو اعتبر ، ولا دعا إليه ، ولا جاهد في سبيله ، ولا تدبر كتابه ولا حرص

على طاعته . فهذا النوع من الذكر الذي ليس فيه تقوى ولا إنابة ، ولا توقيف لعزّة الله ، هو ذكر غير مقبول عند الله سبحانه ، لأنه فيه دجل ومراءاة ، وكلتاهما من الصفات الذميمة والقبیحة .

ونمط آخر من الناس ، هم أدهى ، واشد عمى وأكثر صمماً ، هم الذين قال فيهم سبحانه :

{ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ } . [ 13 : الصفات ] .

وقال عزّ وجلّ آمراً ، مسدداً ومرشداً رسوله (ص) وكلّ عبد من عباده الأبرار الصالحين :

{ ... وَادُّكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } . [ 41 : آل عمران ] .

{ وَادُّكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ... } . [ 205 : الأعراف ] .

هنا خصص سبحانه حالة من الذكر وكيفيته . فمعلوم ، عادة ، أن الذكر إنما يكون باللسان وبالصوت إما جهراً وإما خفوتاً وإما سببلاً بين ذلك . ويكون بين قراءة القرآن وفيه أشرف الذكر ، المثاني ، يليها كل آية فيها تنويه بأسماء الله وأفعاله ، ونعمه وكرمه ورحمته وأفضاله ... يليها جميع ما في القرآن بين دفتيه من سور وآيات هاديات مضيئات شافيات .

ومنها آيات الدعاء التي يسمعا سبحانه بدون وسيط ، لأنها كلامه ، وكلامه فوق كلام المخلوقين بدون قياس . ثم بعد القرآن ما كان مأخوذاً من القرآن ومرتباً ترتيباً خاصاً ، مثل التهليل والتكبير والبسملة والحمدلة والحوقلة وبقية أنواع الذكر والتسبيح . وقد يكون هذا الذكر كما باللسان كذلك ببقية الجوارح : البصر والسمع والشم وتحسس الأشياء ، وكل جارحة عند المؤمنين الأصفياء يكون لها ردُّ فعل ، هو من الذكر ، ذكر الله ، إما إعجاباً بصنيعه سبحانه وإما إكباراً لآياته في تحركات الكون وسكناته ، وإما تنزيهاً لهذه الجوارح عما لا يرضي الله سبحانه ، وعما لا يليق بالأبرار الأطهار ، وكل ذلك من الذكر الظاهر ، أو القريب من الظاهر . أما مضمون الآية الكريمة فهو غير ذلك ، هو ندب لشأن آخر من ذكر الله : { وَادُّكُرْ

رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً { . وقوله تعالى : { وَادْكُرْ رَبَّكَ } ، فيها تخنن ورحمة ، وإشعار برعايته سبحانه وعنايته الخاصة بمن يخاطبه ، فهي غير قوله اذكر الله ، فالأولى ، فيها إشعار بالقرب ، وهذه الآية يتوقف عندها الأتقياء ويتأملون فيها مستجيبين طائعين ، كل على قدر دعائه ومقدار وصوله وتحصيله ، والله في خلقه شؤون وقوله تعالى : { فِي نَفْسِكَ } يعني ليس بلسانك ، هي دعوة للتفكير بآلاء الله وآثار عظمته ، والتأمل فيما خلق من أرضٍ وسماوات ، وأعاجيب وعبر ، في ذات هذا الإنسان ، وفيما يجري له ، في داخله ، من أسرار وأحاسيس ، وعطاءات ، بعضها يحكى ، وبعضها إذا كان من أصحاب الكرامات ، لا يحكى . وكل تفكر وتأمل في آثار صنع الله تبارك وتعالى ، يترتب عليه إيمان جديد ، إيمان فوق إيمان ويقين فوق يقين ، وإعجاب وإكبار ، وإحساس عميق بصغر الإنسان ، وكل ما في السماء الدنيا وما تحتها ، مقارنة مع عظمة الله التي يستحيل على لغات الأرض توصيفها ، ولا تكفي جميع مفردات اللغات التي في القواميس مع مزيداتها ومشتقاتها للثناء عليه سبحانه ولحمده وشكره كما ينبغي لكرم وجهه ، إلا كما هو حمد نفسه وشكر نفسه .

لذلك أفضل حمده وشكره وتسبيحه ، ما كان بالنتيجة مأخوذاً من القرآن الكريم بنصومه ، وفيها المثاني ، وهي مناط أسرار ، قال تبارك وتعالى : { اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } . [ 23 : الزمر ] .

فإذن ذكر الله في النفس ، هو ذكر عقلي — قلبي ، ولكن ليس كما يتفكر المشتغل في الرياضيات ، أو المنطق ، أو الطب ، أو حتى الأدب العام غير الديني ، وكذلك بقية العلوم التي تتحرك ضمن حدود المواضيع ، ولا تتعدها ، لا نسبة ولا ربطاً بأصول خلقها وإيجادها . بل هو تفكير وتأمل يقتضي — كما ندب الله سبحانه . { تَضَرُّعاً وَخِيفَةً } والتضرُّع في اللغة ، هو التذلل والخضوع والخشوع ، والابتهاال ، وفيه معنى الرجاء الذي هو بعكس اليأس والقنوط . والخيفة ، هي هيئة من خاف ،

هي حالة الخائف . فمن نعم الله العظمى على الإنسان ، أن يذكر الله في نفسه ، تفكيراً وتأملاً بآلائه ، وأرضه وسمائه ، فبذلك يجد الحوافز ، يجد الدافع القويَّ العفويَّ للخشوع لدى ذكر الله ، والشعور بالذلة أمام عظمته ، وعزته وجبروته وجلاله . حتى لدى تفضله سبحانه ، وصفحه وعفوه ، ورحمته وتكرمه . ويتداخل التضرع — وهو كما هو بين ، حالة داخلية . بالخوف ، من أن يخطيء الإنسان ، ويحق من ؟ بحق الله الملك القدوس ، بعد أن يكون في تفكره وتأمله ، استشعر بعض معاني عظمة ربِّه ، وألوهيته ، وحاكميته المطلقة النافذة في لباب الأشياء وأسرارها وغيوبها ، ومنها هذا الإنسان ، من لحمه وعظمه ، إلى نفسه وعقله ، وما يعلم من ذلك كله وما لا يعلم . والخيفة تعبير خارجي ، عن حالة خوف داخلي ، هذه الحالة ، يعرفها جيداً من مرَّ أو مُرِّرَ في هذه الدروس والبلاءات ، وهي تتوالى ، وتتكاثر ، كلما زاد ، بفضل من الرحمان الرحيم ، فهم الإنسان ، وصفاءه ، وخبرته النسبية ، بما يجري له ، في داخله ، وفي الخارج حوله ، من تسديد وهداية ، وإصلاح ، بل وإصلاحات في النفس والجوارح وكلية البدن ، من مرض وشفاء عَجَب ، وإخلال في التوجه ، وتقويم أعجب ، وزيادة في العقل ، وزيادة في العلم ، وزيادة في القرب ، وزيادة في الحب ويسجد لدى كل نعمة من هذه النعم ، بقلبه ودماعه ، ونفسه وروحه ولحمه وعظمه ، ويشعر عميقاً ، أنه لم يؤد بعد ، الشكر لربه الحبيب كما ينبغي .

فيعطيه سبحانه وتعالى عما يشركون ، وله الحمد وله الشكر كما ينبغي لكرم وجهه ، يعطيه ما يُقرُّ به عينه ، ويُطمئنُّ به قلبه ، حتى من أساليب العبادة والذكر ، الذكر الأرقى ، والذكر الأسمى . لهذا كله ، ترى هذا النموذج من عباد الله ، إذا أتيح لك أن تراه ، كما تراه الملائكة ، كثيراً ما يغيب بفكره عن حوله ، على أثر ، مشهد ، أو حركة ، أو صوت ، أو أمور يريه الله سبحانه فيها ما لا يُري عامة الناس ، ويُسمعُه ما لا يسمعهم ، ويطلعُه على ما لم يطلعهم عليه . لذلك تجده ، أكثر ما يكون ذكر ربه الحبيب في نفسه ، متضرعاً ، خاشعاً ، خاضعاً ، خائفاً ، كثيراً ما يجمع بين كتفيه ، مقشعراً بدنه ، خافقاً قلبه ، خيفةً من أن يخطيء مع ربه العظيم ،

ذي الجلال والإكرام ، فإن أخطأ ، ولو عن غير قصد ولا عمد ، فداهية دهياء ، وتقطيب وسهوم ، ومرارة في الحلق ، وخوف في القلب والعظام ، ولا يزيل ذلك ، ولا يشفيه ، ولا يشفع به ، إلاّ الحليم الكريم ، ربّه الله ، العفو الغفور ، أرحم الراحمين ، رب العالمين .

أما وقد أشرفنا على الإطلاق من هذا الباب الذي فتحناه على وقائع حرب الأحزاب وعبرها ، ومنه أشرفنا على ختام ما اقتضانا من الحديث عن ذكر الله عزّ وجل ، فقد بقي علينا أن نشير إلى بعض الآيات التي يندب الله سبحانه فيها رسوله محمّداً (ص) ، وكذلك كل مؤمن ، إلى ذكر بعض الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصدّيقين . غايته من ذلك ، أن يؤانس النبي بذكر أمثاله من الأنبياء والرسل ، وذكر ما تحملوا في سبيل الله من معاناة ومشقات وأذى من أقوامهم . ولأجل أن يتأسى رسول الله (ص) في إخلاصه العظيم لربّه ، بإخلاصهم وثباتهم على طاعة الله ودعوة الناس إليه سبحانه ، وإلى تعاليمه وحده لا شريك له . وهو قد أنزل عليه قوله سبحانه : { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... } . [ 35 : الأحقاف ] . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لتعليم الناس أن مهمة الأنبياء والرسل والأئمة والأولياء هي تبليغ الناس أوامر الله وتعاليمه . فإذا بلغوا ما عليهم انتهت مهمتهم . وبقي على الناس أن يقتدوا بهم في دعوتهم إلى الله ، يعني أن يدعواهم إلى الله ، يعني أن يدعو كل إنسان إلى الله عزّ وجل ، وإلى عبادته والعمل بتعاليمه ، والتفاني في خدمة دينه وشريعته ، مترسماً خطى هؤلاء الأخيار الأبرار في إخلاصهم لربهم رب العالمين ، وسلوكهم وسنتهم التي تفضل الله ربهم بها عليهم . وبذلك يستطيع من يستن بسنتهم ويسلك سلوكهم أن يكون مرضياً عند ربه العظيم ، ومن المقربين وأهل الزلفى لديه سبحانه ، { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ } . [ 55 : القمر ] . ولذلك نبّه رسوله محمّداً ، كما نبّه كل مؤمن إلى ذكر مهمة هؤلاء الصدّيقين المخلصين ، والتأسي بهم ، وما الهداية إلّا من عند الله ، وما التوفيق إلّا به . وفي مجال التنبيه إلى ذكر مهماتهم وولائهم لله وحده ، نذكر بعض الآيات التي وعدنا بها آنفاً ، كنماذج عن هذا المطلب ، الذي تشير إليه كذلك آيات آخر ، تسمي بعض

من نبّه سبحانه إلى تذكّرهم وتذكّر مواقفهم.

## القديسة الكبرى . والنخلة سرّ

قال تبارك وتعالى :

{ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا } . [ 16 :

مريم ] .

أي واذكر يا محمد ، في القرآن ، مريم عندما اعتزلت أهلها والناس في ناحية شرقية . اذكر هذا لنفسك وللعالمين . وفي ذكرى مريم أكثر من معجزة خارقة تدل على قدرة الله ووحدانيته ، وأن الأمور في ناسها وأرضها وسمائها بيده وحده . هو مسبب الأسباب ، وهو مختصر الأسباب ، وهو مفردا بسبب واحد هو { كُنْ } أو هو إرادته سبحانه : خلق البشر من تراب وأمضى عليه زمناً ثم قال له { كُنْ } فكان إنساناً سوياً في أحسن تكوين . ثم نفخ فيه من روحه ، فعقل ، ثم شاء أن يتناسل الأبناء من آباء وأمهات فكان ذلك ، ثم خرّقاً لعرف طال وعادة امتدت ، شاء أن يهزّ العالم والتاريخ بكلمة { كُنْ } جديدة ، ليفيق العالم والتاريخ ، من غفوة لا تنبغي لهما ، فأولد مريم بكرامة ، وربّاه بمعجزة ، وصفاها وطهرها ، وطهرها وصفاها ثم اصطفّاها على نساء العالمين ،

وأرسل إليها جبرائيل في سرب من الملائكة ، فتمثل لها بشراً سوياً ، استعادت بالله منه لأول وهلة ثم أدخل الله السكينة على قلبها بأمره الذي هو واحدة كلمح بالبصر ، وبلا وسائط ، وبنفخة نورانية من روح الله الملاك النوراني الأمين ، في فتحة من ثوبها ، وهي المختشمة بسابغ الثياب . كانت لها الهبة التاريخية من رحمة الله سبحانه ومن معجزاته وخوارقه ، غلاماً زكياً . وتترادف معجزات الله ، هو الإله ، ومن غيره إله ؟ أيها الخلق ، أيها الناس ، هو الله القادر وحده ، هو على كل شيء قدير . فمن غيره من خلقه على كل شيء قدير . وتلد مريم ، في حفظ الله ورعايته ورأفته ورحمته ، وتخاف خوفاً شديداً ، فيطمئنّها هذه المرة سبحانه ،

بلسان وليدها العتيد ، فور ولادته ، يتكلم ، ثم يتكلم عندما تواجهه به الناس للتوّ ، يتكلم ويتحداهم ويتحدى العالمين ، مثبتاً شرف أمه : العذراء مريم عليها السلام ، يصمت عقوداً من السنين ، ليظهر باسم المسيح عيسى ابن مريم ، رسولاً نبياً من أولي العزم وأعظم الرسل والأنبياء : { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ } يا رسول الله يا محمد ، اذكرها للعالمين ، يعني اذكر صنيع الله بها وبابنها وبالناس ، وبالكون ، ولا تنسوا حاكميته الدائمة ليل نهار ، ولا تنسوا أنه الحي القيوم ، القادر القاهر ، السميع البصير ، وأنه بكل شيء محيط ، وأنه على كل شيء قدير .

فإذن هذه هي الغاية من قول الله عزّ وجل : { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ } ثم قوله تبارك وتعالى في نفس السورة والسياق :

{ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } . [ 41 : مريم ] .

أي واذكر في القرآن خبر إبراهيم وفضل الله عليه ، لما تقدّم له من الهداية والإخلاص .

وقبل أن نتحدث عن صدق إبراهيم عليه السلام وفضل الله تعالى عليه ، نلاحظ أن الله سبحانه ، لم يعظّم أحداً من خلقه من الجن والإنس والملائكة ولم يطلب من العباد تعظيم أحد ، ولو كان رسولاً أو نبياً .

بلى ، نسب العظمة إلى نفسه تبارك وتعالى : { ... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } . [ 255 : البقرة ] . وفي آية ثانية : { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } . [ 4 : الشورى ] . وجعل من العبادة تقوى القلوب ، تعظيم شعائره ، وحرماته : { ..وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ .. } { .. وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ .. } . ووصف سبحانه بالعظمة قرآنه وعرشه ، وبعض المعاني المصيرية وما شابه ذلك ، قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } . [ 87 : الحجر ] . وقوله سبحانه : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } . [ 26 : النمل ] . وقوله تعالى : { .. إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } { .. وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } { .. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } إلى عشرات

الآيات التي فيها كلمة ( عظيم ) معرفة ومنكرة وكذلك مشتقاتها . وقد خصص سبحانه ، رسوله محمداً (ص) بوصف خلقه بأنه عظيم قوله تبارك وتعالى : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } . [ 4 : القلم ] ، ولكن في الحقيقة ، أن الله سبحانه هو الذي أعانه وسدده وثبته على الإخلاص والصدق في المواقف والابتلاءات والمصاعب ، ففي واحدة منها مثلاً ، قال تبارك وتعالى مخاطباً نبيه (ص) : { وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً } . [ 74 : الإسراء ] . وهو تبارك وتعالى ما إن أعانه وسدده ، ورقاه إلى أعلى درجات الخلق الإنسان ، ومحمد (ص) يزداد صدقاً ، وصبراً ، وحماساً ، للدعوة إلى ربه العظيم ، ودينه الحنيف ، وما إن هنأه بهذه الصفة التي هي قمة الكمال في الأخلاق الإنسانية ، حتى أردف سبحانه يكشف عن كمال الحقيقة ، في أن الفضل في ذلك هو فضل الله ، أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً . فقال سبحانه : { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } . [ 113 : النساء ] .

ونعود إلى قول الله سبحانه لرسوله محمد : { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ... } فكذلك المطلوب ، هو إظهار فضل الله ، وهيمنته وحاكميته ، وإحاطته بالأمور . فكما صدق إبراهيم صدق محمد ، وكما صدق محمد صدق إبراهيم عليهما السلام ، إنما الموفق والمسدد ، والمثبت والناصر ، هو الله وحده لا شريك له ، فهما ليسا شيئاً بدون الله عز شأنه وجل جلاله ، وكذلك الكون كله بمن وما فيه . أفليس من العمى المخزي ، أن يقف كثير من الناس ، عند إبراهيم أو موسى ، أو عيسى ابن مريم ، أو محمد ، أو أئمة الحق ، أو أولياء الله الصالحين ، صلوات الله عليهم جميعاً ، يقف كثير من الناس عندهم يمجّدونهم ويعظمونهم في المواقف والمواسم ، وفي الأفكار والقلوب والمعتقدات، وينسون أنهم لا شيء بدون الله جلّت عظمته ، وينسون أن الله هو الغاية ، منه البداية ، وإليه النهاية ، وها محمد (ص) يختصر مهمة الجميع ، أنبياء ورسول وأئمة حق وأولياء ، بالاستجابة لأمر ربه الحبيب ، إذ أمره ، بعد أن أخبره من أعماق غيب المستقبل ، خبر تخاصم أهل النار : { قُلْ إِنَّمَا

أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا  
الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ . قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ  
الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ { . [ 65 - 70 : ص ]

صحيح أن الكلام يطيب عن محمد (ص) وخلقه العظيم الذي أتخفه الله به ،  
وكان معه نعم المتفاعل ونعم العامل ، عزماً وحزماً ، وولاءً وحباً ، وقيادة فذة ورحمة  
للعالمين ، كما يطيب الكلام عن كل نبي في طاعته وحبه لربه وربنا المجيد ، إلا أننا  
نبقى الآن قليلاً ، مع أبينا إبراهيم عليه السلام . بين يدي الآية الكريمة ، قول الله  
عز وجل : { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ... } ولكم يطيب الكلام عن إبراهيم  
خليل الله ، عن حبه لربه ، وتفانيه في طاعته ، ونجاحه في الإمتحانات التاريخية  
الصعبة التي امتحنه بها سبحانه ، حتى جعل منه ذلك الجواهر الفذ المتألق ، منارةً  
للناس وإماماً للبشرية . قال تبارك وتعالى : { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ  
قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } .  
[ 124 : البقرة ] . في هذه الآية الكريمة ، إختصر سبحانه جميع ما ابتلى به عبده  
ونبيه إبراهيم من إبتلاءات تاريخية بقوله : { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ } ثم  
أخبر تبارك وتعالى أن إبراهيم نجح فيها جميعاً ، ولذلك جعله للناس إماماً . أما  
الظالمون فلن ينالوا هذا العهد من الله عز وجل بإمامة الناس ، ولو كانوا من ذرية  
إبراهيم عليه السلام . إنما ينالها الموحدون الصادقون المجاهدون الذين لا يخافون في  
الله لومة لائم .

أما بخصوص امتحانات إبراهيم التي أفلح فيها ونجح ، وكذلك جملة مواقفه  
وحكاياه ، فمعروفة عند الخاصة والعامة . والعرف والعادة ، فيما يكتب عن إبراهيم  
وغيره من الأنبياء والأئمة ، أن يركّز على أعمالهم ومواقفهم كرجال عظام، مظهراً  
الكاتب أو المتكلم عظمة إبراهيم مثلاً ، ما دام الكلام عنه عليه السلام كشخصية  
مستقلة : فعل إبراهيم وكان إبراهيم ... بينما العظمة أولاً وآخراً هي لله عز وجل ،  
الذي بين يدي طاعته ، آمن إبراهيم وصدق ، فزاده الله طاقةً وصفاءً وقوةً ، ثم أيقن

إبراهيم وازداد صدقاً ، فزاده الله مفيضاً عليه من نعمه وكرمه ... وهكذا في تربيته سبحانه لأي عبد من عباده ، يبتليه بقدر تحمله فإذا صدق ونجح ، زاده من فضله ، وغالباً ما يعطي على صدق النية ، فكيف إذا قرن العمل بالنية صدقاً وجهاداً وتضحيات ، فعند ذلك تكون العطاءات من الله عزَّ شأنه موسومة بسعة رحمته وعظيم جوده وكرمه ، وفوق ذلك كله رضاه وحبه ورضوانه ، { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } . [ 19 : الأحقاف ] سواء ذلك في الدنيا وفي الآخرة .

## إبراهيم وهاجر وإسماعيل على قمة من قمم التاريخ

ونكتفي هنا بذكر واقعة من الإبتلاءات التي جرت لإبراهيم ، أعني التي مهَّد الله بها سبحانه ، لنبوة محمد ( ص ) وإرساله رحمة للعالمين . والتي هي في قوله عزَّ وجل على لسان خليله إبراهيم : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ

مَنْ التَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } . [ 37 . 39 : إبراهيم ] .

وموجز الحكاية ، أن الله تبارك وتعالى ، أمر نبيه إبراهيم ، بعد أن رزقه الولد من زوجه الثانية هاجر ، أن ينتقل بهما ، هاجر وإسماعيل ، وكان ما زال طفلاً رضيعاً ، من الشام إلى الحجاز .

وبديهي هنا ، أن تقطع هذه الأسرة الصغيرة ، مسافات واسعة شاسعة ، وتجتاز الوديان والصحارى والقفار الموحشة ، ولا بد أن لهما من ركوب جملين ، واحداً لإبراهيم ، والآخر يحمل هودجاً فيه هاجر ووليدها الحبيب على قلب أبويه، إسماعيل .

وتمضي الأيام والليالي ، على هذا الطريق الشاق الطويل ، الذي لا يخلو من خطر الوحوش المفترسة ، منها الضباع والذئاب الجائعة ، ومنها أسود الصحارى العربية الشهيرة . كما لا تخلو من قطاع الطرق الذين كانوا في جاهلية تلك الأيام ، من الكثرة في أغلب الأماكن على امتداد طريق القوافل .

وهنا أريد أن أتوقف قليلاً عند ظاهر الأمور ، لأعبر من هذا الظاهر إلى لب الحقيقة . أما الظاهر فهو صدق إبراهيم ، وعزمه الذي لا يلين ، وهمته التي لا تخبو ، ما دام الأمر في سفره هذا هو تلبية لأمر الله عز وجل ، وما يقال عن إبراهيم في هذا المجال ، يقال كذلك عن هاجر ، تلك الزوجة المثالية النادرة المثل في تاريخ الناس ، والتي لم يجعلها مثالية ورائعة وفريدة من نوعها في تاريخ البشرية ، إلا أمر واحد ، هو يقينها بالله جلّت عظمته ، ومن تفرعات هذا اليقين ، ولاؤها وطاعتها له سبحانه ، عبر ولائها لزوجها إبراهيم وطاعتها له ، عليه وعليها سلام الله .

هذا هو ظاهر الأمر ، وسوف نرى في بقية الظواهر ، بعد بلوغ الهدف الذي هو مكة ، آيات باهرات من الصدق ، والصبر بالله ، والثبات على طاعة الله ، والتفاني في سبيل الله ، من خليل الله إبراهيم ، وزوجته ، التي ظل يصفو جوهرها الإنساني ويصفو ، حتى صار جوهرًا فذاً وعبقرياً . ومثلهما تماماً ، أصبح إسماعيل

عليه السلام ، بعد أن نما وبلغ السعي ، وقدم نفسه طائعاً ، للذبح ، بيد أبيه الحبيب وسكينه المرهفة الشفرة . لولا أن تجلى أكثر فأكثر ، فضل الله ، ونعمة الله ، ورحمة الله ، وآلاء الله التي لا تحصى على عباده هؤلاء ، لأنهم من المطيعين ، كل الطاعة ، ولأنهم من الموقنين كل اليقين ، ولأنهم من أولياء الله الصالحين ، فرغ عنه وعن أمه وأبيه ، قدر الذبح هذا ، ووطأته فيما لو تم ، على الأبوين ، وفداه بكبشٍ عظيم . من هنا وهناك ، ومن كل حدب وصوب ، بواطن الأمور وحقائقها الأصلية . وهي أن الله وحده هو المجير . هو الصاحب في السفر ، وهو الدافع لكل خطر ، ولأهوال الطريق ومشتقاتها . وهو سبحانه المعافي في الأنفس ، وهو عزت عظمته ، الباعث الهمة ، والمقوي العزيمة ، تحت عنوان الحديث القدسي : " إذا تقرب عبدي مني شبراً تقربت منه باعاً ، وإذا أتاني مشياً أتيت به رولة " ، وأنه قائم على كل نفس ، وأنه على كل شيء وكيل .

فالفضل كله إذن هو فضل الله سبحانه وتعالى ، مرتباً الجزاء على النية

والعمل ، { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } . وسنرى إن شاء الله الكثير من مصاديق هذه الآية ، في هذه الأسيرة الموالية لله وحده سبحانه ، ولأنه يصل إلى بذل المهج والأنفس والمتعلقات كلها ، طاعة لله عزَّ وعلا ، وجهاداً في سبيل مرضاته .

ويبدو أنه ، لا إبراهيم ولا هاجر كانا يعلمان شيئاً عن تفاصيل الخطة ، التي اختطها الله سبحانه ، لهما ولولدهما إسماعيل عليهم السلام ، هؤلاء الذين سيكون من نسلهم العرب عامة ، وخاصة خاتم النبيين وأعزَّ المرسلين محمد (ص) ، الذي أرسله ، فيما بعد ، رحمة للعالمين . فهما لا يعرفان المكان ولا طبيعة الأرض ولا المناخ ، ولا أي شيء آخر مما هو مطلوب منهما ، اللهم إلا تنفيذ مضمون أمر الله سبحانه ، وهو الذهاب إلى الحجاز .

وآخر توجيه له عليه السلام ، من توجيهات الطريق ، هو أمره بالنزول في ذلك الوادي القريب من مكان البيت العتيق ، الذي أصبح محجة للناس فيما بعد

، والذي هو بين جبال كالأغربة السود ، تحيط به من جانب .  
وبعد النزول في هذا الوادي ، المجدب المقفر ، الذي لا حسييس فيه ولا أنيس  
، جاء الأمر لإبراهيم ، أن ضع أسرتك في نفس هذا المكان وارجع أنت وحدك من  
حيث أتيت .

لا شك أنها مفاجأة لكليهما ، ورغم أنهما قد تمرسا بأنواع الرياضات النفسية  
والبدنية والإبتلاءات ، إلا أن هذا الأمر ، وفي الظروف الخيطة ، شكّل عليهما لأول  
وهلة ، نوعاً من الصدمة ، بدت آثارها بوجوم شملهما برهة من الزمن ، كان فيه  
إبراهيم يردد فيه طرفه بين طفله الوحيد وأمه من جهة وبين المكان المقفر الموحش  
من جهة ثانية وبين الزاد الذي كان استنفد كله في الطريق ، إلا ثميرات بقيت في قاع  
جراب ، من جهة ثالثة ، ثم انتبه إلى الأهم من ذلك كله : الماء ... فإذا السقاء  
الذي معهم لم يعد فيه قطرة . وكنتم الأمر عن هاجر ، متوكلاً على الله .

أهكذا ، والآن ، ومع هذه المعطيات ، أتى أمر الله سبحانه بالرجوع وترك  
هذه المرأة الضعيفة وابنها الرضيع وحدهما ، وبلا معين ؟  
بلا معين ؟ ، لا ! ما هكذا يفكر إبراهيم .

إبراهيم يعلم تماماً أن المعين ، حاضر ناظر ، سميع بصير ، نعم المعين هو ،  
ونعم الكفيل ونعم الضامن والوكيل .

- اللهم ليبيك - وخشية من أن يسجل عليه شيء من التردد ، في تلبية أمر الله  
سبحانه ، أو حتى من العاطفة الكبيرة على الزوج الحبيبة والطفل الجميل إسماعيل ،  
الذي التمعت عيناه البريتتان الصافيتان ، كأنما تقولان : في أمان الله يا أبتاه ،  
فحسبنا الله ونعم الوكيل ، هو ربنا وهو يرعانا . إنفتل إبراهيم إلى جملة ، بعد أن  
كانت له فقط فرصة أن يتناول علفه . فركبه وولى وجهه إلى بلاد الشام وقفل راجعاً  
، بعد أن أبلغها وبكلمات قليلة ، قراره القاضي ببقائها ووليدهما ، ورجوعه هو إلى  
بلاد الشام .

وهنا ، وقد كانت هاجر عليها السلام ، قد استجمعت قواها وأفكارها بعد

الصدمة ، ورأت الحقيقة ماثلة أمامها ، فلا هي في نوم ولا في حلم . وانتهت إلى أهم شيء في عمرها ووجودها ، ولا سيما في هذه الظروف غير العادية هذا الشيء ، هي أن تعلم ، إذا كان هذا الأمر هو من الزوج إبراهيم ، فيكون ذلك عجباً ، ويكون موجعاً محزنًا ، ويدور حوله ألف علامة استفهام ، أم أن هذا الأمر من الله عز وجل . في هذه اللحظات من التساؤل ، كان إبراهيم قد ابتعد ، مدى وصول الصوت تقريباً . وحزمت أمرها ، ولماذا لا تسأله : ثم أخذت تعدو خلفه، حتى اطمأنت إلى أنه يسمع صوتها ، ونادته : يا إبراهيم ... وإذ سمع توقف، وأدار وجهه نحوها . فسألته : هل هذا الأمر ببقائنا هنا وحدنا منك أم من الله ؟ فلم يجب إبراهيم بصوته ، فلعلّ دمعة كبيرة خشي أن يظهرها تجلداً ، وحياءً من ربه سبحانه وورعاً ، فبدلاً من ذرفها من عينيه ، لجلجها في حلقومه حيث احتبس صوته. فأشار بيده رافعاً إياها وسبابته نحو السماء. ففهمت هاجر، أن الأمر من الله . وكمثل البرق الخاطف تبدل موقفها وجميع مشاعرها ، من حال التشتت والخوف والتساؤل إلى التركيز ، وقالت بطمأنينة كبيرة : . لا عليك ... إذن لا يضيّعنا .

قالت ذلك تطمئن نفسها وتطمئنه ، ما أعظم هذا اليقين ، وما أجمل هذا البر ، يقينها بربها رب العالمين ، وبرها بزوجها الحبيب ، الذي ليس له من الأمر شيء ، إلا أنه يؤمر فيطيع ، وله الشرف العظيم في أن يؤمر ويطيع إذا كان الأمر هو الله سبحانه ، رب السماوات والأرض وما بينهما رب العالمين .

لا عليك ... إذن لا يضيّعنا ...

صحيح ، هكذا المرأة العميقة الإيمان ، العظيمة الخلق : أدب ومحبة مع الزوج ، وثقة به عالية ، فقط ، لأن ولاءه لله ، بلغ حداً ، أن يستجيب له سبحانه ، ويضحى بالأهل وبالولد وحتى بكل عاطفة تحجبه عن طاعة ربه وعن توليه والتفاني مجاهداً في سبيله . و " إذن لا يضيّعنا " ربنا العظيم ، ربنا الحبيب .

ومن أين لها هذا ؟ قال تعالى : { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى .. } . [76 : مريم] . وهكذا إذا وطّن الإنسان النفس على التصديق بالله وآيات الله ، رفعه سبحانه وهداه زيادة عما كان . فيوطن نفسه على اليقين ، فيزيده الله كذلك يقيناً .

وما كان من عند الله ، يبقى ، يكتب في القلب ، ويزيد لألاءً وصفاءً ، ويزيد الله على ذلك ، وهكذا ، حتى يبلغ الإنسان برعاية الله ورضاه وتوفيقه وحبه ، درجة الكمال الإنساني ، وهي ليست أبداً مستحيلة . وها نحن بصدد اثنين بلغاها ، رجل وامرأة . فقط لأنهما أقبلتا على الله إقبالاً تركتا معه الدنيا وما فيها من مغريات المال والزينة والجاه والشهوات ، وجعلتا أمامهما الله وحده ، موحدتين غير مشركين . ذاك حين آنا الليل وآنا النهار ، يملأهما الرضا بما قسم سبحانه ويقسم ، ويملاً قلوبهما الحب له وحده . الحب الأعظم الذي لا يجوز ولا يليق أن يشاركه فيه أحد .

ونبقى مع هاجر وطفلها الرضيع عليهما السلام ، بعد أن أفردا إبراهيم في ذلك الوادي الأغبر المتجهم ، تنقل طرفها بين الممسك بشغاف قلبها ، الطفل إسماعيل ، الواجم الهاديء على باب تلك الخيمة الصغيرة ، التي أقامها أبوه قبل سفره ، وبين رمال جافة ، بعد عهدا بالخضرة والنضرة والظل الظليل ، حتى ولا طير يمر ولو من بعيد ، ولو مرّ الكرام . ثم تنظر إلى السماء ، متتهدة . ثم تتعجب من نفسها ... من تلك الطمأنينة العجيبة ، والسكينة التي تمتلكها ثم تتمتم : لا ... لا عليك يا إبراهيم . الله الذي أمر بتركنا هنا ، هو أعلم وهو السميع البصير ، يرانا ، ويحبنا ونحبه ، ولن يضيّعنا ... إذن لن يضيّعنا .

كانت الشمس قد مالت عن خط الظهرية . وكان الجهد قد أخذ من أم إسماعيل مأخذاً ، جهد السفر وجهد الصدمة بسبب أفرادها وطفلها في ذاك المكان الموحش البعيد . فتلقّعت بخمارها واحتضنت رضيعها إسماعيل ، واستغرقت في نوم عميق ، ما درت مداه ، هل نامت بضع دقائق ، أم هي استيقظت بعد نوم ليلة وضحاها ، وكذلك شيئاً من ميلان الشمس . إذ أنها وجدت الشمس ما زالت مكانها ، وشغلها عن التفكير بذلك ، الذي أيقظها ، إسماعيل ، وهو يبكي . لقد جاع وهذا وقت رضاعه ... يا رباه ! ليس في صدري لبن ، لعل ذلك بسبب جوعي وعطشي وتعبي ! ... إذن أسقيه ماءً - استغفر الله ، نسيت أننا كذلك بلا ماء . أين السقاء ؟ سبحانك اللهم ، ليس فيه ولا قطرة . يا رباه إذن ما العمل ؟

ويشتد بكاء الطفل : - يا إلهي ... أنا أتحمّل ... أما الطفل فقد يموت عطشا . فلا لبن في صدري ... ولا ماء في السماء ... يا إلهي ...

وتنظر إلى السماء نظرة ، ثم إلى الأفق ، فتعترض بصرها أكمة ... فتعدو إليها ترتقيها ، ثم تشرف من هناك على الأرض ، لعلها تجد ماءً ، لعلها تجد بارقة تدل ولو على بعض الندى .

لا شيء ... لا شيء البتة ... أصبحت بعيدة عن طفلها ... يحيل إليها أن وحشاً قد يسمع بكاءه ، فيأتي ويفترسه ... فتتحدّر عن تلك الأكمة الصخرية الصوانية ، التي أصبحت منذ ذلك اليوم من شعائر الله عزّ وجل ، وأصبحت من معالم الحج المشهورة ، وهي { الصفا } . تنحدر عنها السيدة هاجر ، ملهوفة مسرعة نحو وليدها ، لتجده بخير :

الحمد لله .

وإنما هو ما زال يبكي ، وقد جفت شفثاه القرمزيتان ، وأصبح فمه كبرعم ورد ذابل . فاعتصرت شفقتها عليه قلبها . ثم نظرت . فإذا أكمة ثانية ، هي { المروة } ، التي أصبحت كذلك من شعائر الله المعظمة عند أتقياء القلوب . توقف بصرها عندها . فطارت إليها . ومن فوقها كذلك ، أشرفت على ما حولها من الأرض . فلم تجد شيئاً ولا بصيص أمل . ثم يخالجه خوف الأمومة على الطفل الرضيع . ولا سيما وهي تحسبه يحتضر :

لعله أصبح في الرmq الأخير .

ثم تنظر إلى جميع الجهات . فلا تجد غير هاتين الصخرتين العاليتين ، مكاناً تشرف منه على ما حولها من الأرض . فأخذت تسعى بينهما ، سعياً هادئاً حيناً ، تحدّق من خلاله في الآفاق ، تريد المخرج . { ... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَمَا أعظم تقواها ! وأي مخرج ؟! لا شيء البتة في الأفق . ثم تهرول أحياناً ، من خشية على الرضيع ، وهكذا أشواطاً سبعة . كان آخرها رجوعاً إلى { الصفا } ، حيث أنها الأقرب إلى إسماعيل . ثم تماكنت نازلة من أعلى الأكمة ، وقد كاد يملكها الخوف من أن يبتليها سبحانه بهلاك وحيدها إسماعيل . وتوجهت إليه لاهثة ، والغصة في

حلقتها ، والدموع في عينيها ، وقد تبيّست شفثاها ظمأً ونصباً :

أما من بشر في هذه النواحي يرشدني إلى ماء ؟! لو راعٍ في هذه الصحراء .  
لو قافلة تمر بنا فتسقيننا . عفواً يا رباه . ذلك بيدك . لم أنس أنك أنت السميع  
البصير ، وأنت على كل شيء قدير . بلى ، هو بلاؤك ، فما هي النهاية ؟ فلتكن  
النهاية ما تكون . ولن تكون إلاً خيراً ، ما دمت بك صابرة ، وبحكمك راضية ، وفي  
سبيلك أبذل حياتي ، وعمري ، ونفسي وولدي . وأعلم علم اليقين ، أن  
العاقبة للمتقين . وأنت أرحم الراحمين .

وإذ اقتربت من الخيمة الصغيرة :

يا إلهي ! لعل إسماعيل قد مات ! ... أم أنه بُحَّ صوته ، فإني لا اسمع له  
بكاء ؟

وألقت بنفسها فوق إسماعيل ، أول ما تنظر إلى عينيه ، فإذا هما ولا أجمل .  
وفمه قد أشرق ببراءة وردة بللها الندى :

يا الله يا حصننا . يا الله يا حَبْنَا . نجا من تمسكك بحبلك . وأمن من لجأ إليك .  
لا ملجأ سواك . ولا قادر غيرك . ولا رحمان إلا أنت . من وحدك فاز . ومن أشرك  
بك هوى . يا ربنا ! هذا ماء يجري من تحت قدميه ، وهو يفحص بهما الأرض  
نشطاً جذلان فرحاً ! هل أنا في حلم ؟ ! - تفرك عينيها بكلتا يديها - لا ، لست في  
حلم . هذا الماء ، وهذا إسماعيل ، وهذه أنا التي قلت لإبراهيم ، وأنا في أعرق  
الإيمان ، وأعلى درجات اليقين برحمة رب العالمين : لا عليك يا إبراهيم ، لا عليك  
، ما دام الله اختار لنا ، إذن لا يضيّعنا . ربُّنا لا يضيّعنا . وها هو سبحانه لم يضيّعنا

بللت بمزيد من قطرات الماء ، فم إسماعيل ، وهو يغرد ويزقو ، بأحلى من  
صوت بلبل ، وأهيب من فرخ عقاب . ثم تذكرت السيدة القديسة عطشها وجفاف  
فمها . فما عبَّت عبًا . وإنما نهلت نهلاً ، دليل العفة والقناعة واليقين بالله وبنعمته  
الدائمة { .. لئن شكرتم لأزيدنكم .. } وكانت تحمد الله وتشكره ، بين النهلة والنهلة

. ودرّ لبنها كأفضل ما كان يدرّ في بلاد الشام ، على نهر من أنهارها ، بين الدلب والصفصاف :

أيها الينبوع المبارك ، ذكّرتني بعدوبة أنهار بلاد الشام ، وينابيعها ، لا ليست مياهها أكثر بركة من هذا الماء . بدلالة هذه البركة في لبن إسماعيل ، والشبع عندي . وما لي حاجة بعد بتلك التميرات التي تركها إبراهيم ، يسّر الله أمره ، وسهّل دربه ، وجزاه الله كذلك ، على طاعته وصبره وتصديقه خير الجزاء . آه ... لو أنّ إبراهيم يعلم الآن بما جرى لنا من نجاحنا كذلك في هذا الإمتحان المبارك ، الإمتحان الجميل . نعم ، جميل هذا الإمتحان الفرح بعد الشدّة . جميل ... وحقّ من الله سبحانه له الحمد . جميل ورائع . ماء فيه غذاء . إنّما ما زال المكان موحشاً يا رباه .

والتفتت إلى السماء ، ففوجئت بأسراب من الطير ، تحلّق فوقهما ، فوق المكان ، فوق الخيمة الصغيرة . احتضنت إسماعيل ، تشمّه وتعانقه :

أرأيت يا إسماعيل ؟ ! أرأيت صنيع الله الكريم بنا ؟ ! أرأيت ما أرحم ربنا وما أعظمه ؟ ! لو أنك تعلم . غداً إن شاء الله ، ستعلم وتتكلم . أنظر أي بني ، ما أجمل تحويم الطيور فوق الماء . يقيناً إن الله سبحانه هدى أسرابها إلى هذا الينبوع . يا رباه ، الماء يفيض . يكثر ، يكاد المكان يغرق : زمّي أيتها الأمواه . ربنا أقلل من إنبجاسها . الحمد لله . هكذا أحسن . ربّنا لك الحمد . هذا ينبوعنا ، هذا لنا نحن ، إشربي أيتها الطيور ، إشربي هنيئاً . إنزلي بضيافتنا على فضل الله وكرم الله ورحمة الله . إنّما ... إنّما ... يا ربّنا ، وبعد ، مع من نعيش ؟ فإنّ لنا بعد حاجات . أنبقى هكذا ؟ ... وتسمع جلبة : رغاء إبل ، وأصوات رجال :

الله أكبر ، أرسل الله الفرج ، قبل أن تميل الشمس إلى الغروب . اللهم لك الحمد ...

وتحبس دموع الشكر ، وتشدّ قامتها وعزيمتها ، فلقد رأت رائد القوم يقرب وفي صوته لهفة ، وفي عينيه عجب . لمن هذا الماء يا امرأة ؟ - هو لنا أيها البدوي . - ومن أنتم ؟ - نحن آل بيت إبراهيم ، خليل الله . - ومن أي قبيل ؟ - نحن أنصار الله وأئمة الناس ، جعلنا للعالمين قادة ، وعن المؤمنين بالله ذادة . فأحني هامته ، وردّد

كمن يسمع كلاماً عجباً : خليل الله ! خليل الله ! . ثم ثنى زمام فرسه ، وقفل راجعاً  
يخبر القوم في القافلة ، وقد بدت فيها الجمال المثقلة بأحمالها ، مع أنعام كثرت فيها  
الشياه وحملاتها .

كانت قبيلة بقضها وقضيضها ، وجهها الله سبحانه إلى هذا المكان ، بعد أن

كان نضب في نواحيها الماء ، ويبس الزرع ، وجف الضرع . وقد شاهدت من بعيد  
، وبعيد جداً عن مكة المكرمة ، أشباح الطير وأسرابه ، وهي تحلق عالياً في السماء  
. وحيث يحلق الطير ، يوجد الماء ، ذلك من علم الأثر عند البدو الرحّل .

وفوق ناقة شهباء ، كان شيخ القبيلة وزعيمها . وقد قلب الله قلبه بين العدل  
والرحمة والطمع في السكنى في هذا المكان . وهو أغلى ما تطمح إليه القبائل : الماء  
الكثير الدائم ، وحيث يكون هذا يكون الكأ والخصب وخفض العيش . وهم لا  
يرجون أحمد من ذلك ولا أرغد .

قال شيخ القبيلة بعد أن أتاه الرائد بتمام الخبر : سلهم إن كانوا يرضون  
بجوراننا ، على أن نكون لهم نعم الجار ، نقوم بخدمتهم في جميع شؤونهم ، ولهم منا  
جمال وخيام ، وقطعان غنم مع رعيانها . ونساء يقمن على خدمة السيدة الشريفة  
هذه ، والستر والصون والعافية . وعد إليّ بالخبر . فإن رضيت آتيها بنفسي شاكراً .  
وإلاً فانقدوها ثمن ما نحتاج إليه من الماء ، ثم نتابع سيرنا بحثاً عن ماءٍ مشاع . كذلك  
هي شريعة البدو وشريعة البادية .

وطبعاً ، رضيت السيدة التقية النقية ، التي كانت تجيب القوم إلى عروضهم  
بلسانها ، بينما قلبها ينبض بحمد الله ، بحمده وبشكر آلائه ومفاجآته وروعة عطاءاته  
وكرمه وإكرامه . ولا بدع فهو سبحانه ذو الجلال والإكرام . قالت وهي تغطي  
بوشاح فمها وأنفها وتحتجب ببعض ركن الخيمة وهي تحتضن إسماعيل :

أهلاً بكم يا قوم . أنتم ضيوفنا ، فانزلوا على مائنا على الرحب والسعة ،  
وهذا من أفضال الله ونعمه ، علينا وعليكم . فاشكروا الله وحده واحمدوه .

وتقدم شيخ القبيلة ، وقد سمع مقالتها ، فحيها مطرق الطرف ، بإجلال واحترام . ثم أخرج خنجراً من غمده رفيف الشفرة ، وجرح به يده

كعادتهم في هكذا مواقف . ثم أعطى العهود والمواثيق لآل بيت إبراهيم هؤلاء مقسماً بدمه الذي نزلت منه قطرات من جرحه ، ليكون لهم هو وشعبه نعم الصديق ، ونعم الأخ ونعم الجار .

وقد وفي الرجل فيما بعد ، ووفى القوم . وتلك مشيئة الله سبحانه ، فهو إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون .

وانصرف الرجل . وقامت أم إسماعيل مصلية بين يدي الله ربها الرحيم ، ثم غابت في سجدة شكر طويلة على آلاء الله ونعمه . وقد كان الليل توشح منذ غروب الشمس بنعمة غير عادية ، سمع فيها ، كمثل مرور النسائم ، خفض أجنحة الملائكة ، يسبحون بحمد ربهم ، وينشرون في تلك البقاع ، ما حملهم الله سبحانه وتعالى ، من الحبة والخيرات والبركات . وتحت هذه الأجنحة الناعمة ، احتضنت أم إسماعيل طفلها المبارك . وإذا سقطت دمعة حب لله ، على خده الصغير النبيل ، مسحتها بخدها الشريف ، بانتظار فجر يوم جديد ، ويوم سعيد ، بل أيام كثيرة جديدة وسعيدة ، وكذلك بانتظار عودة خليل الله إبراهيم ، ناما في رعاية الله وحفظه وعينه التي لا تنام ، هانئين ، وكذلك نام القوم ، بعد أن تحدثوا طويلاً ، حول نيرانهم التي نورّت المكان وأدفاته أكثر ساعات الليل . متعجبين من كبر حظهم ، إذ هداهم الله إلى هذا الماء ، وهؤلاء الأخيار الأبرار ، وهذا المكان الطيب ، الذي كان قال فيه إبراهيم خليل الله ، قبل أن يغادره ، ليعود إليه من بعد مرارا ، وهو ما حكاه عنه الله تبارك وتعالى : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } . [ 37 : إبراهيم ] .

\* \* \*

أما الخلاصة التي هدفت إليها من خلال ذلك كله ، فهي في هذا السؤال :  
هو فضل من ؟ فضل إبراهيم ، وآل بيت إبراهيم على أنفسهم وعلى الناس ؟ أم  
هو فضل الله ورحمته وكرمه عليهم وعلى الناس ؟ بل لإبراز فضله تبارك وتعالى قال  
الآية : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ... } كيف صنعناه هو وأهل بيته وكيف نبيناهم  
. ليكون الذكر الحقيقي لله جملة وتفصيلاً ، وليكون ذكر أوليائه ممراً وسبباً لذكره ،  
من حيث إظهار إخلاصهم له وحده سبحانه ، وتفانيهم في سبيله ، ليكونوا قدوة  
للعالمين . وليرسم الناس آثارهم في جهادهم في سبيل الله ، وفي تعبدهم وطاعتهم  
وذكرهم له وحده عزّ ذكره وتعالى عما يشرك المشركون . قال جلّت عظمته :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ  
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } . [ 4 : السجدة ] .

وقال عزّ شأنه :

{ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ  
مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ } . [ 16 . 11 : عبس ] .

وقال جلّ جلاله :

{ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ } . [ 152 : البقرة ] .

مفهوم الشفاعة :

قوله تبارك وتعالى :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ  
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } . [ 4 : السجدة ] .

في هذه الآية، كما هو واضح ، نفى الشفاعة عن المخلوقين ، وحصرها بذات  
الله عزّ وجل ، أو جعلها في جملة الأسباب التي يسببها لعباده ، فيكون كذلك هو

الشفيع وحده، إذ أنه هو مسبب الأسباب. ونحن قبل أن نتعرض لبحث مضمون الآية، وتحديدًا عبارة {مَا لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِهِ مِّنْ وَّلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ}، نذكّر بأننا شرحنا كلمة {وَلِيٍّ} في بحثنا " مفهوم الولاية ". وبقي علينا الآن أن نعقد بحثاً خاصاً بمفهوم الشفاعة، نذكّر بأن أكثر الناس مأخوذون بمفهوم الشفاعة، وكأنه سيكون هو الموقف الفصل، والحكم الفصل يوم الحساب. وهم يعطونه معنىً واحداً متعلقاً بالآخرة وحدها، دون الحياة الدنيا، وخصوصاً بيوم الفصل فور قيام الساعة . ومعنى ذلك أن يشفع محمد (ص) مثلاً لجميع المسلمين ، أو للعالمين ، وهذا يورده كثير من المفسرين لقوله تعالى له (ص) : {..عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} . [ 79 : الإسراء ] . ثم يشفع غيره كل لأتباعه. وتقع هنا المفارقة الكبيرة : فإذا كانت شفاعة محمد (ص) للعالمين ، فلا معنى لشفاعة غيره من الصالحين على جميع المستويات في عمر البشرية . وإذا كانت شفاعته (ص) فقط للمسلمين ، فلا معنى لشفاعة غيره من أركان وصالحى الأمة الإسلامية . ورغم هذه المفارقات ، تبقى الشفاعة كمفهوم قرآني ، حقيقة لا تناقش . وإنما ما يجب أن يناقش ، هو الفكر الطاغي ، المتمثل بالإعتماد والتوكل على الشفيع المخلوق وحده . وبذلك هم يعتمدون على غير رحمة الله وعفوه وغفرانه ، فيقعون عن غير عمد ، في شرك لا يغتفر . والإعتماد على الشفاعة يوصل بعضهم أحياناً إلى الإغراق في المعاصي ، اعتماداً على شفاعة الشفيع . كما فعل السيد رضا الهندي في قصيدته " الكوثرية " التي ينشدها ويتوارثها ألوف المؤمنين ، حيث يتخلص فيها إلى القول : " سَوَدْتُ صحيفةَ أعمالي ووكلت الأمر إلى حيدر " . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، هؤلاء ينسون إن الشفيع الأعظم والأول والآخر ، هو الله عزَّ وجل . إذ بدونه لا يسمح لشافع ولا يؤذن له ولا يرضى به ، إلا إذا سمح الله وأذن الله ورضي الله بالشافع وبالمشفوع به . فإذا لم يرضَ بالشافع ، سقط المحتاج إلى الشفاعة إلى حيث لا نجاة . وإذا لم يرضَ بالمشفوع له ، ما شفع الشافع له أصلاً ، حتى لو كان هذا الشافع إبراهيم أو موسى أو عيسى أو محمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وغيرهم من أولياء الله الصالحين والمؤمنين المقربين . ومن جهة ثالثة ، هم يفهمون الشفاعة أنها إنما تكون هي التحرير من النار لحكومين بعذاب النار ، أي إسقاط العقاب جملة وتفصيلاً . وهو كما سنرى ، إن

شاء الله ، ضيق أفق ، وجهل بالحقائق البسيطة ، واستنامة إلى الدعة وكسل الذهن والغفلة . قال سبحانه : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ } . [ 179 : الأعراف ] .

وحيث أن الله سبحانه مدد الناس بمزيد من العلوم والثقافات وأدوات الفكر ، ولا سيما الفكر الديني المسلم لله تبارك وتعالى . فلزم التوسع - تعبداً لله - في فهم وتفسير ما تبقى من مغلفات القرآن الكريم من جهة . ومن جهة أخرى تصفية مفهوم التوحيد ، على أساس كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وليس من كلام في الأرض اليوم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إلاً كلام الله عزَّت عظمته . وكلام الله آيات بينات مخطوطة في قلعة حصينة عزيزة يحفظها الله بحفظه ورعايته وعنايته إلى قيام الساعة ، هي القرآن الكريم ، وقد أسماه سبحانه { الذِّكْرُ } أي ذكر الله ، لأن أحسن ذكرٍ لله ، هو في هذا الكتاب العزيز ، وقد قال تعالى فيه : { ...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } . [ 41 — 42 : فصلت ] . وقال سبحانه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } . [ 9 : الحجر ] .

ففي معنى الشفاعة جاء في لسان العرب لابن منظور ما يلي : شَفَعَ ؛ الشَّفَعُ خلاف الوَثْر ، وهو الزوج . تقول : كان وَثْرًا فَشَفَعْتُهُ شَفْعًا . و شَفَعَ الوَثْر من العدد شَفْعًا : صيرَه زوجاً . وتقول : إنَّ فلاناً لَيَشْفَعُ لي بعداوةِ أي يضاؤني . وشفع لي يَشْفَعُ شَفَاعَةً وَتَشَفَّعَ : طَلَبَ . والشَّفِيع : الشَّافِع ، والجمع شفعاء ، واستشفع بفلان على فلان وَتَشَفَّعَ له إليه فَشَفَّعَه فيه . وقال الفارسي : استشفعه : طلب منه الشفاعة ، أي قال له كن لي شافعاً . وفي التنزيل : من يَشْفَعُ شَفَاعَةً حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها . وقرأ أبو الهيثم : من يَشْفَعُ شَفَاعَةً حسنة أي يزداد عملاً إلى عمل . وروي عن المبرد وثعلب أنهما قالوا في قوله تعالى : من ذا الذي يشفع عنده إلاً بإذنه ، قالوا الشفاعة الدعاء ههنا . وفي حديث الحدود : إذا بلغ الحدُّ السلطان فلعن الله الشافع والمشفَّع . وقد

تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم . وفي الحديث : الشُّفْعَةُ فِي كُلِّ مَا يُقْسَمُ . الشُّفْعَةُ فِي الْمَلِكِ مَعْرُوفَةٌ وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الزِّيَادَةِ لِأَنَّ الشُّفْعِيَّ يَضُمُّ الْمَبِيعَ إِلَى مَلِكِهِ فَيُشْفِعُهُ بِهِ كَأَنَّهُ كَانَ وَاحِدًا وَتَرَأَى فَصَارَ زَوْجًا شُفْعًا ... انتهى .

## الشفاعة في الدارين : الدنيا والآخرة :

قال تبارك وتعالى :

{ مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِتًا } . [ 85 : النساء ] .

والله في كلا الأمرين ، هو الرقيب والمجازي ، خيراً بخير ، أو سوءاً بسوء . ولا تكون شفاعة إلا إما بإرادته وأمره سبحانه ، وإما بإذنه ، فلا استقلال لأحد من دون الله ، ولا خروج من سلطانه تبارك وتعالى .

وفي هذه الآية الكريمة ، دلالة بينة في قوله عزَّ شأنه : { وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً } على أن الشفاعة المقصودة هنا ، هي في دار الدنيا كما في الدار الآخرة ، والمقصود فيها الكفار والمشركون والمنافقون . إذ ليس من المعقول ولا المتصور أن يشفع من المؤمنين أحد بأحد شفاعة سيئة وجميع الناس في معرض الهول والفرع الأكبر . وإن شاء الله سنعطي على الشفاعة السيئة أمثلة من الدارين .

هذا بالنسبة لعموم الناس ، أما خاصتهم من أولياء الله تعالى ، فهم أنبل وأشرف من أن يسيئوا لأحد في الدار الآخرة ، بعد إذ كانوا في دار الدنيا حريصين على عدم الإساءة حتى لأعدائهم ما داموا منهم في منجاة وعنهم في معزل .

وما دام الأمر كذلك في القسم الثاني من هذه الآية ، فالقسم الأول { مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً ... } إذن يعني كذلك ، الشفاعة في الدنيا وفي الآخرة ، لأن آيات أخر تنص على الشفاعة في كلا الدارين وتنوّه بها تنويهاً ، وتدعم هذه الآية بما لا يبقى أثراً لمرتاب .

وقوله تعالى في آخر الآية { وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا } — والمقيت الحافظ للشيء القادر عليه - يشعر بأنه من الأحسن أن يشفع الإنسان لآخر شفاعته حسنة ، فيكون له منها نصيب ، إذا كانت لمؤمن . وأن لا يشفع شفاعته سيئة فيكون له منها نصيب . ويُطْمئن المشفوع له بالشفاعة السيئة ، بأن الله عزَّ وجل يردّها على صاحبها ، لأنه سبحانه على كل شيء مقيت ، أي له حافظ ، وعلى المشفوع له وعلى الشافع وعلى كل شيء قدير . هذا إذا كان المشفوع له بريئاً ، وأما إذا كان مجرماً ، فلا تزيده الشفاعته السيئة عذاباً ولا سخطاً من الله ، لأن الله به أعلم ، وبجزائه أحقُّ وأولى .

وفي جميع حالات الشفاعته في الدنيا والآخرة ، نجد أن الله وحده سبحانه ، إما أن يكون هو الأمر عن علم ومشية وتقدير وقضاء حتم بالشفاعة والشفيع والمشفوع له ، كما شفع بـاجر عليها السلام ، قبيلة بني جرهم ، بعد أن شفع بها وبإنها ينبوع زمزم ، وتلك شفاعته خير وجزاء خير ، وهو سبحانه لا يصدر منه إلاً الخير . وإما أن يسمح ويأذن لإنسان سيء بأن يقع في سوء هو اختاره ، فلا يكون الله سبحانه هو الذي أوقعه ، وذلك ينطبق على أفراد الناس وعلى مجاميعهم . ومثال على ذلك إذنه سبحانه لإبليس وقبيله بأن يكونوا شفعاء لمن هم مثلهم من الناس سوءاً وربما أسوأ منهم ، أي من الشياطين . وذلك في قوله عزَّتْ عظمته : { وَاسْتَفْزِرْزِرْ مِنِ اسْتَطْعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } . [ 64 : الإسراء ] فمشاركتهم في الأموال والأولاد هي مشافعة ، وكذلك وعدهم من قبل الشيطان هو شفاعته سيئة كما هو واضح وبيّن . هذا مثل عن شفاعته السوء في الحياة الدنيا ، ومثله قوله تبارك وتعالى : { وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } . [ 36 : الزخرف ] أي نشفعه بشيطان . فهو له شفع وشفيع سوء .

أما الأمثلة عن الشفاعته السيئة في الدار الآخرة ، فكثيرة نجتزئ منها قوله تبارك وتعالى : { أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ } . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي

ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ { [24—28:ق] .  
 وقال عز وجل : { هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَبئسَ الْمِهَادُ .  
 هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ . هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا  
 مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ . قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئسَ  
 الْقَرَارُ . قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِذَّةً عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ . وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى  
 رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَخَذْنَاَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَآغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ } . [ 55 .  
 63 : ص ] .

وهذه الآيات هي التي تعجب منها رسول الله محمد (ص) أيما عجب ،  
 واستعظم ما حملته من حقائق ، تقشعر لها في الحقيقة أبدان الذين آمنوا ، ثم تلين  
 جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، وماذا أعظم وأحسن وأوجب من ذكر الله له الحمد  
 وعز وجل ، وتبارك وتعالى عما يشركون . أمّا تعجب رسول الله (ص) منها واستعظامه  
 لما فيها ، فهو ما أمره الله بتبليغه بقوله سبحانه : { قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ  
 مُعْرِضُونَ . مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا  
 نَذِيرٌ مُبِينٌ } . [ 67 . 70 : ص ] .

ولكي لا يظنَّ أحد ، بأن آية { مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً ... } أنها من  
 الخاص أو المقيد ، نشير إلى أنها تأتي ضمن مجموعة تعاليم في سورة النساء ليس لها  
 ارتباط قيدي بما قبلها ولا بما بعدها ، فهي تعتبر من الآيات العامة المجملة والمطلقة .  
 أما حالة الكفار بصدد الشفاعة الحسنة في الآخرة ، فاخترنا للدلالة عليها  
 الآيات التالية : قوله تبارك وتعالى : { ... فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا ... } .

[ 53 : الأعراف ] . وقوله سبحانه : { فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ } . [ 100 : الشعراء ]  
 [ وقوله عز شأنه : { ... مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ... فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } .  
 [ 48 : المدثر ] وقوله جلَّتْ عظمته : { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ ... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ  
 حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } . [ 18 : غافر ] وقوله جلَّ جلاله : { ... قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ  
 رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا ... } . [ 53 : الأعراف ] .

يبقى المؤمنون وعلاقتهم بالشفاعة في الآخرة . قال عز وجل : { لَا يَمْلِكُونَ

الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } . [ 87 : مريم ] . نستفيد من هذه الآية حقيقتين متلازمتين : الأولى أن في الآخرة — وذلك يستنتج من موقع الآية في سورة مريم - أناس يملكون الشفاعة ، وهم المستنون من الآية الكريمة بـ {إِلَّا} قوله سبحانه : { إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } . وهؤلاء الذين اتخذوا عند الرحمن عهداً أو ميثاقاً ، وكلاهما بمعنى واحد ، هم المعنيون في آية ميثاق النبيين : قوله تبارك وتعالى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } . [ 81 : آل عمران ] . وليس في القرآن عهد أو ميثاق خاص أعطي لغير هؤلاء ، بنص قرآني ، إلا آية الولاية التي تحدثنا عنها مطولاً في فصل سابق ، وهي قوله تبارك وتعالى : { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } . [ 55 : المائدة ] . أما من أراد ويريد أن يتوسع في موضوع الشفاعة ناسباً إياها لغير الأنبياء ولغير مصاديق آية الولاية هذه ، فذلك يعتمد على الأحاديث والروايات . وقد تجنبتنا نحن ذلك ، ووعدنا بتجنبه جهدنا في جميع كتاباتنا تقريباً ، إلا ما اقتضته الضرورة أحياناً . وذلك عملاً بقول الله عزَّ وجل : { ... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ . وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } . [ 8.6 : الجاثية ] .

إذن ، إنَّ الذين اتخذوا عند الرحمن عهداً هم النبيون وصالح المؤمنین ، وهذا العهد الخاص بهم ، في جملته ملك الشفاعة التي يملكها الله سبحانه ، المالك لما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه : { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ... } .

أما الحقيقة الثانية التي نستفيدها من الآية الكريمة { لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا } . [ 87 : مريم ] ، فهي أنه ما دام الأمر كذلك ، يعني أن الشفاعة في الآخرة هي حقيقة قرآنية في كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه سبحانه ملَّك الأنبياء والأولياء ما قضاه لهم منها . فيكون كل مشفَّع من الله ، مشفَّعاً بمجموعٍ من الناس يقل أو يكثر حسب المشفَّع

المعني ومجتمعه ، وحسب مستوى اختصاصه إذا كان من الأنبياء ، فهو إما أن يكون ذا اختصاص واحد ، أي نبياً فقط وإما أن يكون ذا اختصاصين : نبياً ورسولاً ، وهؤلاء وهؤلاء ، كذلك درجات لا يعيننا هنا تفصيلها .

هذا بالنسبة للمشفِّعين أو الشفعاء الذين عهد الله سبحانه إليهم بمهمة الشفاعة في الآخرة . يبقى من هم الذين أذن الله تبارك وتعالى بالشفاعة لهم ؟ والجواب أنهم ، هم عامة المؤمنين ، في كل عصر وزمان .

وحسب النصوص القرآنية ، يعتبر هذا الأمر محسوماً لا جدال فيه . إذ أن الكفار والمشركين والمنافقين ، الذين ماتوا على هذه الصفات ، لا تنالهم - كما رأينا في الآيات - شفاعة الشافعين .

فإذن ، حكماً ستكون الشفاعة لمن يحتاجها من المؤمنين ، وشرط الإنسان لكي يكون مؤمناً مقبولة له الشفاعة ، أن يكون موحداً ، غير مشرك ، إذ : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. } .

[ 48 : النساء ] . فإذا كان متخذاً آلهة غير الله ، يدعوهم ويستجير بهم ويلجأ إليهم ، قولاً وفكراً وعملاً ، فلن يقبل في عداد المؤمنين . لقوله سبحانه : مخاطباً محمداً رسوله (ص) : { قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً } . [ 22 : الجن ] . والملتحد هو الملجأ ، والآية طبعاً ملزمة لجميع المكلفين من خلقه سبحانه وتعالى عما يشركون .

أما لماذا الشفاعة للمؤمن ما دام مؤمناً ، والإيمان هو المطلوب أساساً للفوز بالجنة والنجاة من النار ؟ وقد قال عز وجل : { .. فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. } . [ 185 : آل عمران ] ؟ هذا صحيح ، إلا أن بعض المؤمنين ، يكون لهم من الذنوب ما يجعلهم ليس في الجحيم ، وإنما على حافتها فترفعهم شفاعة المشفِّع بهم إلى الدرجة الأولى التي قد تكون أقرب شبيهاً بالحياة الدنيا . ويبقى فوقهم من الدرجات ، ما يذهل الفكر ، ويتعب الأرقام الحسابية ، إذا حاول الفكر

البشري تقديرها بالأرقام . ثم إذا كان بعض المؤمنين ، تفضل عليهم سبحانه بالدرجة الأولى - حسب ماآتيهم - في الدنيا ، فيشفّع بهم من يشفّع ، ليرفعهم إلى الثانية . وإذا كانوا في الدرجة السبعين ، يشفّع بهم مثلاً من يرفعهم بكرم الله إلى عليين { وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ } . [ 19 : المطففين ] . فالشفاعة من وجه من الوجوه ، هي ترميم لنقص ، أو مغفرة لذنوب ، أو عفو عن جريمة ، كانت تقتضي حساباً عسيراً ، فسهلت الشفاعة هذا الحساب . ومن وجه آخر ، نضرب مثلاً مضامين قوله تبارك وتعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } . [ 21 : الطور ] . إذا كان الله سبحانه قضى لبعض أوليائه الصالحين ، بدرجات عالية في نعيمه ورحمته ، وكان لهم أزواج وذريات مؤمنة ، وكذلك آباء وأمهات مؤمنين ومؤمنات ، وكان هؤلاء بعضاً أو جميعاً لا يستأهلون تلك الدرجات الرفيعة ، فإكراماً لصالح الصالحين من أوليائه ، فيشفّعهم بمن يرضى من ذويهم ، ويلحقهم بهم في جنتهم التي كانوا في منازل أدنى منها . ومن هذه الآية نستنتج أن الله سبحانه يشفّع كذلك غير الأنبياء ممن يشاء بمن يشاء من عباده المؤمنين من البشر ، وكذلك من الملائكة ، وهذا المفهوم من الشفاعة قائم ووارد في الدنيا والآخرة . قال جلّ جلاله : { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } . [ 8.7 : غافر ] .

وتبقى الحقيقة الكبرى التي تهيمن على كل هذه الجزئيات والحديثيات في مفهوم الشفاعة ، وهي قوله سبحانه وتعالى :

{ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... } . [ 44

: الزمر ] .

بعد أن عرفنا معنى الشفاعة ، لغةً ، وبعد أن رأينا نماذج عن الشفاعة في الآخرة من خلال الآيات القرآنية ، التي تستعرض المفهوم والحقائق والأمثال . بقي

أن نقدّم نماذج عن الشفاعة في دارنا الدنيا هذه ، معتمدين دائماً على النصوص القرآنية المقدسة ، لنعود ونربط جميع أنواع الشفاعة ، في الدنيا والآخرة ، بعزة الله سبحانه ، خضوعاً للحقيقة المضيفة في قوله عزّت عظمته : { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً } . ففي الإشارات القرآنية الصريحة والكنيات ، وشتى أساليب البيان القرآني الفذ ، ولغته العميقة المعجزة ، نجد مئات الأمثال عن شفاعة الله بعباده ، وعن أنه سبحانه هو الشافع أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، وعن تشفيعه كذلك ، عباداً له بعباد له آخرين ، حتى وتشفيع معان ومواقف وأشياء ومخلوقات من غير البشر بمن يشاء من عباده الصالحين ، نقتصر منها على بعض النماذج والأمثلة . قال عزّ وجل ، على لسان مؤمن سورة يس : { وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُعْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } . [ 22 - 24 : يس ] . قوله : { أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } طبعاً آلهة مزعومين ، إذ لا إله إلا الله ، وهو ما يحتج به الرجل على قومه ، ويعرض بهم ، بأنهم يعبدون من دون الله أصناماً حجرية وبشرية . والحقيقة أن الناس قد عبدوا وما زالوا ، في التاريخ الماضي والراهن ، من البشر ، أكثر مما عبدوا من الحجر . والعبادة هي الطاعة للمعبود ، وذكره أكثر مما يذكر الله . وما أكثر الناس الذين يؤلهون بشراً ، أمواتاً وأحياءً ، ويسألونهم الشفاعة عند الله ، وهو ممنوع عليهم تحت طائلة غضبه عليهم ومقتنه لهم سبحانه .

إذ المفروض أن يسألوا الله وحده أن يشفّع بهم من يشفّع ، هذا إذا كانوا يعلمون مع صدق التوحيد ، أنه لا بدّ لهم من شفاعة . وإلاّ فياستطاعة الإنسان المؤمن الموقن بالله عزّ وجل وبوحدانيته وكتابه ووعدته ووعيده ، أن يسعى لأن يكون أحد إثنين ، في جميع الأحوال هما أحسن من سائل الشفاعة يطلبها من عباد الله : أولهما أن يكون هو مشفّعاً ، يعني يشفّعه الله سبحانه بآخرين من إخوانه في الله ممن هم أدنى منه إيماناً وأقل جهاداً في سبيل الله — ولا يكون ذلك إلاّ إذا وهب نفسه وقلبه وبدنه ومتعلقاته ودنياه كلها في سبيل رب العالمين - وأما الثاني ، فهو أن يستغني بشفاعة

الله وحده ، عن الشفيح من المخلوقين ، وكذلك ، لكي يصل إلى هذا المقام ، ينبغي أن يكون من الموحدين الصديقين ، والمجاهدين الأبرار .

ولا ننسى إضافة لهذا كله ، أن لله سبحانه في خلقه شؤون ، منذ الأزل وقبل إهباطهم على هذا الكوكب . ولعل من الأمثلة الصالحة للحصول على المطالب الثلاثة التي نحن بصددنا : الشفاعة في الدنيا ، وأن لله سبحانه شؤون في خلقه قبل ولادتهم في دنيانا هذه ، والثالث ، ما يرتبه الله جلّت عظمته ، على يقين الإنسان وولائه لربه وعدم معصيته له في أشد الفتن قهراً على نفس الإنسان وبشريته ، وأعصابه ورغباته . قلت لعل من الأمثلة الصالحة لذلك كله ، قصة هؤلاء البشر : يوسف وأبيه وإخوته ، وآثار هيمنة الله المهيمن وحده لا شريك له ، سبحانه وتعالى عما يشركون . هذه القصة الغنية بالعبء ، والتي سماها الله سبحانه أحسن القصص ، نوجزها إيجازاً شديداً ، متوخين فيها ، فقط المطالب الثلاثة التي ذكرناها آنفاً .

قال تبارك وتعالى: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} . [64:النمل] .  
ومن جملة هذا الرزق الذي في الآية ، الشفاعة .

قال تبارك وتعالى :

{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ } . [ 7 : يوسف ] .

أول شفيح ليوسف ، كان هو الله سبحانه ، ثم سبب له الأسباب ، ومنها الشفاعة في الحياة الدنيا . فشفع به ملائكته كتبةً وحفظاً ورعايةً ودعاةً ، ورسلاً إليه يعلمونه ويوجهونه . وهذا ليس عجباً ، فهو ميسر لأي مؤمن عادي ، حسب منزلته السابقة عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ثم شفع به أباه ، حيث غمره بعطفه وحبه ، ووجد نفسه عن غير عمدٍ يفضله ويقربه ، مما أشعر فعلاً إخوته العاقين بذلك . فنوا ما نوا ، وفعلوا ما فعلوا . ثم شفع به الرؤيا التي رآها : { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } . قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخْبَرْتُكُمْ آلَاءَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ

عَدُوٌّ مُّبِينٌ } . [ 5.4 : يوسف ] . ثم شَفَّعَ به السيارة : { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } . [ 19 — 20 : يوسف ] . ثم شَفَّعَ به امرأة العزيز الذي اشتراه ، وقد تبين فيما بعد أنها سافلة ، فابتلاه بها وبنسوة المجتمع المخملي الذي ديدنه الفساد والشهوات . وأظهره الله نموذجاً رائعاً من الذين يوالون الله وحده ، ويطيعون الله وحده ، ويخافون الله وحده . وشَفَّعَ به أحد صاحبي السجن ، الذي ظن أنه ناج منهما ، إذ قال له يوسف : { ..اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ .. } يقصد عزيز مصر ومليكتها . وهنا سقط يوسف من شاهقه الذي كان فيه مقرباً عند ربِّه ، سقط تحت وطأة السجن وظروف السجن ، إلى أن يطلب شفاعته من غير الله . وظنَّها هي المطلوبة ما دامت في أعلى مستوياتها عند رئيس البلاد . فقيض الله له شيطاناً أنساه ذكر ربه العظيم ، فلبث في السجن بضعة سنين ، زيادة على ما كان الله سبحانه كتب له من أجل تربيته وتعليمه . ثم اجتباه ربه إذ تاب ، فتاب الله عليه ، وأخرجه من السجن وشَفَّعَ به ملك مصر ، فجعله وزير خزانته ، ثم المسؤول عن تدبير اقتصاد البلاد برمتها ، ثم رفعه الله سبحانه فجعله هو عزيز مصر وسيدها بدون منازع . حيث جلب أهله وإخوته بعد أن مَحَّصَهُم الله بعقوبات وإبتلاءات شديدة ، منها العوز والحاجة والكدح في تحصيل الرزق ، والأسفار الشاقة في البوادي والقفار ، يرسلهم في أكثرها وأبرزها إلى أخيهم الذي حسدوه وشرعوا بقتله ، لولا أن ينجيهِ ربُّه الله تبارك وتعالى { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } . وذلك ليذل الله أنوفهم ، وليذقهم جزاء المعصية الكبيرة التي أقدموا عليها ، وليكونوا درساً لغيرهم في حياة البشرية ، إذ قالوا وكلَّهم شرعاً راشدون ، ما حكاه الله سبحانه عنهم : { إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ ... } . [ 8 - 9 : يوسف ] . وأخيراً كان الله هو وحده شفيعه سبحانه ، حيث جلب له أهله من البدو ، وغسل قلبه من الضغينة على إخوته ، وجعله يستمتع بصحبتهم ومحبتهم بفضل الله تعالى وكرمه .

وهكذا فقد تبين أن الله عزَّ شأنه ، وجلَّتْ عظمته ، هو الشفيِعُ أولاً وهو الشفيِعُ آخرًا قوله عزَّ وجل : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . [ 3 : الحديد ] . كما تبين أن معنى الشفاعة هو أعمُّ من أن يكون إسقاطاً لعقوبة ، أو صفحاً عن ذنب ، وأن يكون الشفعاء فقط من الناس ومن أولياء الله الصالحين . كما في الحياة الدنيا ، كذلك في الآخرة . فالشفيِعُ هو الله وحده ، فإن شفع أحداً من خلقه ببعض الناس ، فيكون سبحانه قد جعل الشافع سبباً لإنقاذ من يريد أن ينقذه هو تبارك وتعالى ، سواءً كان بعض المؤمنين الموحدين أو جميعهم . علماً ، كما أسلفنا ، أنه ليس للكافرين ولا للمشركين شفاعة ، ما لم تكن التوبة والإنابة قبل الموت . بل لهم وعيد الله وعذابه ، كما فصلَّه في منزلاته ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

قال تبارك وتعالى :

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ... } . [ 22 . 23 : سبأ ] .

ويتضح معنى قوله عزَّ وجل : { قُلِ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا . } أكثر فأكثر ، لمن يتعامل مع القرآن الكريم ، كما أمر الله سبحانه ، تلاوة ، وتخشعاً ، وتدبراً لآياته ، ووقوفاً عند حروفه ، وسياحة بينها ، وسفراً في لججها ، فسيجد نفسه على شيطان السلامة ، وأمامه الجمال العبقري بلا نهاية ، ثم جمال الجمال ، ثم سرُّ الجمال ، ثم سرُّ السر ، ثم السرُّ المستسر ، فيخترُ أمام عظمة الله ، ويتوفيق منه سبحانه ، ساجداً بعقله وقلبه وجميع جوارحه وكلية وجوده ، أمام وحدانية الله ، وحاكمية الله ، وشفاعة الله وحده لا شريك له ، وستبقى الحقيقة التي قالها محمد (ص) وهي : " إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الْعَرَبُ ، هِيَ كَلِمَةُ لَبِيدَ :

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلٌ "

ستبقى ماثلة أمام عقل كل ذي عقل ، ولب كل ذي لب ، على هامش كل

آية ، وكل كلمة ، وكل حرف من كتاب الله المجيد : وتشعُّ هذه الآية من آيات الله وتضيء ، فتمحو كل ظلام وتعلو كل كلام ، وهي قوله سبحانه وتبارك وتعالى وعزّت قدرته وجلّت عظمته :

{ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } . { 30 : لقمان } .

### خلاصة صغيرة لمنهجية المبحث

حيث أننا ما زلنا نكتب تحت العنوان الكبير الذي توجنا به هذا الفصل من هذا الكتاب : [ هو الأول والآخر ] ، والذي اقتضى عنواناً ثانياً : [ من الناصر

والكافي ؟ القائد النبوي أم العسكري أم الله ؟ ] . وحيث أننا استطردها ملاحظين  
عناية الآيات القرآنية الكريمة ، بلزوم ذكر الله وحده ، بعد الكلام عن ( العبرة  
الأولى : واقعة الأحزاب ) . لذلك ، والتزاماً باسم الكتاب الأصلي : [ دعوة إلى  
الله ] نتابع حسب المنهجية التي رسمناها لهذا الفصل . فنتحدث ، ذاكرين الله عزَّ  
وجل ، وأفضاله ومننه ورحمته ورعايته لموسى ، وبعده { أَخَا عَادٍ فِي الْأَحْقَافِ } .  
وذلك بعد أن تحدثنا عن مريم وعن إبراهيم ، عليهم السلام جميعاً . تبعاً لقوله  
سبحانه : { واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ... } { واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ... } . فيبقى  
أمامنا إذن : { واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ... } ، ثم بعدها { واذكُرْ أَخَا عَادٍ ... } .  
وبهذه النماذج ، نكون قد لخصنا الفكرة العامة ، التي لأجلها ، كما قلنا ، كان هذا  
التعليم من الله لرسوله (ص) وللناس ، وهو ذكره هو سبحانه ، وذكر فضله ونعمته  
على هؤلاء وعلى العالمين . ثم ننتقل بعد ذلك إلى : ( العبرة الثانية : وقعة أحد ) .  
ثم ( العبرة الثالثة : وقعة حنين ) كما وعدنا آنفاً . وبذلك إن شاء الله ، نكون قد  
استكملنا منهجية هذا الفصل : [ هو الأول والآخر ] .

وموسى رفعه الله  
من وادي النيل إلى قمة من قمم التاريخ

قال الله تبارك وتعالى :

{ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا } . [ 51 : مريم ] . واذكر يا محمد ... وهل هذا الذكر هو حكرٌ على محمد (ص) ليستفيد منه هو وحده ؟ طبعاً لا ، فمحمد (ص) مأمور بتبليغ كل حرف من القرآن يُنزل عليه . فإذا ذكر يا محمد ، واذكر يا قارىء أو يا سامع القرآن . والأمر بذكر من هذه المرة ؟ هو بذكرى نبي الله موسى عليه السلام . ولماذا نذكر موسى ؟ تعالوا نذكره ليل نهار ونذكر أن أعماله ومواقفه ومعجزاته كانت خارقة ، ثم على أساسها نبدي إعجابنا بموسى ، ونظهر إعظامنا لموسى ، ونتميم بذكر موسى ، ونخشع ونخضع لذكر موسى ، ونجعله نجم مجالسنا ، وقمر أحاديثنا ، كما يفعل أناس مع أنبياء آخرين وأئمة وأولياء . لا ، أبداً ليس هذا هو المقصود من قول الله تبارك وتعالى : { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ... } ، ولو كان القصد كذلك ، لجعل الناس موسى إلهاً ، كما جعله قومه وأتباعه من اليهود . ولجعل أتباع كل نبي وإمام وولي ، لجعلوهم آلهة يعبدون كما يعبد الله ، ويذكرون أكثر مما يذكر الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون . ليس المقصود أبداً ذكر أي نبي أو ولي لذاته ، وإنما الواضح عقلاً وشرعاً ونصاً ، أن المقصود هو ذكر الله عز وجل ، وذكر آثار عظمته في أنبيائه وفي جملة خلقه . بدليل أنه لولا اصطفاء الله لموسى ولغير موسى منذ الأزل، ولولا بعثه وبعث بقية الأنبياء والرسل، ثم توليهم بالتربية والرعاية ، والدفع عنهم ، والنصر لهم في المواقف ، والمواجهات على جميع أصنافها ، لما كانوا شيئاً يذكر ، ولظلوا ذلك الطين لو أبقاهم عند الجبل الأولى ، أو ذلك التراب قبل تلك الجبل . هكذا ، موسى وجميع من قبله ومن بعده من الأنبياء والرسل وأئمة الحق وأولياء الله الصالحين ، والناس أجمعين . أما ما تميز به موسى من الآيات المعجزات - وتميز به غيره ، فذلك شأن الله فيهم ، وعطاؤه وإذنه وقضاؤه ، فهو العليم بأطوار البشرية ومستلزماتها ومستوياتها العقلية والحضارية . يرسل حسب الطاقات التي عند الناس في مراحل تاريخهم ، ومع ذلك كله ، مع شمولية علم الله تعالى وهيمنته ، فإن المستجيبين قلة قليلة بالنسبة لأعداد البشر ، كنسبة النجوم لليل والأحجار الكريمة للحصى على شطآن البحار

والأنهار ، ويربح أهل الحق أنصارُ الله ومطيعوه وأحباؤه ويخسرُ المبطلون . قال سبحانه مخاطباً رسوله محمد (ص) :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ } . [ 78 : غافر ] .

ومن هؤلاء الرسل ، موضوع الآية ، موسى عليه السلام ، وما كان له أن يأتي بآية ، إلا بعلم الله وبقدرة الله وبإذن الله ، فالأمر أمره سبحانه { فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ — الآية } وبخصوص أمر الله لموسى في آية من آياته سبحانه ، وإظهاراً لفضل الله وحده ولعظمة الله وحده ، ولآثار تربيته في أنبيائه ورسله ومطيعيه وأحباؤه ، اخترنا الحديث عن موسى عليه السلام كنموذج من الأنبياء ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر من غيره ممن ذكرهم الله سبحانه كأنبياء ومرسلين (\*) قبل بعثة محمد (ص) الخاتمة المباركة الميمونة .

قال عز وجل:

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } . [ 103 ، الأعراف ] .

---

(\*) ورد ذكر موسى في القرآن ( 136 ) مرّة .

والمعروف ، أن المعجزات التي أظهرها الله سبحانه ، على يد رسوله الكريم موسى ، كانت كثيرة ومدهشة ، وكل واحدة منها كانت تنطق بوحداية الله ، وبخالقية الله ، وبقدرته وعزته ، وجبروته ومجده ، ومع ذلك أبي القوم الذين أرسل إليهم موسى ،

أكثرهم ، إلا عقوقاً ، وعناداً وعمى وصمماً وكفراناً . وإعطاء المثل ، وصدقية النموذج وأبعاده ، عن آثار قدرة الله ، نكتفي بموقف واحد ، من المواقف ، التي نصر الله فيها رجلين يكادان يكونان فقيرين معدمين ، مالاً وعقاراً ، هما موسى وأخوه هارون عليهما السلام . نصرهما الله بلطفه وحبه ، وقدرته وعظمته ، على دولة لعلها كانت الأكبر والأضخم والأميز حضارةً على وجه الأرض في ذلك التاريخ ، نصرهما على الملك الذي عبّد لنفسه الرعية ، وهو أحدهم ، يأكل مما يأكلون ، ولا يتميز عنهم حتى ولا بفكرٍ صافٍ ولا عقلٍ مستنير . هكذا قمعاً وعتوّاً وظلماً ، وتبعه الخاسرون ، وما أكثرهم . ونصر الله مبعوثيه هذين على تلك المملكة بجيشها وبطشها ومخابراتها ، وأهل العلم والإختصاص فيها ولا سيما السحرة ، الذين اختارنا مواجهتهم لموسى ومواجهته لهم ، في مهرجان شهدته تلك الأمة الشقية ، التي أغرقها الله فيما بعد بسبب عنادها وكفرها ، واستخلف مكانها قوماً آخرين .

ولكي نكوّن فكرة متماسكة عن الموقف الذي اخترناه ، يلزمنا أن نتشرّف أولاً ببضع عشرة آية كريمة من سورة طه ، نحاول ، بعد ، أن نعايشها ونتفاعل معها متوكلين على الله سبحانه ، معتزين بعبوديتنا له ، وطاعتنا لأمره ، خاشعين لذكوره ، نجد أنفسنا مع كل نفس ، مقصرين في عبادته وشكوره وذكوره ، ومن يستطيع من خلقه سبحانه أن يؤدي حق شكره ولو على نعمة الهداية فقط ، من نعمه التي لا تعد ولا تحصى .

قال تبارك وتعالى :

{ قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحَى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى . قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيَسْحَبِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى . قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى . فَاجْمَعُوا

كَيْدِكُمْ ثُمَّ أَنْتُمْ صَعًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى. فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى. قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى. [ 76 . 57 : طه ] .

أول سؤال يخطر بالبال ، هو لماذا فرعون لم يقتل موسى؟ وإذا كانت الإجابة أنه ربما كانت ديمقراطية على الطريقة الفرعونية آنذاك، إذ قالوا { أَرْجِهْ وَأَخَاهُ } بعدما قال { ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى } ، فلماذا ؟ لم تكن ديموقراطية، عند إصداره الحكم بالموت صلباً على السحرة ، وفي محكمة ميدانية قادها بنفسه ، وبدون مستشارين؟ وهذا السؤال الأول، يستدعي الجواب الأول ، عن آثار حكم الله ومحكمته هو سبحانه، عندما يريد تنفيذ الأحكام معجلة غير مؤجلة. أما عدم قتل فرعون لموسى ، فلأن الله عزت عظمته حفظ موسى وقضى بالدفء عنه وعن أخيه ، بدفع الدولة بملكها وجيشها وزبائيتها في طول البلاد وعرضها، في تلك الفترة ، فترة المواجهة ، بعد رجوع موسى من مدين ، من لدن أستاذه الذي قضاه الله له ، النبي شعيب عليه السلام ، وبعد أن كانت ليلة الليالي ، ليلة تكليمه في طريق الرجوع : في المرحلة الأولى التي جعله الله يهرب فيها إلى مكان أليق بالتعلم والتأمل. وهو كان سبحانه

قادراً على أن يحميه من القوم ، ويبقيه في مصر محفوظاً آمناً . ما أعظم ما يعلم وما يشاء سبحانه. وفي المرحلة الثانية :قضى لهما،لموسى ولهارون ،بعد أن أرسله رداءً لأخيه ،قضى لهما بالمواجهة والتحدي الأدي اللين المرن،مع هول الآية الأولى : العصا — الثعبان، وغرابة الآية الثانية : اليد النورانية.أما السماح لفرعون بإصدار حكمه الميداني ، على السحرة،الذين كانوا عمياناً،طيلة أعمارهم ،وفجأة أبصروا ، فأدركوا الصباح البهيج في معرفة الحق ، في لحظات ، بعد ليالي الجهل الأسود ، والأيام الضائعة المضیعة :

ما أجمل الخلاص من الماضي القاتم الأربد،وما أجمل الموت على الحق والهداية: نحن عرفنا ربنا،لا أعظم ولا أروع ولا أجمل.عرفنا ربنا الله،رب الأولين والآخين،والذي صبر علينا،وسبحانه إذ ما زال صابراً على الطاغية فرعون، والقوم الضالين الظالمين.يهددنا بالموت؟ومصلوبين على جذوع النخل؟فليكن ... ساعة عذاب؟لا عذاب ... بل ساعة أذى...بعدها نلقى وجهه الله الحبيب،الحليم الكريم،والرحمان الرحيم،ونعيمه الباقي،بعد أن أيقنا ،واليقين درجة،فوق التصديق . نموت شهداء. كنا نسمع هذا الرجل،موسى إذ كان كذلك يحدث عن الشهادة وقيمتها عند الله،وما كنا نعي ولا نفهم.أما الآن فنحن من مصاديقها،إذا نفذ فرعون تهديده ووعيده.ما أكرم ربنا...لأجل ساعة صدق صدقنا فيها أمره وآياته، ورسوليه موسى وهارون.أيصفح عنا؟! أيعفوا عن ماضينا؟! بلى يصفح ويعفو ، ويبدل السيئات بحسنات ، ولو في ساعة يقين وهداية ورجوع إلى رب العالمين .

إي فرعون :{..فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}. [ 72: طه ] التي سرعان ما تزول ، كأنها لم تكن { إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ... }. [ 73 : طه ] ،لتبق لك مصر،وهؤلاء الرعاع حولك،وكم ستبقى لك ، بعض السنوات ؟ هذا إذا لم يقصم الله ظهرك بعد قتلنا ، وربما قبل ذلك فننجو من بطشك .ويا ويلك من بطش الله وتخليده لك ولتابعيك في نار حامية ... ما أسعدنا برنا الله العظيم ،الله الكريم ،ولا فرق في أن نموت بإحدى الحسينين : بالنصر على هؤلاء الصنميين الوثنيين أم بالشهادة في سبيل رب العالمين .

من الطبيعي جداً ، أن تكون هذه المعاني ، هي التي كانت تدور في رؤوس الذين كانوا بالأمس سحرة كفرة ، فأصبحوا في مواجهة آية الله في العصا ، وفي لحظات : مؤمنين ببرة .

أما فرعون وقد شاهد ما شاهد،فصحيح أنه زلزل زلزلاً شديداً في ذلك اليوم،وتمنى لو أنه يستطيع سحق موسى وأخيه،ولكن ! ...ولكن ماذا؟!الحقيقة إن هذا الأمر لا يفهمه إلا أهل اليقين.فإن الله سبحانه جعل لرسله سلطاناً وهيبة وحصانة من لدنه يستحيل أن يخترقها أحد من العالمين.قال تبارك وتعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَهُمْ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} . [ 51 — 52 : غافر]. وقال عز وجل: { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ } . [103: يونس]. وقال جلَّتْ عَظَمَتُهُ: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} . [ 171: 172: الصافات]. وقال عز شأنه: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} . [21: المجادلة]. فلذلك عجز فرعون عن أن يمسه موسى في ذلك بأذى، فقد حال الله بينه وبين مجرد التفكير بالمساس به. حتى يجمع فيما بعد موسى أمره ، ويجمع فرعون كيده ، فيقضي الله أمراً كان مفعولاً. وكذلك عجز جميع الباقين في ذلك اليوم المشهود، من حاشية فرعون الخاصة، إلى الكبراء والأعيان وقادة العساكر، وبقية الجيش والشعب ،على اتساع السَّاح ، وكثرة جماهير المتفرجين. فالأمر فيه مناسبتان كبيرتان: يوم الزينة، وهو العيد الكبير عندهم. ثم التحدي التاريخي الكبير بين أهل الإيمان بالله المستبصرين ، وبين مدَّعي الربوبية فرعون وأتباعه العميان الكافرين .

والسؤال الثاني: لماذا تردَّد ذكر الأرض على لسان فرعون وألسن السحرة، قبل المباراة التاريخية ؟ فهو قال: { قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى } . [ 57 : طه ] والسحرة { قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى } . [ 63 : طه]. والجواب عليه ، هو أن أهل الإيمان الحقيقي، لا يفكرون بتفاصيل الحياة على الأرض ، وكذلك بالأرض نفسها ، من حيث أن تكون هذه الأرض لهم دون تلك ، فالأرض عندهم كلها لله عز وجل

،وحيث ينزلهم فيها تكون له الخيرة في ذلك وليست لهم ،فالله يريد خيراً بالمؤمنين،ويعرفهم مصالحتهم ،فهو الذي يعلم وهم لا يعلمون. كل همّ المؤمنين أن يتعبّدوا لله عزّ وجل مخلصين له الدين،نافين عنه الشركاء .أما الرزق والإقتصاد، والمطر والخصب ،والأرض الصالحة ،فهو سبحانه يكفيهم كل ذلك.وفي الحقائق القرآنية،أن جميع الأرض مباركة من حين خلقها: {وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ... الآية } .[10:فصلت] وحيث يكون الإيمان والتوحيد والأخلاق ، صدقاً واستقامةً ،يوطن الله المؤمنين في أرض طيبة ،أو يطيب الأرض التي هم فيها ويحفظهم في أوطانهم في أمنٍ وعافية وبركات منه سبحانه : {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } .[96:الأعراف]. وهكذا فإنّ موسى عليه السلام،لم يكن يفكر ولا يسمح لأحد من أتباعه من قومه أن يفكر بأرض مصر،أو يطمع بأن يخرج منها أهلها ليستأثر بها هو وقومه. كان كل كيان موسى منصّباً على همّين لا غير : الأول الأساس،هو دعوة الناس في مصر جميعاً إلى الله،فرعون في الدرجة الأولى وقومه، وكذلك قوم موسى،الذين كانوا في حالة فقرٍ شديدٍ إلى تركيز دينهم ، فضلاً عن تركيز مفهوم التوحيد والتجريد ، بدلالة عبادتهم العجل ، فَوْر خروجهم من مصر، وبعد أن رأوا من الآيات نفس ما رآه المصريون ، وأكثر مما رآه فرعون وجنوده . إذ أنهم رأوا بأم أعينهم كيف أن الله سبحانه أغرق هذا الطاغوت وجيشه أمام أعينهم ، بين ماءٍ انعقد جبلين ، مرّوا هم ، أي قوم موسى ، بينهما ناجين ، ثم انطبقا على فرعون وعسكره الذين كانوا بأثرهم .

فإذا كان هذا ما كان يجاهد من أجله موسى وهارون ، أي هداية القوم إلى الله الواحد الأحد ، ولم يلحظ في تصرّفهما وتصرف قومهما ما يدل أو يوحي بطمع في الأرض أو إخراج أهلها منها ، فلماذا إذن تصرّح مَلِيكُهَا بما صرّح به وتناقله السحرة ،وتناقله القوم ،من أن موسى وأخاه إنما يريدان إخراج أهل البلاد من بلادهم ؟في الحقيقة إن ذلك كان من كيد فرعون، وفي نفس الوقت من وساوسه ، وكذلك اشتباه أعوانه المستفيدين عامة من وضع المملكة ونظام حكمها وتعبّدها لهذا

الطاغوت فرعون . أما كيد فرعون ، فهو إنما أراد به أن يؤلب الناس على موسى وأخيه ، وأن يُبهِمَ عليهم دعوتهما إلى الله الواحد الأحد ، لأن ذلك يسقطه من دعوى الربوبية ، إلى حيث ينظر إليه كإنسان عادي ، وهذا ما لم يكن مستعداً لتحمله ، لخسته ولؤمه . فكان يَلْمِزُ بذلك إلى أعوانه ، ولا سيما الجهاز الإعلامي في الدولة ، فيشيعون في الناس هذه التهمة الكاذبة . رغم أن موسى عليه السلام كان يطالب فرعون بالمطلب الثاني ، الذي يشكل عنده همّه الآخر ، وطبعاً بأمرٍ من الله سبحانه ، ذلك هو السماح له بإخراج قومه من مصر . وقد شاع كذلك هذا المطلب بين الناس ، مما جعلهم قليلي التصديق والتأثر، بالطريقة الكاذبة . أما الوسواس التي كانت تُراود فرعون والأعيان والأعوان ، فهي نتيجة لعدم إيمانهم . والكافر تنحصر مساحة تفكيره تحت هذه السماء الدنيا ، ويبرهن مصيره بالأرض هذه الدنيا ، ولا سيما الأرض التي تكون تحت يده . فالأرض هي حياته وعمره وسعادته ، إذ ليس بعدها في نظره ما يتحول إليه بعد الموت .

وواضح أن الله سبحانه ، لم يكن كذلك ، يريد مصر لبني إسرائيل قوم موسى ، إنما كان يريد لهم ذلك المكان الذي انتقلوا إليه من مصر ، بعد انشقاق البحر، وبعد أن عاقبهم الله سبحانه بقتل أنفسهم على عبادة العجل . ثم تاب عليهم ، وأنزل إليهم الطعامين الكافيين الوافيين المباركين : المنّ والسلوى . وبعد فترة من الزمن ، ملؤ وشكوا ، واشتهوا من الطعام ما هو أدنى ، طعاماً وطيبة وقيمة غذائية . فغضب الله عليهم و { ... قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } . [ 61 : البقرة ] . وهكذا أهبطهم الله مصرّاً ، بعد أن كان قد دمر على من تبقى من أهلها الذين رفضوا الإنصياع إلى أمر الله والإيمان بوحديته جلّت عظمته ، وجعلها خراباً . وقد أقاموا فيها زمناً ، إلى أن ضربهم الله بالتيه في الصحراء مدة أربعين سنة ، بعد أن قالوا لموسى وقد ندبهم لقتال قوم جبارين : { ... فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } . [ 24 : المائدة ] .

يبقى سؤال ثالث من الأهمية بمكان ، في هذا الزلزال على مستوى تاريخ البشرية ، وهو لماذا أُلقي السحرة ساجدين ؟ وهم علماء السحر ، وأسياد الطريقة العالمية فيه ، وهم جمهور لا يستهان بشأنه ، تمرساً وعدةً وعدداً . هذا إضافة إلى أنهم لو انتصروا على موسى الداعي إلى الله ، كانوا سيصبحون أسياد البلاط بعد فرعون ، وأسياد البلاد . إذ أنهم كانوا في المقابل هم الدعاة إلى فرعون، وهو حاضر ، جاهز بجيشه وأُجهته وذهبه وجواهره وسلطانه ومملكته القوية الغنية الشاسعة الأطراف . فما الذي ألقاهم سجداً لرب العالمين ؟ وكما يستفاد من صريح الآيات الكريمة أنهم ، أي السحرة ، بخلاف العادة من حيث تراحم وتحاسد الجاهليين من أهل المهنة الواحدة ، فهم قد أجمعوا أمرهم ، ونسّقوا أسرارهم ، وهم على قناعة لا يخالجهما شك أن موسى وأخاه إنما هما ساحران عاديان وأنهما يطمعان بهذه البلاد وإخراج أهلها منها بسحرهما . ثم إنهم كأصحاب مهنة واختصاص فريد من نوعه ، لهم طريقة يعتبرونها ، عالمياً ،

هي الأشهر والأمثل ، قولهم : { ... يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى . فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى } . [ 63 . 64 : طه ] .

وهم يعترفون بأنهم جماعة كيد ، [ والكيد مصدر كاد : إرادة تضرُّ الآخرين خفية ، وهي من الخلق الحيلة السيئة ، ومن الله التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق . القاموس ] . وهم أتوا إلى هذا التحدي بعد تحضير واستعدادات وتعاون وثيق مع أجهزة الدولة على جميع المستويات التي يريدونها ، إضافة إلى أنهم مع هذه المشاعر ، من الطبيعي أن يضمروا العداة لموسى ولأخيه . والمشهد العام مُعْرَبٌ بأن يكونوا هم المنتصرين ، ليس طمعاً فقط بالجوائز والهبات والمراكز ، وإنما هذا الجمهور الهائل من الألوفا المؤلفين من الناس المحيطين بهذا الميدان الواسع ، الذي يتصدره مدرج كبير ، في عليائه فرعون تحت قبته الملكية . ثم أعيان المملكة حسب مراتبهم ، ثم قادة

الجوش والشُّرط والمباحث . وجميع هذه الخلائق أبصارها مشدودة إلى وسط الدائرة الفارغة أمام الجماهير والتي يقف على أحد طرفيها فريق كبير من الرجال ، قد أعلن المشرفون الرسميون على المهرجان ، أن هؤلاء هم السحرة ، الذين أتوا يتحدثون موسى وأخاه هارون ، هذان المدَّعيان النبوة ، والداعيان إلى رب العالمين واحداً واحداً لا إله إلا هو . ومقابل السحرة في الجانب المقابل من الدائرة يقف رجلان . عرَّف عنهما المعرِّف أنهما الدَّعيان الكاذبان — حسب اعتقاد القوم — : موسى وهارون . والناس ، كما سنرى في آيات أخر من سورة الشعراء ، كلهم يتمنون — على أساس الدعاية الكاذبة الموجهة من أرباب الدولة — أن ينتصر السحرة ، وأن ينهزم هذين الرجلين ، موسى وهارون ، شر هزيمة .

وصاح كبير السحرة بصوت ثابت ومُتحد أن { ... يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } . [65\_67: طه] . وهنا السرُّ المذهل والمدهش عند موسى، وهو أنه حتى هذا النبيُّ الكبير الذي هو من أولي العزم والعزيمة ، والذي هو من هو في تاريخ النبوات والرسالات : أوجس في نفسه خيفة مما رأى : لا بدَّ أنهم تأتي لهم ، لا أن يدهشوا الناس فقط ، بل أن يرهبهم ويخيفوهم خوفاً منكرًا . إذ أنه حتى موسى ، الطرف الأساسي في مباراة التحدي التاريخية هذه ، قد أوجس في نفسه خيفة ، وكذلك الملك ، وبقية الأعيان والقادة والجماهير .

هذا يوم السحر التاريخي .

{ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } .

يعني لشدة خوفه نسي ثقته بعصاه . تراه نسي ثقته بربه رب العالمين ، الذي سبحانه كان قال له ولأخيه مرة { ... إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى } فهل نسي هذا موسى حتى أوجس في نفسه خيفة ؟

لعل الأمر أعظم مما نظن . المرأى غير السَّماع ، وغير الظن . المشهد مهول ومخيف : أفاعٍ بالعشرات ، ثم بالمئات تصول وتجول في طول الساح وعرضها . تلك

هي العصي والحبال بعد أن سحروا أعين الناس عنها ، وخدعوا أبصارهم بغير حقيقتها . وأنزل الله سبحانه الأمانة والسكينة ، والتثبيت والثقة بعزة الله وبالنصر المين على قلب عبده موسى : { قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى } . وألقى موسى عصاه إلى قلب المعمة الرهيبة ، إلى وسط الساحة ، واشتد الهول على الناس ، فإذا هي ثعبان ، يجب أن يكون تجاوز عشرات الأمتار طولاً وضخامة قافلة من الجمال عرضاً : يلقف ويبتلع ما كان على الساح من مسبات الهول والفرع . وتخلو الساح من كل شيء ، إلا من هذا الثعبان الهائل . وتمتقع الوجوه . جميع الوجوه . وجه الملك خاصة ، ووجوه السحرة وبقية الناس ، حتى وجه موسى وهارون . ويسيطر الفرع لحظات مرت كأنها أعوام طويلة ، أنهارَ معها ضعفاء القلوب من رجال ونساء وأطفال . وأمر الله سبحانه رسوله بإمساكها ، فإذا هي تلك العصا العادية ، الشبيهة ببقية العصي التي يعرفها الناس .

وبينما الناس يستردون أنفاسهم ، ويعود إليهم وعيهم تدريجياً ، ويتلفت بعضهم إلى بعض ، ويحاولون التطلع إلى مليكهم فرعون ، ليلحظوا رد فعله ، وفجأة سمعوا صوتاً عالياً ينبعث من جهة السحرة ، شدَّ انتباه الجماهير كلها ، وإذا هو من كبير السحرة يردد : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، آمناً برب العالمين ، رب هارون وموسى . ثم خرُّوا جميعاً ساجدين ، لعِزَّة الله العليِّ العظيم .

ماذا يا سحرة ؟ ماذا جرى ؟ وفيه هذا التحوُّل الخطير وهذا الانقلاب ؟

هل علّم الله موسى السحر ؟

كلا ، لم يعلمه سحراً .

وتلك هي الأسباب التي أَلقت السحرة ساجدين لرب العالمين ، تختصرها بما يلي : أولاً ، إن أهل الاختصاص أدرى بسر مهنتهم . والساحر لا ينطلي عليه سحر الساحر . فلو كان الثعبان الذي رأوه سحر ساحر ، لأعلنوا ذلك للملأ ، ولكانوا هم المنتصرين .

ثانياً ، لو كان عمل موسى سحراً علّمه إياه الله سبحانه ، لما كان أفجح ، لأن

الله تعالى أطلق في قوله : { وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } : كلمة { كَيْدٌ } وكلمة { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } . [ 69 : طه ] .

ثالثاً : إن العصا والحبال والأدوات التي يستعملها السحرة ، تبقى بعد استعمالها لا تختفي ولا تتغير ولا تتبدل . ومن السحرة في التاريخ من كان يسحر نفسه فيلاً على ظهر حمار . اتجه مرةً داخلاً إلى مسجد قريب ، فغضب أحد المسلمين غضبةً لله ، فبقر بطن الحمار بسيفه فقتله . فغاب شكل الحمار ، وإذا بالرجل الساحر قد بقرت بطنه ومات يتشحط بدمه . فما دامت الحقيقة هكذا ، فكان ينبغي أن تبقى عصي السحرة وحبالهم في السحاح بعد أن أمسك عصاه موسى ، إذا كان عمله سحر ساحر . إلا أن الحبال والعصي لم يظهر لها أثر ، ولا يمكن أن يقال إنها في بطن العصا ، هذه التي توارثها أنبياء بني إسرائيل ، حتى كان آخر من استعمالها واتكأ عليها وهو جالس على عرشه ، هو سليمان بن داود عليهما السلام ، وهي منسأته التي ، حين قضى الله عليه الموت ، أكلتها دابة الأرض ، كما تأكل المنشار الخشب ، وذلك في قول الله تبارك وتعالى في آية عن سليمان : { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } . [ 14 : سبأ ] فهي إذن عصا عادية ، أبداً ليس مُهماً جنسها ، أمن لوز هي أم من زعرور أو سنديان أو غير ذلك ، هي عصا من العصي العادية ، وليس السرُّ أبداً في العصا إنما السر في أمر رب العالمين ، الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ولو كان غصن ورد أو عود ثقاب . فالكلام إذن في عصا جعلها ثعباناً ، بعد أن كان يجعلها في مواقف سابقة { حَيَّةٌ تَسْعَى } . والثعبان أضخم بكثير من الحية . { هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } . [ 24 : الحشر ] .

وهنا زيادة الكلام : الله أم سحر ساحر ؟ :

إن السرّ ، ليس هو في موسى ولا في سحرٍ ، معاذ الله . وهو سبحانه نصّ على أن السحر كفر كما نص على أن الساحر لا يفلح حيث أتى ، وكلاهما ، الكفر والسحر ، لا يجوزان على موسى عليه السلام ، ولا يجيزهما الله سبحانه عليه ، بعد إذ كان هو أمره بإلقاء العصا ، والله جعلها آيةً من آياته الكبرى . قال تبارك وتعالى : { وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ } . [ 103 . 102 : البقرة ] .

ولكي نرجع الأمور إلى مصدرها الحقيقي ، نذكر القارىء بأن كل همتنا وهدفنا هو الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى عما يشركون . فنسهّل عليه بذلك استخلاص العبر ، وإرجاعها جميعاً إلى علم الله ومشيتته وتقديره وقضائه ، حتى إذا قضى كان قضاؤه الحتم الحسم الذي لا مردّ له .

## هو فضل الله على الناس أم فضل موسى وهارون ؟

في هذا النصر المؤزّر لموسى على السحرة ومن ورائهم فرعون والقادة والأمراء والجيش والشعب وكافة أركان المملكة ، لمن يعود الفضل ، لموسى أم هارون ؟ وماذا فعل موسى وهارون ؟ وجميع المؤمنين المؤيدين لهما آنذاك ؟ لا شيء أبداً . أما المؤمنون فكانوا ما زالوا في تقيّة من أمرهم ، يخشون أن يرموا بمجرد تهمّة الإيمان بالله واتباع موسى أو أخيه . فلا قيمة لهم عملياً أبداً . فلا هم يستطيعون ثورة على الطاغية ، ولا حتى يجروا أحدهم أن يظهر امتعاضاً من هذا الحكم الطاغوتي . وكذلك موسى وهارون . كل ما فعلاه أصلاً ، هو الإخلاص لله عزّ شأنه ، وتصديق وعده ووعيده بيقينية لو أن أحدهما ارتاب معها طرفة عين بقدره الله ، وحاكميته للكون جملة وتفصيلاً ، لسقط من النبوة والرسالة ، وحتى من درجة الصديقين والأولياء

الصالحين .

من هنا ، كان طبيعياً أن يكونا مصداقين صديقين لتوجيهات الله وإرشاداته وتنفيذ أوامره سبحانه وتعالى . وكافية هي قولته عز وجل : { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي . اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى . قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى } . [ 42 - 46 : طه ] . كافية هذه { إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى } يقولها الله بعزته ومالكه للكون وسلطانه على الخلق الذين هم جميعاً في قبضته . كافية لأن تجعل من أهل اليقين شجعاناً ولا أشجع ولا أجراً في المواجهات والمواقف الأشد خطراً وإرهاباً .

فإذن هو الله وحده القادر القاهر فوق عباده ، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء : يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، يعني ما يضمرون وما يظهرون ، وما فعلوا وما يفعلون وما سيفعلون . ومضى موسى وهارون عليهما السلام ، أديا الرسالة . فما هي وظيفتنا الشرعية تجاههما ؟ ليس إلا المحبة وأخذ العبرة ، والإقتداء بيقينهما وشجاعتهما في مواجهة الباطل وأهله ، وانتصارهما للحق وأهله ، وتحدي الخطر ومواجهة الأهوال ، حُباً بالله وطاعة له سبحانه ، ائتماراً بأوامره وانتهاءً بناهيه . وأن نهب له العقول والقلوب والجوارح والأنفس والأبدان ، فهي منه وإليه سبحانه ، وله الحمد وله الشكر حتى يرضى ، ولا حول ولا قوة إلا به تبارك وتعالى عما يشركون وعما يصفون . فهو الباقي بعد فناء كل شيء :

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . [ 4 : الأحقاف ] .

وزيادة في الإعتبار ، وتمعناً في الحقيقة ، حقيقة أن الله هو وحده القادر ، الكافي الناصر ، لا أحد أبداً من خلقه دونه . نتأمل بخشوع في آيات أخر ، نتحدث عن نفس الواقعة ، وإنما بأسلوب معجز آخر من أساليب القرآن الحكيم ، قوله

جلّت عظمته في سورة الشعراء :

{ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبَاهُكُمْ وَعَصِييَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ. فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ } . [38 . 50: الشعراء] .

قبل هذه الآيات ، كما رأينا آنفاً ، قال سبحانه لموسى وهارون : { وَلَا تَنبَيَا فِي ذِكْرِي } وهذا أساس كل سلاح ، وروح كل سلاح ، وكلية كل سلاح ، والله يسبب الأسباب . أفما يعقل الذين يذكرون غير الله وينسونه سبحانه ، منشغلين ليل نهار ، بذكر غيره عزَّ شأنه ، سواء من أوليائه سبحانه أو من أعدائه ، سواء على الأشرطة المسجلة أو في المجالس والمناسبات .

يا ربنا عفوك ... عفوك ورحمتك يا رب العالمين .

وصور أخرى تتحدّى كلَّ مشرك ، بأنَّ كلَّ توجُّهٍ بدعاء لغير الله ، وكل استغاثة بغير الله ، وكل لجوء لغير الله ، إثم وباطل ، وبدون طائل ، وليدع الداعون وليستغث المستغيثون ، وليلجأ اللاجئون لغير الله إلى قيام الساعة فلن يستجاب لهم ، وسيظلمون من الأخسرين . صور أخرى من خلال هذه الآيات ، عن عظمة الله ومقدرته ، وعزته وجبروته . هي أولاً ، أنه أوقف رجلين ، لا سلاح لديهما ولا مقاتلة ، أعزَّلين إلا من اليقين بالله والتوكل عليه جلَّ جلاله ، ومما أعطاهما من سلطان الرسالة وقوة الحججة ، في مقابل أمةٍ بكامل عناصرها ، بتاريخها وتراثها وحضارتها وعسكريتها ، وغلبهما على هذه الأمة ، المهيمنة على أكثر الأرض المعروفة آنذاك . ثم أخرجهما من تلك الأرض ، ودمَّر على من بقي من أهلها الصنميين ، بعد أن أغرق مليكها الطاغية الذي أبي إلا أن يكون ربّاً معبوداً ،

وجيشه المفتون به ، بين جبلين من المياه ، أمرهما بالارتفاع عن اليابسة فارتفعا ، ثم بالإندام على القوم فانهدما . ويُعداً للقوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين .

... { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا } . [ 51 : مريم

. [

هذا كل رصيد موسى عليه السلام { ... إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا } . وكذلك كان رصيد نوح وإبراهيم وغيرهم من قبله ، وعيسى ومحمد وغيرهما من أئمة الحق والأولياء من بعده ، سلام الله عليهم أجمعين . إن كل واحد منهم كان كل ما قدمه ، للبشرية أنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ، أو إماماً مجاهداً أو تقياً . وربما تميز بعضهم عن بعض كما قال تعالى : { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... } . [ 253 : البقرة ] . وحيث أن تكليفنا — كما هو تكليف جميع العقلاء - هو الدعوة إلى الله ، وليس الدعوة إلى الرسل ولا إلى مخلوق من دون الله ، فتعرضنا للمفاضلة بينهم خروج عن الغاية ، لا سيما وأن الله عز وجل أمرنا بخصوصهم أن لا نفرق بين أحد منهم ، قوله تبارك وتعالى :

{ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِن آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } . [ 136 . 137 : البقرة ] .

كما أرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن مجموع هؤلاء الرسل والصالحين والصدّيقين في تاريخ البشرية ، هؤلاء جميعاً هم أمة كل مؤمن ، قوله تبارك وتعالى ، بعد أن عدّد أقطاباً منهم في سورة الأنبياء :

{ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلًّا إِلَيْنَا رَاجِعُونَ } . [ 92 . 93 : الأنبياء ] .

فإذا استطاع امرئ أن يستعرض جميع من أرسل الله ونبأ واصطفى ، من الأولين والآخرين ، وأن يطلع على أهدافهم وغاياتهم ، ومواقفهم ومجاهداتهم ، وتفانيهم وبذلهم أموالهم وأنفسهم ، فسوف لن يجد إلا خلاصة واحدة بسيطة ، ليس فيها أي تعقيد ، خلاصة تستقطب معهم أئمة الحق وأولياء الله الصالحين في كل زمان ومكان ، هذه الخلاصة ، هي الدعوة إلى الله ، وليس لأحد غير الله :

فما لكم أين تذهبون ؟ ...

وتسهيلاً على البشرية ، بعد رحلتها الطويلة مع هؤلاء الرسل والأنبياء ، وحتى لا يضطر الناس إلى كثرة الدرس والإطلاع ، وحشد الكتب والآثار ، فقد خص سبحانه للناس ما أرسله وأنزله للبشرية منذ أن أوجدها على هذا الكوكب . فجعل خلاصة الأنبياء والمرسلين ، خاتمهم محمداً (ص) . وخلاصة ما أنزل عليهم من كتب وألواح ، وشرائع وتعاليم ، في كتاب واحد { ... مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... } . [ 48 : المائدة ] ، هو القرآن الكريم . فمن استنَّ بسنة محمد (ص) وأئمة الحق من بعده ، اشتغل بذكر الله وحده ، وجاهد في سبيله وحده ، ودعا إليه وحده ، سبحانه له الحمد وتعالى عما يشركون . ومن اعتمد القرآن ، تدبراً وتعلماً ، وضبطاً وربطاً لأموال الدنيا والآخرة ، جعل الله له نوراً يمشي به في الناس ، وأصبح من الداعين إلى الله وحده لا شريك له . فإذا هو تحدث عن نبي ، فلكي يدعو إلى وحدانية الله . وإذا تحدث عن صحابي فلكي يذكر فردانية الله . وإذا تحدث عن إمام حق فلكي يذكر بأنه لا إله إلا الله ، له الأسماء الحسنى وحده ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وحده ، هو غاية الغايات ، والحبُّ الأعظم ، ومناط كل رجاء ، في سبيله وحده تخاض اللُّجج ، وتبذل المهج . له الحمد وحده أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، هو حسبنا ، وحده الناصر ، ووحده الكافي ، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير .

## بين هود والحسين عليه السلام والدعوة إلى الله

حسب منهجية البحث التي أشرنا إليها قبل البدء بموضوع { ... وموسى رفعه الله ... } ، بقي علينا أن نتحدث عن هود عليه السلام وموضوع الآية الكريمة :

{ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .  
قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ  
إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } .

[ 23 . 21 : الأحقاف ] .

قبل أن نبدأ بتناول الخطوط العريضة في هذه الآيات الثلاث . نذكر أن

الأحقاف في اللغة ، هي هضاب رملية يتخللها أودية ، وهي كانت مساكن عاد قوم هود عليه السلام . ثم إن قوله تعالى : { وَقَدْ خَلَّتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ } في الدنيا { وَمِنْ خَلْفِهِ } في النشأة الأولى . وعلى هذا الأساس ، ما من إنسان أهبط إلى هذه الأرض ، إلا ويكون قد بلغته النذر قبل إبطائه و { لِتَأْفِكَنَا عَنْ آهِنَتِنَا } ، لتلفتنا عن تأليها والتعبُّد لها . أما الخطوط الأساسية في هذه الآيات فهي :

أولاً : الدعوة إلى الله : وهي الهدف الرئيس الذي يتفرع عنه كل ما دونه من الأهداف . وهو في قوله عزَّ وجل { إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } والعبادة الحقَّة ، هي أن تهب قلبك ونفسك وكلَّيتك لله عزَّ وجل : قال تعالى { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } . [ 4 : الأحزاب ] يَكْفِي بِذَلِكَ عَنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَحَب فَإِنَّمَا يَحِبُّ بِقَلْبِهِ كَأَسَاسٍ ، فالقلب هو المكان المركزي للحب . فإذا وهبت قلبك لمخلوق ما ، فقد عبدت هذا المخلوق وحده . وإذا ورَّعته بين عدة مخلوقين ، فهم فيه شركاء . وإذا جعلته لله ولآخرين ، فقد أشركت مع الله غيره في قلبك . والأصل أن يكون القلب وكلَّية الإنسان لله وحده ، وذلك معنى تعليم الله لرسوله محمد (ص) وبالتالي لكل مؤمن : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } . [ 162 - 163 : الأنعام ] . أما ، هل يجوز أن نحب الآخرين ؟ فنعم يجوز ، وقد يجب ، وقد يستحب . والآخرون في المودة درجات . وأين ومن أين المودة ، إذا وهب الإنسان كلَّية قلبه وكيانه لله جلَّتْ عظمتُه ؟ هذا صحيح . المودة والمحبة للآخرين ، تكون بعد أن يمتلئ القلب بحب الله وحده عزَّ شأنه . وإذا اشتد الحب لله ، طفح القلب حباً قدسياً ، وفاض منه على جوانبه من هذا الحب كثير . فمما يفيض من حب الله ، تكون المحبة والمودة للآخرين . وهنا يعقلن الإنسان هذه المحبة ، فالأقربون منزلة عند الله ، تكون لهم المنازل الأولى من هذا الحب القدسيِّ الفائض على جوانب القلب ، ثم الأولى فالأولى . وهكذا يتضح تأويل قوله تعالى : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } ، يعني أنه ليكن قلبك لله وحده ، ولا تشرك فيه أحداً من خلقه سبحانه وتعالى عما يشركون .

أما الإحتجاج بروايات وأحاديث ، فهي بكل بساطة ، وبالإجماع ، إذا تعارضت مع النصوص القرآنية ، سقطت ، ونضرب بها عرض الحائط .

ثانياً : النذير بالعذاب لمن لا يستجيب ولا يلبي دعوة الرسل : وقبل أن نتحدث عن هذا المطلب في الآيات الثلاث ، نذكر بأن الكلام فيه نذير بعذاب دنيوي ، يمتد ، متصلًا في الآخرة بعذاب أكبر { ...وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } . [ 33 : القلم ] . فقله تبارك وتعالى : { ... إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ .... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } فيه معادلة واضحة ، وهي أنكم إذا عبدتم غير الله ، فإن أمامكم عذاب يوم عظيم . وعكسها ، إذا عبدتم الله وحده ولم تشركوا به أحداً ، فأنتم في سلامٍ وأمنٍ ونعمٍ وبركات . وفي قوله تعالى { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } إشارة إلى أنهم كانوا يعبدون الله كمعظم الأقسام قبلهم وبعدهم من أهل الشرك ، وإنما كانوا يعظمون مع الله آخرين ، من رجالٍ ربما كانوا صالحين أو طالحين ، كما يعظمون تماثيلهم وصورهم ، كما هي الحال في هذه الأيام . عند أكثر أدعياء الإيمان الخالص . فهم يؤهون أو يكادون يؤهون بشراً مما خلق الله ، ويعظمون صورهم ، ويذكروهم في كتاباتهم وخطبهم ومجالسهم ، وحتى في أفكارهم وتأملاتهم ، أكثر مما يذكرون الله . وهكذا تجدهم واقعين في شرك ظاهر أو شرك خفي ، دون أن يقصدوا ودون أن يشعروا . حتى إذا واجهتهم بهذه الحقيقة ، انفعلوا وغضبوا ونسبوك إلى معاداة آلهتهم ( أو شفعايتهم كما هم يسمونهم ) . وقد يكون هؤلاء الأولياء الصالحون ، شفعاء حقيقيين ، إلا أن انشغالهم بهم ، وانكبابهم على ذكرهم مع زمان طال ، وتراكت فيه العواطف الفاسدة ، والبدع القاتلة ، والكتابات التي تطبعها العصبية والأمية في فهم التوحيد ، كل ذلك جعل هؤلاء الشفعاء في أنظار المستشفعين آلهة يعبدون . حتى إنهم يدعون كونهم سلالة من غير البشر وفوق البشر . بينما صريح قول الله عز وجل ، لعبدته ورسوله محمد (ص) ، أوضح وأصدق من كل زعم وكل تأويل أو التفاف على الكلام الذي لا يقبل التفافاً ولا تأويلاً ، قوله تبارك وتعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ... } . فقله تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ } ، يراد منها أولاً تقرير بشرية محمد (ص) ، ومن هم دون محمد ،

إذ ليس فوق محمد (ص) من البشر أحد . وثانياً نفي الألوهة عنه (ص) وعن أي مخلوق آخر ، فإنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وثالثاً أنه ما دام بشراً ، فلا يمكن تأويل ذلك بأن يزعم أنه من الجن أو من الملائكة . ثم إنه ماذا يراد من ادعاء محمد أو آل بيت محمد أو بعض أصحاب محمد أنهم فوق البشر ، بعد صريح النص الكريم الإلهي ؟ فإذا كان ليعظموا ويعبدوا ، فهذا هو الشرك الصريح القاضي بالتخليد في الجحيم . وإذا كان القصد لكي يطاعوا ،

ولتكون لهم مودة خاصة ، ولكي يقتدى بهم في الدعوة إلى الله ، ويرسموا معلّمين للأمة ، في الإخلاص لله عزّت عظمته ، فهذا حاصل في أمر الله وتعليم الله تبارك وتعالى . حاصلة مودتهم وطاعتهم والإقتداء بهم ، على بشريتهم ، ودون أن يكونوا صنفاً من غير البشر . أما أن يحتج برواية كذا ومحدث كذا مما لا يوافق القرآن الكريم ، لا ظاهراً ولا باطناً . إذ أن الباطن مفاتيحه الظاهر وحجّيته الظاهر . حتى إن بعض الآيات لا تقبل تأويلاً ، مثل هذه الآية : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ } . فأي تأويل لها ينفي بشرية محمد ، فأقواه أن يكون غير بشرٍ وقد تمثّل بقدره الله بشراً . فلو كان الأمر كذلك ، لكان قال الله عزّ وجل فيه ، كما قال بالروح القدس ، حين جاء مريم عليها السلام { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } .

فإذن ، هو الإنذار لمن يعبدون غير الله ، أو يعبدون معه سبحانه آخرين ، ينظرون إليهم ويفكرون بهم على أنهم آلهة ، أو أصناف من غير البشر . هو الإنذار بالعذاب الدنيوي ، قبل عذاب الآخرة والتخليد في الجحيم .

والحقيقة الدامغة ، أن أناساً في مثل واقع هذا الشرك ، هم لذلك إما في واقع العقوبة والعذاب من الله أفراداً وجماعات ، أو أنهم من المنذرين بالعقوبة والعذاب ، إذا هم لم يأخذوا التذّير بعين التصديق والإعتبار ، والفرار إلى الله وحده ، على أن لا ملجأ إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ، قوله تعالى : { فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } . [ 50 .

51 : الذاريات ] . وقوله سبحانه : { قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا } . [ 22 : الجن ] . والمتلحد هو الملجأ ، وليس غير ذلك .

ذكرى عاشوراء بين الدعوة إلى الله والدعوة لآل البيت عليهم السلام :

ودلالتنا القوية على ما ينافي هذه الآية { قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا } قولةً جاهزة يقولها قارئو العزاء من شيعة آل البيت عليهم السلام ، فيما يسمى بالمجالس الحسينية ، هذه القولة ، يبدأ بها كل قارئ — إلا من فطن وندر . كمقدمة ثابتة لكل فصل من فصول فاجعة كربلاء . والقولة في تلك المقدمة الثابتة : " ... ما خاب من تمسك بكم وأمن من لجأ إليكم " .

فموضوعنا هنا قولهم الذي لا يكادون ينفكون عنه ، وهم مئات القراء الإختصاصيين ، الذين أصبح ديدنهم الدعوة إلى أهل البيت وحدهم عليهم السلام ، لا إلى الله جلّت عظمته ، ولا إلى الإسلام دين الله ، ولا إلى وحدة المسلمين ، أي وحدة الأمة التي أوجبها الله عزّ وجل ، ولا إلى أهل البيت عليهم السلام كدليل يقود إلى تمجيد الله وتعظيمه وحده ، ودعائه وحده ، والإستغاثة به وحده ، واستنصاره وحده ، واسترزاقه وحده ، وذكر أفضاله على أهل البيت عليهم السلام وعلى العالمين وحده . وإن كان ميّزهم وقربهم وأوجب طاعتهم عليهم السلام ، فلا أنهم كانوا ، كذلك ، دعاة إلى الله سبحانه وليس إلى أنفسهم . فلماذا لا يطيعهم هؤلاء القراء ، فيدعون إلى الله كما دعا هؤلاء الأئمة الأماجد ؟ وأوجب الله طاعتهم عليهم السلام ، لأنهم جاهدوا في سبيل الله وحده . فلماذا لا يطيعهم هؤلاء القراء ، ويدعون إلى الجهاد في سبيل الله وحده ؟ وأوجب الله طاعتهم عليهم السلام ، لأنهم ضحوا بأنفسهم واستماتوا حباً لله ، وحفاظاً على دينه الحنيف ، وعلى وحدة أمة محمد (ص) ، أمة الإسلام العظيم . فعلام لا يطيعهم هؤلاء القراء ، ولا يدعون إلى وحدة أمة محمد (ص) والتضحية بالأنفس والإستماتة حباً بالله ، وحفاظاً على دينه العظيم ؟ وإذ هم لا يفعلون ، وقد صرفتهم الشياطين والنفوس الأمّارة ، والصدور الضيّقة ، بعيداً عن الله تعالى ، وعن هذه المطالب المقدسة ، فقد لا يكون في الأمر عظيم خطر ، لو أن المشكلة توقفت عند ذواتهم . ولكن الخطورة السارية المفعول ، الفاتكة بالناس فتكاً ، هي أنهم يؤثرون في العوام وحتى بأشباه الخواص ، تأثيراً عريضاً ، كما المخدر الذي يتبلد معه تفكير الناس ، وما أكثر متبلدي التفكير ، وما أقلّ

من يفكر أو يتأمل أو يتحمل مسؤوليته أمام الله عز وجل ، تلك الأمانة التي تأبتهما وأشرفت منها السماوات والأرض والجبال ، وحملها الإنسان . فمن أداها بما يرضي الله عز وجل نجا وفاز . ومن أخل بها ، وأساء حملها ، ولم يؤدّها على وجهها بما يرضي الله ، هلك ، فكان ظلوماً لنفسه وللآخرين ، وكان جهولاً .

وحيث أن مسلكنا الذي عاهدنا عليه ، كذلك طلباً للنجاة ، هو أن لا نتجاوز آيات القرآن الكريم ، في أداء الشهادة والتبيين والإحتجاج ، كما أسلفنا ، فسنردّ على قوله : " ما خاب من تمسك بكم وأمن من لجأ إليكم " ، بآيات من كتاب الله المجيد ، الذي { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ... } .

[ 41 : فصلت ] . والذي هو { ... تَبَيَّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ ... } . [ 89 : النحل ] .  
والذي هو المرجع في ادّهَمَام الفتن واستشراء البدع وخلط المفاهيم . لا سيما فيما يتعلق بالعقيدة وروحها وأساسها ، الذي هو التوحيد ، والذي هو مضمون كلمة : لا إله إلا الله .

وأنبّه إلى أي حريص أشد الحرص على التمسك بمحمد وبسنة محمد وآل بيت محمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ولكن بعد التمسك بالقرآن الكريم ، حبل الله المتين الممتد من السماء إلى الأرض . و متمسك بهم كدعاة إلى الله وحده ، إلهاً واحداً معبوداً وحده ، ومدعوواً وحده ، ومستغاثاً به وحده ، إلى آخر ما أسلفنا وذكرنا من حقوق الله عز وجل ، وتبارك وتعالى عما يشركون .

ولضيق الصدر ، أن يأخذوا نفساً عميقاً هنا ، ويذكروا الله سبحانه وتبارك وتعالى ، ويسألوه العون في الفهم . فمن فعل ذلك ، وصحّت نواياه حياً بالتقرب إلى الله جلّ شأنه ، فإنه بكرمه وبرحمته سيفتح قلوبهم ويزيدهم من هداة، إذا كانوا من المهتدين غير الملحدين ولا المشركين : { وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } . [ 11 : النعابن ] . { ... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } . [ 2 : الطلاق ] . { ... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ... } . [ 3 : الطلاق ] . أي يكفيه ، ذلك لأن من تأزّم بشكل أو بآخر من كتابتنا هذه ، لرواسب ، إما ثقافية ، وإما شخصية ، فهو لن يتأزّم إذا وجد أن حقائق ما قلناه ، ونقول ، هو بفضل من الله سبحانه ، وهو في آياته البينات وقرآنه

الحبيب. فعلى القسم الأول من القولة المذكورة، وهو: "ما خاب من تمسك بكم"، نورد ثلاثة موارد قرآنية، من كان يفهم العربية فهماً وسطياً، فسيفهمها بإذنه تعالى، فهماً مشبعاً مقنعاً لا جدال معه ولا مناقشة. ومن كان بحاجة إلى تفسير بعض الكلمات أو العبارات، أو أبعادها ظاهراً وباطناً، فعليه بأية مجموعة محترمة من كتب التفسير، فسيجد فيها إن شاء الله ما يشفي غليله، ويسلم قلبه، فيغدو مصداقاً لقوله تعالى: { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } . [ 88 . 89 : الشعراء ] . يعني سليم من الشرك . ثم كذلك ، ثلاثة موارد قرآنية ، رداً على كلمة : " وأمن من لجأ إليكم " والله المستعان .

أما آيات القسم الأول المتعلقة ( بالتمسك ) ، فهي التالية :

1 — { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } . [ 170 : الأعراف ] .

2 — { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } . [ 256 . 257 : البقرة ] .

3 . { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ . وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } . [ 21 . 22 : لقمان ] .

وأما آيات القسم الثاني المتعلقة ( باللجوء ) فهي التالية :

1- { قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا } . [ 22 ]

: الجن [ وقد أشرنا إليها أول هذا المبحث .

2- { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } . [ 118 : التوبة ] .

3- { وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبِيٍّ مَنْ بَعَدَهُ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ . وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ . وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ . اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ } . [ 47 . 44 : الشورى ] .

وليست هذه المقولة هي الإخلال الوحيد والخطير في أسس الاعتقاد الحق، الاعتقاد الإسلامي، وإنما اكتفينا بها كمثل من عشرات الأمثال التي تقع نافرة، شاذة وموجعة، على رؤوس الناس وأسماعهم وأبصارهم، بجميع فئاتهم ومراتبهم، واختلاف ثقافتهم الدينية وغير الدينية. وقليلون جداً هم الذين يتوقفون عندها توقف الحائف الوجل، من غضب الله واستمراره على هذه الأمة، التي جعلها يوماً ما، بسبب من استقامتها وطاعتها، خير أمة أخرجت للناس. وصحيح أن هذه الصفة التي أعطها إياها سبحانه هي في سياق وعوده لها بالتمكين يوماً ما، وإنما ليس بدون أسباب وأشراط. فذلك التمكين لن يأتي إلا بالرجوع إلى الله وإلى أحكام الله، وعلى قاعدة المقتضي والشرط وعدم المانع، وهذه هي تعريفات هذه العناصر الثلاثة : المقتضي هو انتصار الأمة. والشرط هو التوحيد ، أي تطبيق مضمون: لا إله إلا الله على أساس القرآن. وأما عدم المانع، فهو مشيئة الله وقدره وقضاؤه .

فإذا اجْتَنِبَتْ مثلاً هذه المقولة التي كنا بصدددها، رفع الله عنا مقدار غضب أو

عذاب بمقدارها وعلى هذه فقس ما سواها. وإلا فتراكم الآثام على أمة كم هي بحاجة إلى رضى الله، بدلاً من سخطه، في ظروف أصبحت فيها أذل الأمم، بعد الذي رأيناه من إسرائيل ، ونحن عشرات أضعافها عدة وعدداً ، وبعد الذي رأيناه من تدمير شعب العراق والصومال وشعوب آسيا الوسطى ، وأخيراً وليس آخراً ، تحطيم البوسنة والهرسك، ووطء أعراضها وكراماتها بأحقر أخلاقية عرفتها همجية القرون المظلمة . وما زلنا — رغم أننا نملك أعظم سلاح تملكه أمة من الأمم : التوحيد ، مدعماً بالقرآن المجيد — ما زلنا إضافة إلى كل ذلك ، في مواجهة سلام مفروض من دولة عشرة ملايين يهودي ، على أكثر من ألف وخمسمائة مليون مسلم يشكل منهم العرب وحدهم طوقاً كاملاً على إسرائيل من مائتي مليون موحد شاهد بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله (ص) : فأين ، أين نذهب بهذه الآية الكريمة : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . [96: الأعراف] .

فأين الدعوة لتوحيد الأمة على هذه المنابر الحسينية ، التي أصبحت \_ لولا بعض الأفاضل — مسرحاً مريحاً لكل ذي صوت بكاءٍ رخم ، من الأميين إسلاماً وإيماناً ، ولغةً ، وأدباً ، وما أسهل هذا الإختصاص . فالأشرطة المسجلة لبعض كبار القارئین جاهزة، وكذلك هم يستمعون ويقلدون ولكن بأدمغة بيغائية، وهي أخطر على المسلمين الشيعة من الطاعون والسرطان. وما أغلى ما يأخذون من الأجور. فهي إذن مهنة مربحة وهي في نفس الوقت قاتلة لهؤلاء التجار ولعامة المؤمنين، الذين أوصى الله بتذكيرهم بالحكمة والموعظة الحسنة. لقد أصبحت الحكمة والموعظة الحسنة حكراً على هؤلاء من دون العلماء، العلماء الذين في وظيفتهم الشرعية أن يتحدثوا هم عن الحسين وآل بيت النبوة الأفاضل عليهم السلام. فهم أعلم وأدرى بتوجيه الأحاديث والمواظب تبعاً للظروف السياسية والتاريخية، ومواجهة الحقائق في أصلاتها وأبعادها، وهم أدرى بحقيقة تاريخ الوقائع. وكذلك ليس في مواقف العلماء تكلف ولا رياء، وهم لا يتشنجون ابتغاء استدراج الدموع من النساء البسيطات والعوام والأطفال، وليس إلا استدراج الدموع .

وإذ قلت العلماء ، أعني علماء الحق ، علماء التوحيد ، القرآنيين الأتقياء الورعين ، الذين جعلوا الدنيا وراءهم والآخرة أمامهم . والذين يحتجون بالآية قبل الرواية ، بكلام الخالق قبل كلام المخلوق. هذا إذا صحَّت الرواية والأحاديث عن المخلوقين . أقول ذلك ، وأستثني من العلماء بعض من يصنّفون أنفسهم أو يصنّفهم الناس علماء تبعاً لأزيائهم الدينية وهم بمستوى أولئك الدخيلين من قراء العزاء، ضيقاً وعصبيةً، وتخصّصاً ربما بكل شيء ، إلا بالقرآن الكريم كتاب الله وآياته البينات

### { ألا تعبدوا إلا الله } دعوة قائمة إلى قيام الساعة :

وإلى أبد الأبدين ، هذه الدعوة ، يترتب على مخالفتها عذاب الدارين ، وهي تكليف لكل رسول وكل عاقل من خلق الله ، وتواجه كل رسول وكل عاقل يدعون إلى الله ، معارضة واسعة من الناس، وخاصة فيما يتعلق باعتقاداتهم الغيبية، ليس عن الله عزّ وجل ، وإنما عن أفكار ومجسمات، سواء كانت من التماثيل والأنصاب ، أو من البشر . وحتى التماثيل غالباً ما كانت تمثل إنساناً بطلاً ، أو فاعل خير ، أو زعيماً بشكل أو بآخر . وفي عصورنا الحديثة نضرب مثلاً عن النصارى الذين يكرمون شخص المسيح وشخص أمه عليهما السلام ، بأن يتوجهوا إلى تماثيلهما بالركوع والدعاء والعبادة في الكنائس وعلى مفارق الطرق وفي رؤوس الجبال ، وتصبح العادة عبادة ، والعبادة عادة . حتى ولو كانت عبادة تتضمن كفراً أو شركاً أو فسوقاً . تماماً كما نرى كذلك عند كثرة من جهلة من يسمون مسلمين ، وفي جميع مذاهبهم : التعبّد للشفيع ، والتعبّد للولي ، ونسج الأقايص والأخبار حول هذا وذلك ، حتى يشتد التحول عن الله وعن ذكره في البداية ، ثم ينسى تقريباً ، كلياً ، ويبقى الإنشغال الذهني والتفكير والتوجه إلى الشفيع ، أو الولي ، بإعظام وإكبار ، وإجلال وتوقير . ثم يجعلونه مستقلاً عن الله سبحانه . وهكذا يتعاملون مع الشفعاء على أنهم آلهة ، من حيث يقصدون أو لا يقصدون . بينما هذه الإعتبارات

والأحاسيس التعبدية ، هي واجبة في الأصل لله جلّت عظمته ، ثم بالتبّع تكون المودّة لمن يحب هو سبحانه من عباده ، ويكون الإقتداء بهم ، في تمجيده وحده ، والدعوة إليه وحده تبارك وتعالى .

من هنا ، عندما يبعث الله رسولاً ، أو يكلف ولياً من أوليائه ، بالدعوة إليه وحده ، يضطرب الناس بشأن هذه الدعوة إلى الله . وأوّل ما يفعلونه ، أن يقذفوا الداعي بالتهم التي منها الجنون ومنها الطمع بالدنيا ، ومنها الكذب . ثم عبر هذه التهم كلها يؤذونه أشد الأذى ، ويحاولون قتله ، إلى أن ينصره الله سبحانه ومن يؤمن معه ، أو يقضي له ولقومه أمراً كان مفعولاً .

إذن ، الصعوبة عند الناس ، في جميع مراحل التاريخ ، وإلى قيام الساعة ، هي في تقبّل دعوة الدعاة إلى الله وحده : { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } . [ 45 : الزمر ] . والأصعب من ذلك عندهم ، هو التخلي عن معبوديهم من أبطالهم الدينيين ، أو حتى السياسيين والأثرياء وأصحاب النفوذ ، والتوجّه إلى الله وحده .

وأكبر رد جاهز عند بعض أديعاء الإيمان ، هو قولهم : هذا ، أو ذاك ، أو ذلك ، يدعوننا إلى الله ؟ ونحن نعبد من ؟ نحن أكثر الناس إيماناً بالله ، وأكثر الناس ذكراً أو حباً لله . والحقيقة إنهم كاذبون . فقد يكون أحدهم خارجاً للتوّ من حفلة ذكرٍ لغير الله ، أو لدم للصدور نساءً أو رجلاً ، أو تعبد لغير الله أو حتى حفلة تفكير مشترك أو ذاتي ، أو كتابة ما اعتمدت على قرآن ولا أنزل الله بها من سلطان .

ومن جملة المصاعب في تحوّلهم أو تحويلهم ، هو التراث المتراكم عبر السنين ، من البدع ، والظن ، والنكد ، نتيجة لتعصّبٍ ضد من لا يذهب مذاهبهم .

ويقولونها وبأصوات عالية : هؤلاء الدعاة إلى الله ، إنما يريدون أن يغيّروا ديننا ، نحن وجدنا علماءنا وآباءنا منذ مئات السنين يفعلون ما نفعل ( يقصدون ما يُعترض عليه من البدع ) وما نحن إلاّ مقلّدين لهم . والحقيقة إن العلماء براءً من مزاعم العوام هؤلاء . طبعاً العلماء الحقيقيين . لأنهم ملح الأرض ، وملح الدين ، دين الله

تبارك وتعالى . وهو سبحانه جعلهم كذلك أئمةً وورثةً للأنبياء . أما جمهور العوام ، فيصبحون بدعاواهم واعتراضاتهم على الداعين إلى الله ، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا... } . [ 78 : يونس ] .

هكذا يصبح بعض أولياء الله الماضين الكبار ، المقربين إلى الله عزَّ وجل ، يصبحون في قلوب وأذهان العوام آلهة . يصبحون أوثاناً تعبد ، لذلك كان جواب قوم هود عليه السلام : { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ... } . [ 22 : الأحقاف ] .

### كلام عن الحسين وتخليد ذكراه عليه السلام :

أما عن الحسين عليه السلام ، فمن لا يعرف من هو الحسين عليه السلام جملة وتفصيلاً فقد خُدِعَ عن عقله ، وجعل ركناً من أركان الإسلام كبيراً . ورمزاً من رموز البطولات التاريخية الفدوة ، وكذلك من رموز الإنسانية النادرة . وبكلمة أوجز ، من لا يعرف الحسين ، يجهل صنيع الله وآثار عظيمته في من يصطفي ويختي من عباده للمهمات والمواقف العبقريّة .

ومن يشاء أن يتعرف على الحسين بعد جهلٍ به ، فإن ما كتب عنه من مؤلفات وما نظم فيه من أشعار ، يشكل موسوعةً حسينية ضخمة ، هي في متناول كل من يريد تعلم أو تعليم البطولة حباً بالله ، وغضباً لله . أو تعلم الشهادة المعقلنة والتضحية في سبيل الله . التضحية بما هو أغلى من الكرة الأرضية وجمالها ، وجبالها وأوديتها ، وما في بطونها من كنوز التبر والجوهر .

أما الأصل الذي كان يجب أن يقال ويكتب ، في رأس ما قيل وكتب عن الحسين وآل بيته وأصحابه ، فهو علم الله ومشيبته وقدره وقضائه فيهم ، ثم فضله عليهم من بداية البدايات إلى نهاية النهايات . وأنهم لولا مجد الله ما مجدوا ، ولولا عزة الله ما عزوا ، ولولا قوة الله وعنايته فيهم ، ما صبروا ولا ثبتوا على شيء ، حتى ولا كانوا ولا وجدوا .

فإن الله إذن سبحانه صنع الحسين وآله وصحبه ، وخيرهم وما أجبرهم ، فنجحوا  
النجاح الفذ ، وأفلحوا الفلاح الممين : طاعةً لله ، وحباً لله ، وتفانياً في سبيل الله .  
وليس تضحية بالمال والأنفس فقط ، وإنما كذلك بالأهل والولد ، تقرباً إلى الله عزت  
عزته .

## هي دعوة رائعة إلى الله :

مسيرة الحسين عليه السلام وآل بيته وصحبه ، وما رافقها من معاناة  
ومواقف وعبر ، وصولاً إلى كربلاء . ثم الزلزال التاريخي الذي لم يتوقف بعد . الذي  
نتج عن مقتل الحسين وبنيه وإخوته وأصحابه ، ثم سبي نسائه وأطفاله . ثم مواقف  
زينب التي هزت وما زالت تهز الضمائر وترتعش لها الأفئدة . ثم بزوغ زين العابدين  
، الإمام السجاد ، من ذلك الليل الدموي الخالك ، قمراً يتألق بالتقوى والمثالية ،  
وشرف العبادة والإخلاص لله ولدين الله . كل هذا في الجانب الأبيض والأحمر  
والأخضر . أما الجانب الآخر ، الجانب الكالح جانب أهل الجحيم ، ففيه كل  
النقائص : الكثرة العددية ، التي هي فريقان : فريق جشع متكالب على الدنيا ،  
وفريق جبان : أما الجشع فحرصاً على المال والجاه والسلطان . أهل بلادنا يعبرون  
عن هذه الحالة الوصولية والإنتهازية بتعبير : ( مع الواقف ) ، أو الذين ( ينقلون  
البندقية من كتف إلى كتف ) يعني حيث يرون مركز القوة ، يهرعون إليه ، يتمسحون  
به ، ولو كان باطلاً ، ولو كان كفراً . وطبعاً على حساب الحق ، وحتى ولو على  
محاربة الحق وأهل الحق وقتلهم وذبحهم كما فعل بالحسين وآله وصحبه عليهم السلام  
، والفريق الجبان . لأنه جبان . وهل أخس من هذه الكلمة ؟ وهل أحقر ممن يتصف  
بها ؟ جبان . يخاف السلطان ، يسير معه . يقتل إذا قتل ، ويبطش إذا بطش .  
والجبان يكون عادة أحرص من سيده الشرير ، على إيذاء الأختار الأبرار من الناس  
، وعلى قتلهم وإحراق ما توحى إليه شياطينه بهم .

هذان الخصمان تقابلا في كربلاء : الإيمان كله ، والكفر كله . وتحدى الإيمان  
وهو مجموعة قذائف قليلة العدد ، تحدى جحيماً من الكفر الأربد الأسود . وقتل  
الكفار الحسين ، قتلوه مرة واحدة ، هو وصحبه وآل بيته . ثم قتلهم الحسين ،

أخذ يقتلهم بإذن الله من ذلك اليوم . وما زال يقتلهم كل يوم وكل ساعة ، بالكلمة المؤمنة ، وبالحكمة المتعالية ، وبالسيف ، وبالقديفة والبندقية . وما زال يقتلهم إنه عليُّ الأكبر ، وأخوه العباس قائد عسكره ، والشيخ الجليل التسعيني والفتى الصغير القاسم بن الحسن ، وبقية صحبه وأهله . وما زالت تقتلهم زينب بنت علي بن أبي طالب ، بنت الزهراء ابنة محمد (ص) ، شقيقة الحسين ، عليهم السلام جميعاً . العقيلة زينب ، التي سجلت الأصوات والألوان والصُّور . صوّرت جميع وقائع المسيرة . منذ المدينة ، فمكة ، فالعراق ، فالكوفة . وصوّرت جميع فجائع كربلاء ، تلك الصور الدموية الوحشية من جهة العدو ، والإيمانية المسلمة لله من جهة عسكر الحسين . سجّلت وصبرت ، وثبتت في وجه الطاغية ، كما تثبت الشمس في عين الأعشى . صبرها الله ، وثبّتها الله ، وأطلق لسانها الله ، فأفحمت الطاغوت يزيد ، وألقتهم حجراً . ألقمتهم حجارة ، جميع من كان لهم صلة بجرمة الجرائم التاريخية الثابتة الألوان ، وأبرزها الأحمر القاني ، دم الحسين ، الذي كأنما تحوّل إلى زيتٍ قُدسيٍّ ، يضيء شعلة وهّاجة ، على كوكب أخضر ، يطوف بها فوق أهل الأرض ، ويتوقف كل عام مرةً في منتصف السماء ، أيام عاشوراء ، ليراه جميع خلق الله ، ما عدا العميان ... شعلة ما زالت تضيء ، وستبقى تضيء بإذن الله إلى قيام الساعة : تعلّم البطولة غضباً لله ، والفداء في سبيل الله ، والإستشهاد حفاظاً على دين الله ، وحباً بالله ، وشوقاً إلى الله . لذلك ، كانت مسيرة الحسين من بدايتها إلى نهايتها وبجميع تفاصيلها : دعوةً إلى الله ، تبارك وتعالى وعزّاً ذكره وجلّ ثناؤه .

وإذا ادّعى من سيدّعي ، بأن كون الوقائع الحسينية ، دعوة إلى الله ، هو من البديهيات . وأن القراءات التي تتم ليست دعوةً إلى أهل البيت من دون الله سبحانه . فنقول له ، هذا بنيتك أنت ونعم النية . وإنما لو تأملت في سلوك العوام ، وتوجهاتهم ، واعتقاداتهم ، فسترى العجب من نسيان الله عزّ وجل ، نسيانه كلياً عزّت عظمته ، والوقوف فقط عند الحسين عليه السلام ، والعباس بصورة خاصة ، طبعاً لأسباب معروفة في تفاصيل الفاجعة . ونتيجة لقراءة الجاهلين ، ونسيان رب العالمين ، نجد العوام ، وحتى بعض المثقفين ، ولا سيما النساء ، وحتى بعض المعمّمين

، غالباً ما يطلبون حاجتهم الضرورية ، من علي أو من الحسين ، أو الزهراء ، أو زينب عليهم السلام ، هكذا ومباشرة ، ومن دون أي ذكر لله تبارك وتعالى . وحتى النذور ، يندرونها لهم عليهم السلام ، بدون أن يكون لله فيها أية علاقة . ومعلوم أن النذر لا يكون حقاً ومقبولاً إلا إذا عقد لله عز وجل ، وباللفظ الحرفي : نذر لله ، أو لله علي نذر ... إلخ ..

وما دام الأمر كذلك ، فإنما يترتب عليه سخط الله عز وجل ، في حين يُرجى من ذكرى الحسين عليه السلام أو قراءة العزاء ، أو المواقف والمجالس التي تعقد للحديث عن أهل البيت عليهم السلام ، أن تكون مدخل صدق لذكر الله والدعوة إلى الله سبحانه ، كما أمر بمئات الآيات البيّنات في كتابه العزيز .

أفلا يصح مع هذا ، أن نعتقد أن مآسينا وكوارثنا ، وهزائمنا أمام شرّ خلق الله ، هي بسبب نسياننا لله عز وجل ، وعدم ذكره كما ينبغي أن يذكر ، وكما أمر أن يذكر . وأنها كذلك بسبب انشغالنا بخلقنا دونه . بينما الواجب أن نعتبرهم من آياته التي تذكّر بعظمته وحده ، وألوهيته وحده ، وتدعو إليه وحده لا شريك له ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

### موجز عن تكليف هود عليه السلام :

أما خلاصة الكلام في الآيات الثلاث موضوع بحثنا : { وَادْكُرْ آخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ } . [ 23 . 21 : الأحقاف ] .

إن النبي الكريم هذا ، قد يكون جاهد مجاهدة الأبطال ، على مستوى الرسل والأنبياء والأولياء الصالحين . ومع ذلك لا نجد أثراً في القرآن يشير إلى تفاصيل تدل على ذلك أو تبرز له فضلاً ، أو تجعل له تعظيماً ، وكذلك سائر الأنبياء . فأكبر ثناءً على أحد منهم ، هو شهادة منه سبحانه ، أنه كان من الصالحين والصابرين

والصديقين ، أو { .. أَوَّاهٌ حَلِيمٌ } . [ 114 : التوبة ] كما نعت الخليل إبراهيم أو { .. لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } . [ 4 : القلم ] وهي الصفة التي أفرد بها عبده ورسوله محمداً (ص) .

فبما أن الله سبحانه لم يذكر عن هود عليه السلام ، تفاصيل عن شخصه وحياته وجهاده ، يستطيع الإنسان معها أن يكتب أو يحاضر في صفاته ، وسلوكه ، فيكون إذن معنى قوله تعالى : { وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ ... الآيات } ، ليس أمراً بإبراز شخصه أو تعظيمه وتعظيم مواقفه . فهو حتى لم يأت بآية تذكر ، مثل كثير من الأنبياء والرسل غيره ، سوى أنه دعا إلى الله ، وإلى عبادة الله وحده ، ونفي الشركاء والآلهة المزعومين ، إضافة إلى إنذارهم بالعذاب ، إذا هم لم يصدّقوه ولم يطيعوه . وقد أوقع الله فيهم العذاب فعلاً ، عذاب الدنيا قبل الآخرة .

فإذن ، المراد من ذكر عباد الله ، إذا كانوا من المكلفين المقربين عند الله عز وجل ، هو ذكر المبادئ التي أرسلوا أو كلفوا بها ، وملاحظة أسرار الله فيهم ، وإبراز عناية الله بهم وأفضاله عليهم . وحُبُّهم بعد الله حباً بالله ، ومودّتهم تقرباً إليه سبحانه ، واقتفاء آثارهم ، والتشبُّه بهم في مداومة ذكر الله ، وفي أخلاقهم وإخلاصهم لله ، وعدم إبراز شخصياتهم واستقطاب الناس تأكيداً لوجودهم هم ولأمجادهم ، وإنما لوجود الله وتوحيد الله وتمجيده وحده سبحانه دون جميع خلقه . فما منهم من أحد دعا لنفسه ، أن يعبد أو يعظم أو يحب ، كما يعبد الله أو يعظم الله أو يحب الله . وإنما كان كل همهم وجهادهم وبذل أنفسهم وأعمارهم لله وفي سبيل الله وحده ، ومع كل ذلك يجدون أنفسهم مقصّرين قاصرين عن أداء حقّه سبحانه ، وعن حمده وشكره كما ينبغي لكرم وجهه . وما من أحد منهم ذكر عنه الله سبحانه، أو ذكر هو عن نفسه ، أنه مثل الله حيّ قيّومٌ ، أو مثل الله سميعٌ بصيرٌ ،

أو مثل الله مجيب الدعاء ، أو مثل الله لا يرام ولا يضام ولا يحاول ولا يطاول ، أو مثل الله على كل شيء قدير ، أو مثل الله مالك الملك ، خالق الخلق ، باسط الرزق ، إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون . يرانا ويراقبنا ، ويحيط بنا وبكل شيء فينا ، وبالكون كلّه ، ويحاسبنا ويثيبنا ويعاقبنا ويجزينا بكل خير خيراً منه . ويربّينا ليلنا

وتحارنا . بل هو الله وحده ، ربنا وسيدنا وولينا الحاضر الناظر ، ما دار الفرقدان وما  
بزغ النيران وعلى الزمان وبعد الزمان وفي الدنيا والآخرة { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ  
وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } . [ الزخرف : 84 ] و { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ  
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . [ الحديد : 3 ] { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } . [ 62 ]  
: الزمر [ وعلى كل نفس قائم . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، له الحمد في الدنيا  
والآخرة ، له الحمد وله الشكر كما حمد نفسه وكما شكر نفسه وكما ينبغي لكرم  
وجهه .

## حكمة الله وحاكميته في "أحد"

قال الله تبارك وتعالى :

{ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ  
وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا  
وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو  
فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } . [ 152 : آل عمران ] .

هذه الآية الكريمة تلخص واقعة "أحد" الشهيرة ، عهد رسول الله محمد  
(ص) ، والتي جرت حوادثها قرب هذا الجبل الذي سميت باسمه "أحد" وهو جبل  
قريب من المدينة المنورة .

وواقعة أحد هذه ، واحدة من أكبر العبر ، التي توضح مدى علاقة الله بعباده  
، وحاكميته لهم وحكمته فيهم ، وأنه ما من أحد من خلق الله إلا وهو مراقب ومحاط  
به ظاهراً وباطناً ، ومثاب أو معاقب تبعاً لسلوكه في تعامله مع تعاليم الله جلّ شأنه ،  
وما يقال في الأفراد ، يقال كذلك عن الجماعات ، صغيرها وكبيرها ، من الأسرة ،  
إلى الحي إلى القرية فالمدينة ، ومثل ذلك الشعوب والدول والعساكر المحاربة .

ومعركة أحد من أكبر المعارك في تاريخ الدعوى الإسلامية ، وأعظمها عبراً  
وكشفاً عن سرائر النفوس ، وصدماً للأحاسيس ، وأكثرها مناقشة للنوايا والمشاعر  
الدقيقة والبسيطة في الظاهر ، والكبيرة والخطيرة في الحقيقة . وقعت بعد عدة  
مواجهات بين أهل التوحيد بقيادة رسول الله (ص) وبين أهل الشرك ، كان أكبرها

معركة بدر الكبرى ، التي نصر الله فيها أنصاره الموحّدين على أعدائه المشركين ، أي الذين يؤمنون به سبحانه ويؤهلون غيره من خلقه من البشر أو من الحجر أو غير ذلك .

وفي هذه الآية الملخّصة لمُجريات وقعة أُحد ، إشارات هي المطالب الأساسية كفرائض على المكلفين ، تلزم كل واحد منهم بأن يعلم ويعمل تحت طائلة المسؤولية ، أن الحاكم للكون وما فيه من خلق ، ومنهم هذه السلالة البشرية ، هو الله جلّت عظمته وحده ، بدون شريك ولا معين ولا مساعد ولا معاضد ، يقول للشيء كن فيكون . فالإشارة الأولى إلى حاكمية الله وحده في الآية الكريمة ، قوله تعالى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ } . وفي قوله تعالى : { إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ } إشارة إلى أنه لو لم يأذن بذلك — ومعنى تَحْسُونَهُمْ تقتلونهم — ما حسّوهم في البداية عندما جعل النصر المبين للمؤمنين . وهذه إشارة ثانية لحاكميته وحده . أما قوله تعالى : { حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِّنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ } ففيه تضييّن معناه : حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم ... قلب عليكم الأمر ، فبعد أن كنتم في موقع النصر ، جعلكم في موقع الهزيمة . وهذه إشارة ثالثة إلى حاكميته وحده سبحانه وتعالى عما يشركون . والإشارة الرابعة : { ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ } والخامسة : { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } وهذا خطاب للذين لم يعصوا الله منهم خاصة ، بدلالة قوله تعالى عن المسلمين في أُحد ، في الآية التي تلي هذه مباشرة : { ...وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ... } . [ 154 : آل عمران ] ، فمن كان كذلك ، لا يعفو عنه الله سبحانه ، فقوله { يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ } يعني ظن السوء ، وهو سبحانه يقول : { لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... وَيُعَدِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } . [ 6.5 : الفتح ] .

فالخطوط الرئيسة كلها في هذه الآية ، تدور حول مفهوم واحد ، سنراه يتكرر

في جميع الآيات المختصة - من حيث مناسبة النزول - بوقعة أُحُد . كما نراه يلخّص جميع آيات القرآن الكريم . هذا المفهوم هو كلمة لا إله إلا الله، له الأسماء الحسنى ، { ... وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } . [ 27 : الروم ] هذا المفهوم ، يضع معركة أُحُد ، بمقدماتها ومجرياتها وخواتيمها ، ضمن إطار واحد . وهذا الإطار ، بما فيه من تاريخ وجغرافيا ، وحركة وحياة ، وقعقة سلاح ، وتصهال خيول ، وتكبير من جهة ، وصياح من جهات ، وسيوف كالشهب ، ورماح كالشعل ، وهم وعزائم وأضداد ، كل ذلك كان الله محيطاً به وبأدق تفاصيله ، إحاطة العليم الحكيم ، المتسلّط المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر . حتى استخرج سبحانه من أنفس القوم ، ما لم يكونوا يعرفونه هم في أنفسهم ، على شتى حقائقهم : مؤمنين ومنافقين وكافرين . هذا إذن هو العنوان الخاص بأُحُد ، وهو ذاته العام للكون : حكمة لله وحاكميته وحده في خلقه .

وداخل هذا الإطار ، كانت تتحرك ، كذلك ، بإذن الله ، قيادة مكلفة ملهمة ، تقود أنصاراً لله ، لتصد وتصدّم بهم أعداء له شرسين وكثر . وتقع ضمن هذا الإطار مفارقات ، فيها من طرف أنصار الله فشل وتنازع بينهم في أمره سبحانه ، ومعصية كبيرة ، بعد أن صدقهم وعده في بداية المعركة. وعده هذا كان في آيتين نزلتا في الطريق إلى أُحُد ، بعد ظهور فجائي لفريق غدر وفجر وشكك ، ثم انفصل عن الجيش راجعاً إلى المدينة . ذلك هو فريق المنافقين ، بقيادة زعيم لهم ( هو عبد الله بن أبي سلول ) . هاتان الآيتان بلّغهما رسول الله (ص) للقوم فور نزولهما ، قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } . [ 149 – 150 : آل عمران ] .

\* \* \*

## حملة عسكرية إلى أُحُد :

ما كتبناه لغاية الآن في هذا الموضوع : ( حكمة الله وحاكميته في أُحُد ) هو عبارة عن شرح موجز لهذا العنوان الخاص — العام ، ومحاولَة تحديد لإطار المعركة . العِبْرَة ، يتضمن مقدماتها ومعالمها والنتائج . ففي المقدمات نبدأ بالسبب :

أما سببها ، فإن بقية من زعماء قريش ، ممن لم يقتلوا في غزوة بدر ، اجتمع رأيهم على الثأر لقتلهم في بدر ، وأن يستعينوا بغير أبي سفيان وما فيها من أموال لتجهيز جيش قوي لقتال رسول الله (ص) . فاجتمعت كلمة قريش على ذلك ، وانضم إليهم غيرهم أيضاً ممن يسمون بالأحابيش ، واستعانوا بعدد كبير من النسوة كي يمنعن الرجال من الفرار إذا أحدق بهم المسلمون . وخرجوا من مكة وقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل .

وسمع رسول الله (ص) بالخبر ، فاستشار أصحابه وخيّرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم ، والبقاء في المدينة ، فإن دخلوا عليهم فيها قاتلوهم ، فكان رأي بعض شيوخ من المسلمين عدم الخروج من المدينة ، وكان عبد الله بن أبي سلول من أصحاب هذا الرأي . غير أن كثيراً من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال في بدر ، رغبوا في الخروج ، وقالوا يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جبننا عنهم وضعفنا ... ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله (ص) حتى وافقهم على ما أرادوا . فدخل بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذين ألحوا على رسول الله (ص) بالخروج ، أنهم استكروهوه على ما لا يريد ، فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكروهناك يا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد . فقال رسول الله (ص) : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته ( أي درعه ) أن يضعها حتى يقاتل<sup>(1)</sup> .

(1) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد وروى الطبري قريباً منه 62/2 وتاريخ الطبري : 500/2 وترتيب مسند الإمام أحمد 52/22 .

ثم إن النبي (ص) خرج من المدينة في ألف من أصحابه ، وذلك يوم السبت

لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من هجرته عليه الصلاة والسلام<sup>(1)</sup>. حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحد ، انخزل عبد الله بن أبي سلول بثلاث الجيش ، وكان يتخذ منهم ( ميليشيا ) خاصة به ، وكرّر راجعاً وهو يقول : عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، وما ندري علام نقتل أنفسنا ؟

وتبعهم عبد الله بن حزام يناشدهم الله أن لا يخذلوا نبيهم ، فلم يستجيبوا لندائه ، وقال زعيمهم : " لو نعلم قتالاً لاتبعناكم " . في هذه الأثناء أنزل الله عزّ وجل قوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } . [ 149 — 150 : آل عمران ] ، وأبلغ رسول الله (ص) ذلك كما أسلفنا ، إلى الذين ثبتوا معه من المؤمنين . وفي الآية الأولى كما هو واضح ، سمى الله هؤلاء الذين انشقوا : كافرين ، { إن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا } وفي الآية الثانية { بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ } وعد بتوليهم بعنايته ورعايته ونصره . مما كان يجب أن يلزمهم بالطاعة لأوامر رسول الله (ص) بحرفيتها ، ويجعل كل واحد منهم بصلاية الصخر لا يلين ولا يشك ، ولا يولي الأدبار . فماذا الذي حصل ، حتى قلب الله لهم النصر إلى خذلان ؟ مما جعل بعضهم يظن الظنون برسول الله (ص) الذي أبلغهم وعد الله سبحانه ، وهم كانوا كذلك معتمدين على وعود كثيرة منه (ص) قبل ذلك اليوم ، بأن الله سينصر الإسلام والمسلمين على أهل الشرك .

الذي حصل هو ما فصله سبحانه بقوله : { حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ } أي جبنتم عن عدوكم وكفتم وطمعتم بالمغانم { وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ } . [ 152 : آل عمران ] . وذلك أن النبي (ص) عسكر وأصحابه في الشعب من أُحد ، فجعل ظهور المسلمين إلى أُحد واستقبلوا المدينة . وجعل على الجبل خلف المسلمين

(1) طبقات ابن سعد : 87/3 . وسيرة ابن هشام : 62/2 .

خمسين رامياً ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وأوعز إليهم قائلاً : " قوموا على

مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا  
نقتل فلا تنصرونا " (1) .

وأح كل من رافع بن خديج وسمرة بن جندب أن يشتركا مع المؤمنين في القتال  
وهما إنا خمس عشرة سنة ، فردّهما النبي (ص) لصغر أسنانهما ، فقيل له : يا رسول  
الله إن رافعا رام ، فأجازه ، فجاء سمرة بن جندب يقول : فأنا والله أصرع رافعا ،  
فأجازه هو أيضا .

وأمسك النبي (ص) بسيف فقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأقبل أبو  
دجاجة قائلاً : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فأخرج أبو دجاجة عصا حمرية فعصب  
بها رأسه ( وكان ذلك شأنه عندما كان يريد أن يقاتل حتى الموت ) ، ثم راح يتبختر  
بين الصفوف ، فقال رسول الله (ص) : إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن  
(2) .

فاقتتل الناس ، وحميت الحرب ، وراح المسلمون يحسون المشركين في اندفاع  
مذهل .

وقتل صاحب اللواء وكان من بني عبد الدار ، فأخذ اللواء علي بن أبي  
طالب رضي الله عنه ، وما هو إلا أن أنزل الله نصره على المسلمين ، فأنكشف  
المشركون منهزمين لا يلوون على شيء ونسأؤهم يدعون بالويل . وتبعهم المسلمون  
يقتلون ويغنمون . فتكلم الرماة الذين كانوا يرابطون على الجبل في النزول ، واختلفوا  
فيما بينهم ، فنزل كثير منهم ظناً منهم بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، وراحوا  
يأخذون مع أصحابهم الغنائم . وثبت رئيسهم عبد الله بن جبير مع بضعة من  
أصحابه قائلين : لا نجاوز أمر رسول الله (ص) . ونظر المشركون إلى

---

(1) ابن سعد 80/3 وابن هشام بألفاظ قريبة من هذه وروى نحوه البخاري 28/5 .

(2) ابن هشام 233/1 وروى مثله مسلم عن طريق حماد بن سلمة . إلا أنه لم يرد في  
مسلم : إنها لمشية يبغضها الله ( انظر صحيح مسلم : 150/7 ) .

خلاء الجبل وقلّة أهله ، فكروا راجعين بالخيال ، وحملوا على من بقي من الرماة ،

فقتلوهم وأميرهم ، وأخذوا يهجمون على المسلمين من الخلف .

ومرة ثانية كان قد أبلغ رسول الله (ص) المسلمين وعد الله بالنصر ، وقبل بدء المعركة ، حيث أنزل الله تعالى قوله : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } . [ 151 : آل عمران ] . ورغم أن هذه الآية طبعت بداية المعركة بطابعها العميق ، واستقطبت المشركين فيما بعد ، في حمراء الأسد ، الغزوة التي تلت أخذ ، فستبقى كذلك سنة من سنن الله تعالى في خلقه ، يرون مصاديقها في كل آن وزمان إلى قيام الساعة .

وعلى هذا الوعد المبارك من الله جلّ وعلا ، ترتب حسم المعركة في البداية لمصلحة المسلمين ، حيث وضعوا سيوفهم في رقاب أعدائهم الذين تضعضعت صفوفهم ، مع أول صدمة صدمها إياهم أنصار الله المسلمون ، ودفع بهم ما تملكهم من الرعب الشديد ، إلى الهرب ، حتى أن النسوة كن يتصددين للهاربين يعبن عليهم جنبهم وفرارهم . وقد اشتهر عن هند بنت عتبة ، زوجة أبي سفيان ، قائد المعركة آنذاك ، قولها شعراً ، تخرج به في وجوه الفارين من المعركة ، وبعض النسوة معها يرددنه ، فمنه قولها :

عَرَسُ الْمُؤَيِّ طَالِقٌ      وَالْعَارُ مِنْهُ لَاحِقٌ  
إِنْ تَهَزَّمُوا نُعَانِقُ      وَنَفْرُشُ النَّمَارِقِ  
أَوْ تَهَزَّمُوا نَفَارِقُ      فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ

وهكذا يحاولون إرجاعهم إلى ساح المعركة ولكن عبثاً . فأصبح المسلمون مهيمنين على المكان . ولكن بدلاً من أن يتعقبوا القوم ويكسروهم شر كسرة ، انشغل أكثرهم بالمغانم وجمعها من أرض المعركة ، وتركوا علياً بن أبي طالب رضي الله عنه مع مجموعة قليلة من الفرسان همهم طاعة الله وجهاد أعدائه من المشركين ، ينقضون على سراذمهم كالصقور والعقبان . وبينما هم كذلك ، صاح صائح : يا خيل الله ... إلتفّ علينا المشركون بخيلهم فارجعوا وراءكم . وصائح آخر يقول : ها هم يتوجهون إلى رسول الله (ص) وقد أصبح بينهم وحده . فالتفت الأبطال الذين ثبتوا ، فإذا الأعداء يضعون سيوفهم في رقاب المسلمين . وكان أول من قتل من

المسلمين من الخلف - بعد استشهاد ابن جبير ومن ثبت معه على الجبل - أولئك الذين عصوا الله ورسوله بنزولهم من حيث أوصاهم بالبقاء . فأبيدوا وهم منشغلون مع آخرين بجمع الغنائم . فكان أول هم يديهي لصاحب الراية ومن صدق الله معه من الفرسان والرجالة ، أن يعودوا محترقين ساح المعركة، وقد عاد المشركون الهاربون ليطبقوا عليهم من أمامهم ومن خلفهم بفكي كماشة. وأعانهم الله عزت عزته ، حيث وصلوا إلى النبي (ص) ليجدوه جريحاً في وجهه الشريف ، ينزف دماً غزيراً وقد أحرق به الأعداء من كل جانب ، لولا بعض الفدائيين الذين نصبوا أنفسهم تروساً حوله يتلقون بأبدانهم السهام والسيوف والرماح الكافرة . ثمانية أو أقل من ذلك ، أولئك الذين ثبتوا مع رسول الله (ص) حتى النهاية، بعد أن استشهاد دونه في سبيل الله من استشهاد، وقُتِلَ في سبيل الله أو في سبيل المغنم من قُتِلَ . أما الباقيون فقد ولّوا الأدبار في كل اتجاه تمكنوا من الهروب فيه . ولا سيما الذين صعّدوا الجبل خائفين هلعين لا يلوون على شيء . وقد صوّر الله سبحانه هذا المشهد ، ظواهره وبواطنه ، آيات رصدت في القوم حتى الأحاسيس والنوايا الدقيقة والعميقة ، فضلاً عن الصور الخارجية لتصرفاتهم وتحركاتهم السلبيّة منها والإيجابية . وسنجد كل ذلك ، من سبر أغوارهم وأعماقهم وكشف نواياهم ، على اختلاف معادهم آنذاك ، في هاتين الآيتين الكريمتين ، قوله تبارك وتعالى مخاطباً المسلمين ، وطبعاً بالطريقة القرآنية التي تقول الكثير الكثير من البيان ، بالقليل القليل من الكلام : { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } . [ 154. 153 : آل عمران ] .

{ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ } ، لا للنبي ولا لمخلوق غيره :

هم ، أي المسلمون ، آنذاك ، لعلهم اعتمدوا على نبوة النبي (ص) وعلى وعده العام بالنصر على المشركين . وباعتمادهم عليه (ص) اعتبروه الحصن والملجأ والمعقل الذي لا يضام ولا يرام ولا يحاول ولا يطاول ، ونسوا الله عز وجل ، الذي هو وحده المعتمد والحصن والملجأ والمعقل الذي لا يضام ولا يرام ولا يحاول ولا يطاول . فحاسبهم سبحانه على الإعتماد على غيره وهو المُعْتَمَد ، وعلى الاعتقاد بكفاية غيره وهو الكافي . وحكم عليهم بهذا الدرس التاريخي ليكونوا عِبْرَةً لأنفسهم وعِبْرَةً لغيرهم في مسار التاريخ إلى قيام الساعة .

وهذه واحدة في عمق الحدث .

ولعلهم كذلك اعتمدوا على حقهم بالنصر ، حتى ولو عصوا ولو أخطأوا ، كونهم مسلمين لله . فهم يطالبون الله سبحانه – بغير استحقاق – بحقوقهم المظنونة عنده ، فعلمهم بخذلانه لهم أدب الاعتقاد ، وأنه ليس لأحد حقٌّ على الله سبحانه . وإن كان هو تعالى جعل على نفسه حقوقاً للمؤمنين ، فإنَّ ذلك بتفضُّلٍ وتكريمٍ منه ورأفةٍ ورحمةٍ . وإلاً فالحقيقة أنه جلَّ شأنه خلق الجميع من العدم ، وتفضُّلٍ عليهم بنعمة الوجود ، ثم ببقية النعم التي يتميز بها البشر . ولولا أن رحمته تسبق على المؤمنين غضبه لما ترك على ظهرها من دابة ، ولذلك وبهذه المحاكمة التي رأيناها ، وسنراها بعد في الآيات ، وبإصدار هذه الأحكام ، يكون سبحانه قد تفضَّل عليهم وعلى من يأتي بعدهم من الناس ، بعلمٍ عميقٍ وتربيةٍ عاليةٍ تليق بأنصار الله ، وبجاملِي رسالته إلى العالمين .

وهذه ثانية في عمق الحدث .

وأما الثانية في عمق الوقائع فهذه : لعل النبي (ص) إذا لم يكن داخله شيء من الظن بعدم بشريته ، فقد داخل الآخرين ، حتى ظنوا به بعض الألوهة ، واعتقدوا

بأنه حيث يمسح بيده ، تمرع الأرض خصباً ، وتنبت زرعاً ، وتبرىء جراحاً ، وتشفي أمراضاً ، وتحيي وتميت ، وتنصر وتخذل على مستوى أفراد الناس ومجاميعهم ، وكل ذلك بدون الله عزَّت عظمته ، وبدون إذنه ، وحتى مع نسيانه ونسيان ذكره تبارك وتعالى عما يشركون .

والحق يقال ، إن هذه الحسابات هي لباب العلم الحقيقي الذي أراد الله أن يعلّمه ، وقد علّمه لعباده . ورغم ذلك كله ، فإن أكثر الناس ، حتى من أدياء العلم الديني ، يظنون في الأنبياء والأئمة والأولياء ، ألوهية تخرجهم عن بشريتهم ، ويعتقدون معها أنهم ينصرون ويخذلون ، ويحيون ويميتون ، وينسون أن هؤلاء الأنبياء والأئمة والأولياء ، منهم من تفرّق عنه أتباعه بعد أن أسلموه لعدوّه ليعذبّه ويصلبه ، ومنهم من انهزم عنه جنده حتى استفرد به الأعداء ، وجرح كما جرح رسول الله محمد (ص) وكسرت رباعيته ( السنن التي قرب الناب ) وهو أعز المرسلين . ومن الأئمة والأولياء من أؤذي شديد الأذى هو وأتباعه ومنهم من قتل وما أكثر من قتل من الأئمة ومن أولياء الله . فعلام لم يستطع النبي (ص) أن يرد عن نفسه حجراً رمي به فشجّه في وجهه الشريف ؟ وعلام لم يستطع استكمال النصر لجيش هو قاده بنفسه ، بعد أن نصره الله في جولة حاسمة محقّقاً له فيها وعده سبحانه ، ثم بسبب مباشر من معصية بعض الجند ، إذا بهذا الجيش ينهزم شرّ هزيمة ، ويجاوب رسول الله (ص) الصعود في الجبل فيقع لشقّه ؟ وعلام لم يرد الأئمة عن أنفسهم القتل بالسيف أو بالسّم أو بالمرض أو بأية وسيلة أو سبب من أسباب القتل أو الموت ؟ فما داموا هكذا لا يستطيعون أن يردوا عن أنفسهم ولا عن أتباعهم وهم أحياء ، فكيف يطمع بهم ويرجى منهم الإحياء أو الإمامة أو الشفاء أو النصر على الأعداء بعد أن ماتوا أو قتلوا أو حتى إذا كانوا أحياءً يرزقون ؟

أفلا يمكن أن يكون هذا الوجه ، كذلك هو المراد مع جملة الوجوه والعبر ، التي جعلها الله بليغة في وقعة أُحُد ، حتى لا ينساها الحريصون على الفهم والعلم وصرحة الاعتقاد وسلامة الدرب والولاء الذي لا بديل عنه لرب العالمين ؟ بلى ، والعقل والنص والسيرة والإجماع ، مؤيدات لذلك بقوة الحجة وسطوع البرهان .

هذه بعض الوجوه التي هي وَمَضَاتٌ من أنوار التفسير القرآني ، المكنونة في الكلمات وما بين الكلمات . ولكي نتأكد من { إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ } كما قال سبحانه ، وليس هو نبي ولا إمام ولا مخلوق من دون الله ، فلنقرأ في حنايا وقعة أُحُدِ وبين كلمات الآيات ، ولنعد ونأمل بدهشة وبخشوع عميق فيما نحن بصدده من الآيتين الكريمتين المذكورتين آنفاً : { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ... } ، لنرى مدى أفضال الله على عباده في عمر الدهر، منذ تلك الواقعة ، بما أظهر لهم من عبرها، وبما أنزل إليهم من آيات بينات لتكون لهم مرجعاً في كل حين وكل زمان .

ففي الوقت الذي كان رسول الله (ص) مشغولاً بالدفع عن نفسه ، وبضعة فدائيين معه مشغولين بالدفع عنه وعن أنفسهم ، كان بقية المسلمين يصعدون الجبل لا يلفتون إلى أحد ورسول الله في مؤخرتهم يدعوهم إلى الرجوع والثبات ومناهضة المشركين . ذلك قوله تبارك وتعالى : { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ } أما قوله سبحانه : { فَأَتَابَكُمْ عُمَّا بَعَمَّ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } فمتعلق بحمراء الأسد ، وهي المكان الذي وصل إليه المسلمون في اليوم الثاني متعقبين أهل الشرك .

وذلك انه حين انصرف رسول الله (ص) من أُحُدِ مساء السبت ، فبات تلك الليلة في المدينة هو وأصحابه ، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم . فلما صلى رسول الله (ص) الصبح يوم الأحد ، أمر بلالاً أن ينادي أن رسول الله يأمركم بطلب العدو ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ... ودعا رسول الله (ص) بلوائه وهو معقود لم يحل ، فدفعه إلى علي رضي الله عنه ، وخرج القوم

وهم ما بين مجروح وموهون ومشجوج ، حتى عسكروا بحمراء الأسد ( مكان من المدينة على بُعد عشرة أميال ) فأوقد المسلمون هناك نيراناً عظيمة ، حتى ترى من المكان البعيد وتوهم كثرة أصحابها .

ومرَّ بهم معبد بن معبد الخزاعي ( وكان يومئذ من مشركي خزاعة ) ثم تجاوزهم ومرَّ على المشركين ولهم زجل وزهو بالنصر الذي لاقوه في أُحُدِ ، وهم

يأترون بالرجوع إلى المدينة للقضاء على المسلمين ، وصفوان بن أمية ينهاتهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال ويحكم ! إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ... فأدخل الله بذلك رعباً عظيماً في قلوب المشركين ، وهبوا مسرعين عائدين إلى مكة . وأقام النبي (ص) في حمراء الأسد : الإثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة .

\* \* \*

### الثواب بعد العذاب : حكم الله على النية المقرونة بالعمل :

فذلك قوله تبارك وتعالى : { فَأَتَابَكُمْ عُماً بَغِمٍ } أي أن الغم الذي لحقكم في أخذ ، قد أُلْحِقَ مثله بالمشركين حين ألقى في قلوبهم الرعب فولّوا مغمومين هاربين منكم ، إذ تعقبتموهم وأنتم في حمراء الأسد .

والحقيقة ، أنها قضية إن لم تكن فريدة في تاريخ الحروب ، فهي نادرة جداً . وهي كما رأينا وبإيجاز : رجل قائد مسلم لله ، هو رسول الله (ص) يقود جيشاً صغيراً ، يقاتل به جيشاً ثلاثة أضعافه ، فيهزمه هزيمة نكراء في البداية ، وتتغير النوايا في أكثر جيش محمد (ص) ، فيقلب الله سبحانه الموقف عليهم ، فيقتل من أصحاب محمد (ص) أشاوس وأبطال وأعظمهم قدراً كان حمزة بن عبد المطلب ، البطل المعلم الذي كانت تهابه مكة بأسرها ، وهو العمُّ الأحبُّ إلى رسول الله آنذاك ، فيغتازل محمد (ص) أشد الغيظ ، ويتفرق عنه المسلمون ، مصعدين في جبل أُحُد ، فراراً من عدوهم الذي كان منهزماً أمامهم لساعات خلت . ويُجرحُ القائدُ النبيُّ (ص) جرحاً بليغاً في وجهه ، ويجرح العشرات كذلك ، وتنجلي ساح المعركة ، بعد أن ذهب المشركون منتصرين ، عن مناظر تفتك في نفوس المسلمين الذين عادوا لتفقد قتلاهم ، فتكاً ذريعاً ، كان حرياً معها — لولا اليقين والإيمان العظيم بالله — أن يهزم محمد (ص) هزيمة نفسية ، هو ومن ثبت معه ، لا سيما بعد أن شكك كثير من القوم

الذين رجعوا والذين شاركوا في المعركة - بُبُوتِهِ ، وبوعد الله له بالنصر ، بعد أن باؤوا بالقتل والجرح والهزيمة . ثم استقبل المنافقين لهم بالشتمات ، وكذلك الفرحة التي عمّت اليهود في حصونهم في المدينة وخارجها . كان كل ذلك محتملاً أن يقعد بالمسلمين هؤلاء عن متابعة القتال في اليوم التالي ، وخصوصاً لأن جراحهم ما زالت نازفة ، وكسورهم موجعة ، والإرهاق الذي أصابهم لا يزول بنوم ليل .

### الله يقوّي الأنفس التي يعلم بها خيراً :

تاريخي وفريد ، ذلك الذي حصل في صبيحة اليوم التالي للمعركة الكارثة ، إذ نادى منادي القائد العام ، أن يا جرحى ويا مرهقين ، ويا حزاني ، قوموا وحدكم إلى اللحاق بالعدو القوي المنتصر ، ولا يقومنّ معكم أحد ممن لم يشهد أمس حربنا . وما هي إلا لحظات ، حتى أخذت باحة المسجد تزدحم بهم ، أولئك الذين ثبتوا بالأمس وكذلك الذين قال تعالى فيهم : { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجُمُعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } . [ 155 : آل عمران ] . وقوله تعالى : { إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا } يعني فيما مضى من الخطايا فقيض الله لهم شيطاناً بعدما عقدوا النوايا السلبية ، فكان ما لحقهم من جراء ذلك من غم وأذى عقوبة لهم على ما سلف ، وكانت العقوبة كفارة { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. } . [ 179 : البقرة ] . وهكذا فقد عفا الله عنهم ، وتولاهم بعنايته وبرعايته ، فرفع معنوياتهم

وأعلى همهم وشدّد من عزائمهم ، بعدما جعل نومهم في تلك الليلة ، نوماً عميقاً ، مريحاً ، شافياً من التعب والوجع ومضاعفات نتائج الجراحات . ذلك بعد أن صحّت نواياهم بعد الرجوع من المعركة وندموا على تفرقهم عن قيادتهم ومعصية أوامرهم ندماً كاد يكون قاتلاً . ولذلك حين نادى المنادي للجهاد في سبيل الله وسبيل الذود عن دينه المجيد ، نفروا كأفضل ما تكون نفرة الأصحاء ، الأشداء ، ملبين مكبرين لا تأخذهم في الله لومة لائم .

وقد بدأ الله سبحانه بإثابتهم فور تصحيح نواياهم ، قوله تبارك وتعالى : {  
... فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا  
تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ ... } .  
[ 153 . 154 : آل عمران ] .

والله يترك المنافقين تحت وطأة همومهم :

وذلك في قوله تعالى : { ... وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ  
الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ  
يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا  
قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى  
مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
بِذَاتِ الصُّدُورِ } . [ 154 : آل عمران ] .

كذلك العذاب في الدنيا ، درجة من درجاته : { ... وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ  
أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ... } . هؤلاء طائفة من المسلمين في المدينة ، الذين  
انشقوا وبعض الذين شهدوا المعركة وتولوا هاربين : استخرج الله من نفوسهم ما لم  
يكن يعرفه محمد (ص) ولا أحد من العالمين : الأنانية ، والحرص على الدنيا ، حتى إن  
مطلب السلامة عندهم هو سيد المطالب ، ولو كان يغضب رب العالمين . وهم بذلك  
غير سعداء ، بخلاف ما يتوقعون ، فإن هذه الحالات النفسية التي يعانون منها هي  
حالات مرضية ، حالات تفقس وتفرخ بدلاً من السعادة المتوهمة ، هما وكمداً ، وضيقاً  
في الصدر والنفس والتفكير . ذلك لأنهم يظنون بالله غير الحق ظن أهل الجاهلية  
، الذين ما عرفوا الله إلا وقد أشركوا به . وإن كان بعضهم عرفه إلهاً واحداً أحداً ، فما  
عرف مدى حاكميته وهيمنته وإحاطته بالكون وبالإنسان إحاطة استبطن لا يدرك  
مداها وتفصيلها الغيبية أحد غيره من خلقه . وهؤلاء المنافقون نمط موجود بيننا  
اليوم ، وهم من الكثرة بمكان ، كما إنهم موجودون في جميع مراحل التاريخ . لذلك  
، فإن آيات القرآن الكريم التي تحمل معاني مطلقة ، هي لا تعني فقط ، وقت النزول

ومناسبة النزول وأولئك الأشخاص بأعيانهم فحسب. وإنما توجب على أهل كل زمان الإفادة منها ربطاً بالوقائع والظروف والتعامل مع الناس حسب نوعياتهم وأوصافهم الظاهرة والمستبطنة، التي أخرجها لنا الله سبحانه لنثبت منها في نفوسنا ما كان في حب الله شرفاً لنا وللإنسانية، ولنباعد منها ما كان بغيضاً إلى الله تعالى كالنفاق والجن والحسنة والدُّل والطمع والأناية والشك بوعده الله ووعدته ومهادنة المحاربين من الكفار وأهل الشرك وجملة أعداء الله وأعداء تعاليمه.

أما قوله تبارك وتعالى : { ... يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ... } . [ 154 : آل عمران ] ففيه بيان اعتقادهم الخاطيء ، ثم فيه الحقيقة التي يخبر عنها سبحانه في مواجهة هذا الاعتقاد وتقرير بطلانه . أما اعتقادهم ، ففيه تلميح أولاً ، إلى أنهم أتوا إلى المعركة مكرهين وشاكين بوعده الله سبحانه ووعد رسوله (ص) ، مما يجعل الإنسان الذي كذلك شأنه ، متردداً في المواقف ، جباناً في المواجهات القتالية . وثانياً سوء ظنهم برعاية الله وإحاطته العامة والمفصلة بالأحداث والوقائع والأفراد ، وكذلك هيمنتهم على المقدمات والنتائج وما يستتقطب المقدمات والنتائج من الأسباب السابقة والطارئة واللاحقة . وأنه سبحانه أسرع الحاسبين . لذلك إذا قتل أو جرح أو كسر أو أصيب بأية مصيبة إنسان ما ، فإن هؤلاء وأمثالهم في الدهر ، يعزون ذلك إلى الصدفة ، وإلى الأسباب الظاهرية المرافقة للحدث ، دون الإلتفات إلى الأسباب والمقدمات التي يحيط بها الله سبحانه ، والتي بموجبها يُقرَّر النتائج ، ويوقعها تامةً بدون أي خلل ، أو نقص أو زيادة . تلك هي عدالة الله سبحانه ، المبطنة دائماً برحمته ورأفته ، وغفرانه وعفوه لعباده الصالحين والموقنين والمؤمنين : { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } . [ 19 : الأحقاف ]

وأما قوله تبارك وتعالى : { ... وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ... } فهو خطاب موجه للجميع : للمؤمنين على درجاتهم ، وللمنافقين على درجاتهم ، وقوله سبحانه { وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ } ابتلاءً ، والابتلاء هو

الإصابة بالبلاء بمعنييه : إما الفلاح وإما المصيبة . { وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ } أي ليخلصها من الشك . بقي قوله عزَّ شأنه : { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } أي أنه تبارك وتعالى يعلم بالفكرة وأسبابها وعناصرها قبل أن تتجمع لتتعد نية عند صاحبها ، فإذا صدرت عنه بعزمٍ كامنٍ أو بقولٍ أو بعملٍ ، تخرج عن كونها نية وتصبح ذات الصدور .

### تعليم تحت طائلة المسؤولية :

ومن الآيات المتعلقة بوقعة أُحد ، والتي جعلت درساً بليغاً وملزماً للمؤمنين إلى يوم القيامة ، قوله تبارك وتعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ } . [ 156 – 158 : آل عمران ] .

يريد الله تعالى بهاتين الآيتين التركيز على الحقائق وضبط الاعتقاد والتفكير عند المؤمنين ، تخلصاً لهم من الهم والغم من جهة ، ومن جهة ثانية التسليم لقدر الله وقضائه ، وحسن التوكل عليه سبحانه ، والثقة القصوى به ، وبإحاطته بالأمر ضبطاً وربطاً من جميع وجوهها ونواحيها .

وكم يخطيء الناس في إصدار أحكامهم على الوقائع ، ولا سيما ما يتعلق بالموت إذا ضرب بعضهم في الأرض ، مسافرين مغتربين عن ديارهم ، أو إذا كانوا غُزًى ، أي غزاة مجاهدين في سبيل الله ، فماتوا أو قتلوا ، فإن أحكامهم غالباً ما تأتي باطلةً ، يأتمون بها ويستدعون بذلك غضب الله سبحانه . وذلك بأن يزعموا أن هؤلاء الذين ماتوا أو قُتلوا في سفر أو جهاد في سبيل الله ، لو كانوا عندهم أي في ديارهم ما ماتوا ولا قتلوا . وهذا الزعم الباطل ، هو جهل بحاكمية الله وإحاطته بالأمر ، لذلك هو سبحانه يعلمهم الحقائق ، تارة بقوله تعالى كما في الآية السابقة : { ... قُل لَّوْ

كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ...} . [ 154 : آل عمران ] وتارة كما في هاتين الآيتين حيث يعتبر التشييط عن الجهاد في سبيل الله وزعم الصدفة في الموت أو القتل كفراً بالله وكفراً بقدره وقضائه وسيطرته على الكون بجميع تفاصيله. ونحن إذ أَلزَمْنَا أَنْفُسَنَا بِهَذِهِ الْمَعَانِي الْمَأْخُذَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، فَلَا نَهَا حَقَائِقَ تَوْخِذَ مِنْ مَصْدَرِهَا الْأَعْلَى وَالْأَصْفَى . قال تعالى : { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ... } . [ 17 : الشورى ] .الحق مصدر ( حق ) وفيه مجموع الحقائق ، مثل الرَّقِّ ، مصدر ( رَقَّ ) وفيه مجموع الرقائق ( والميزان ) أي العدل بين المقدمات والنتائج وفي كل شيء في الكون . قال تعالى : { وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنشُورٍ { [ 2 - 3 : الطور ] . وقال سبحانه : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ } . [ 7 - 8 : الرحمن ] . فإذاً هي الحقائق في الآيات القرآنية ، والآيات القرآنية تعاليم ، أي إنصراف عنها أو إخلال باعتقادها والإلتزام بها ، ينتج عنه إخلال ونقص في الدين وفي طاعة رب العالمين . فيختل الميزان ، وتترتب على المقدمات الخاسرة ، نتائج خاسرة ، إلا من يسرع بالتوبة والإنابة وترميم ما فات ، فإن الله يحب التوابين .

ومن هنا يتبين معنى قوله تعالى { ... لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ... } . [ 156 : آل عمران ] هو عدله سبحانه ، وهو المعادلة التي في التعليم: ظنوا بالله ظن السوء ، فدارت عليهم دائرة السوء . نسوا الله ، ونسوا ذكره ، ونسوا أو جهلوا أنه هو سبحانه يحيي ويميت أينما كانوا ، فأعقبهم ذلك في قلوبهم حسرة وضيقاً وتأزماً يفتك بأنفسهم وبأعصابهم ، بقدر إصرارهم على الضلالة والجهالة .

أما قوله تبارك وتعالى ، بعدها ، { وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ } بدون قيد ولا ربط بموضوع الإحياء والإماتة ، فإذاً يعني ذلك إطلاق المعاني والمواضيع المرتبطة بحياة أو بموت ، ويعني ذلك أننا مهما توسعنا في معاني هذا القول ، الحقيقية والجازية ، نكون ما زلنا ضمن المطالب المقصودة ، ومن هذه المطالب ، قوله تعالى : { أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ } . [ 10 : ص ] . فهو سبحانه { يُحْيِي وَيُمِيتُ } في ملكه ، وملكه لا يملك أحد فيه شيئاً غيره ، فهو مالك

الملك ، وملكه السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وفي طوايا هذا الملك هو سبحانه { يُحْيِي وَيُمِيتُ } ، فالذين لا يؤمنون بذلك ، أو لا يعجبهم ، أو يعترضون عليه ، { فَلْيَرْتَفُوا فِي الْأَسْبَابِ } أسباب السماوات والأرض ، أي دروبها ومسارها وغيوبها ، ذلك هو التحدي بالحال ، أو بمعنى آخر مضاف إلى هذا: فليتحكموا هم بالأسباب ، إما أن يفرضوها فرضاً ، وإما أن يمنعوا نفاذها ، وكذلك هذا عليهم مستحيل ، وهكذا يكون قوله سبحانه { وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ } هو خلاصة هاتين الآيتين وخلاصة مالكيته وقهره بالموت وإنعاشه بالحياة ، على أساس عدله وميزانه : أعلم وأطع وثق بالله وتقرب إليه واستتر بكتابه = تنج من الظلام والجهالة وتنتد إلى طريق مستقيم لا ملتو ولا موحش ، ولا مهلك ، ولا تنالك حسرة ولا ندامة دهر الدهرين . ومعادلة أخرى هي أرقى من هذه ، لمن يطلبون المزيد ، للصديقين المجاهدين الطموحين ، الذين توصلوا بعد اليقين إلى الحب الأقدس ، أي أحبوا الله أكثر من أي شيء في الوجود ، وأغلى أمانيتهم وطموحاتهم أن يحبهم الله جلّت عظمته . فتلك معادلة في قوله سبحانه مخاطباً محمداً (ص) : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... } . [ 31 : آل عمران ] أي كونوا مثل محمد (ص) صدقاً وقيناً بالله وبوعده ووعيده ، وكونوا مثل محمد (ص) دعاءً إلى الله وحده ليس لأحد من خلقه أبداً ، وكونوا مثل محمد (ص) مستنفرين

استجابةً لأمر الله وطاعةً لتعاليمه ، وكونوا مثل محمد (ص) لا تستغيثون بأحد غير الله ولا تدعون أحداً غير الله ، ولا تستنصرون بأحد غير الله . وكونوا مثل محمد (ص) مجاهدين في سبيل الله وحده ، لا في سبيل أرضٍ ولا مالٍ ولا نبي ولا إمام ولا ولي ولا زعيم ، ولا قائدٍ ولا رئيسٍ ، ولا مخلوقٍ من خلق الله سبحانه وتعالى عما تشركون . ترسموا آثار محمد وتعالى محمد (ص) عن الدنيا وتساميه عن دناياها واجعلوا أغلى وأعلى مطلب في أعماركم رضى الله وقربه وحبّه ، بذلك وعند ذلك يحبكم الله ، وما أعزّ وما أغلى وما أسمى ، وما أعذب وما أجمل وما أروع .

وأما قوله تبارك وتعالى : { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ

اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ. وَلَئِن مَّثْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ } . [ 157 ] .  
158 : آل عمران ] .

نفس الإنسان إذا لم تكن ممهورةً بتعاليم الله ، مزكاةً بتزكياته ، مصفاةً بطاعته وأوامره ونواهيته ، فإن ميلها إلى الراحة والسلامة وحب العافية يكون شديداً ، بخلاف الذين باعوا أنفسهم وأدمغتهم وقلوبهم لله تبارك وتعالى ، فهؤلاء وحسب درجاتهم ، أقلُّ حرصاً على الحياة ، وعلى الدنيا وما فيها . ومنهم من يشترق إلى لقاء الله تبارك وتعالى ، غير مبالي بما يفوته من قيودها التي من ذهب أو زمرد أو جمال فإن ، أو أي شيء يقطعه عن حب الله أو يمنعه من ذكر الله .

لذلك نجد كيف أن ذكر الموت أو القتال أو القتل ، يجعل وجوهاً تمتنع وقلوباً تخفق خوفاً ووجلاً ، ونفرة من هذه المعاني ومستدعياتها . علماً بأن حصول الموت مع الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، هو حالة تحوُّل إلى الأفضل والأحسن والأجمل ، بدرجات ، أدناها ، أفضل من الحياة الدنيا بجميع وجوهها . ولعلَّ كثيراً من الناس لا يعرفون حقيقة الموت ، فلذلك ينبغي أن نعرِّفه .

## تعريف الموت

الموت هو فصل النفس عن البدن .

أو بعبارة أخرى :

الموت هو انفصال العنصر الفاعل الإنساني الذي هو النفس الباقية ،

عن العنصر المنفعل الظرفي الذي هو البدن الفاني .

أو بتعبير آخر :

الموت هو تحرير عنصر الحياة من قابله الجسدي ( المادي بالمعنى المتعارف ) .

ولهذا، ولجمال ما بعد الموت للمؤمنين في الحقيقة، قال تبارك وتعالى كما رأينا في الآية 157 من آل عمران ، التي نحن بصدددها : { وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } .

ثم يردف قوله تبارك وتعالى بعدها: { وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ } .

وما زال الخطاب للمؤمنين لأنه في سياق قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ... الآية } فقوله تعالى : { وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ... } أي لئن قتلتم في سبيل الله دفاعاً عن دينه ملين لأمره في مجاهدة أعدائه باليد أو القلم أو اللسان - ما لم يستدع الأمر قتالاً - فدرجاتكم درجات الشهداء، { أَوْ مُتُّمْ } مؤمنين بالله وكتبه ورساله وملائكته واليوم الآخر وعملتم الصالحات ، فدرجاتكم درجات الصديقين . وكلما كان الحشر إلى الله ، أقرب مكانة ومنزلة عنده سبحانه كلما كان الأمر أعلى وأسمى . وذلك في قوله تبارك وتعالى : { ... لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ } . فيجعلكم في درجاتكم ومنازلكم ، وهي وإن اختلفت نوعاً وكمّاً ، إلا أنها بمجموعها درجات نعيم ورضى ورضوان ، { وللرضوان الله أكبر لو كانوا يعلمون } ، وهذا ، وليس الحشر إلى الله مقتصراً على المؤمنين ، فالحشر إلى الله ، هو حشر يوم القيامة ، يوم تحشر فيه جميع الخلائق ، قال عز وجل : { يَوْمَ نُحْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا } . [ 85 : مريم ] . وقال سبحانه { لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا } . [ 172 : النساء ] .

## الأخلاق توفيق من الله ... والنصر ليس من النبي

وفي سياق مجموعة الآيات التي في سورة آل عمران، والتي تتعلق بواقعة أحد، قول الله تبارك وتعالى :

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفُتِنَّا مِنْهُمُ

حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ. إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}. [161.159: آل عمران ] .

## لماذا الآيات ... ولماذا القرآن ؟ ...

قبل أن نبدأ بشرح هذه الآيات الكريمة ،نتدارك رد فعل قد يحصل عند بعض القراء، ناتجاً عن اعتمادنا في حصص الركائز الاعتقادية والنفسية والاجتماعية، على آيات من القرآن الكريم، بما في ذلك تقارير تحقق في السلوك الإنساني وتفصل بين ما هو واجب منه أو مستحب مستدع لرضى الله سبحانه وبين ما هو منكر ضارٌّ بالشخصية الإنسانية، وكل ما يضر بالإنسان ، لا يحبه الله ، فهو يستدعي غضبه ومقته وعقوبته سبحانه .

وردُّ الفعل هذا الذي نحتمله، ونتوقعه، قد حصل لنا في كثير من لقاءاتنا مع إخوان لنا، كانوا رغم تدينهم، يحتجون على أمور اعتقادية صرفة، بروايات وأحاديث وحكايات غير محققة، وكونها مكتوبة في بعض الكتب ومسندة زوراً إلى نبي أو إمام أو ولي من أولياء الله ، فهم يعتبرونها مقدسة ونهائية، فيتعبّدون بها ، وتكوّن عندهم بمرور الزمن عقيدة ثابتة، حتى إذا اكتشف أحد الناس زيفها وبطلانها، ونسبها كذباً إلى أولياء الله، صعبت زحزحتها من نفوسهم، وشرعوا يجادلون بالحال، وبحماس أعمى وأصم، تتراوح درجته بين الإقفال المطلسم وبين الإنفتاح التدريجي أو الفجائي عند الذين يريد الله بهم خيراً .

ولذلك كله، وبسبب من انصرافٍ عريضٍ من الناس عن كتاب الله المجيد، انصرافاً جعلهم في أمية حقيقية بالنسبة لآياته البينات، وثقافة واسعة فيما هبَّ ودبَّ من الروايات المكذوبة عند العلماء والحقّيقين ، يتلقفونها من كتب تجارية ، تستثير مشاعر البسطاء ، وتعلمهم عن طريق الإثارة العاطفية ، ديناً هجيناً مليئاً بالبدع

والترهات. حتى إذا واجهت هؤلاء الناس بآية قرآنية مما قال الله سبحانه ، صدفوا ووجموا، ثم قالوا أو تهامسوا : ولكن كيف نفهم القرآن ؟ يقولونها وكأن القرآن كتاب طلاس، لا يفك عقدها إلا أهل الاختصاص. وهذا من أعجب الأعاجيب في الحقيقة، لأن القرآن وإن كان فيه بعض الأسرار والخصوصيات المرصودة للراشخين في العلم، إلا أنه في معظمه، وضع للناس بجميع درجاتهم، حتى الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، إذا عزم متوكلاً على ربه، رب القرآن، ورب العالمين، يستطيع ببساطة أن يفهم القرآن، وسع طاقته، حيث { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... }. [286 : البقرة] كما يستطيع أن يحفظ القرآن بعضه أو كله .

ثم من الدواهي الدهياء، الإنصراف عن القرآن، والتعبد بغيره، حيث أن الإلزام هو التعبد به كونه كتاب الله وكلام الله، فضلاً عن أن الله سبحانه قد أمر بذلك في أكثر من نص مفحم ملزم. قال عز وجل: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } . [24:محمد] ، وفي ذلك ذمٌ وتحقير وغضب على الذين لا يقرأون القرآن ولا يهتمون بمعانيه وتفسيره والتعبد بآياته البينات، حتى بالدعاء بآيات القرآن، كما أسلفنا في موضوع عقدها لهذه الغاية في هذا الكتاب، فراجع، وقال سبحانه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } . [ 31 : سبأ ]

وهذا يعني، أن بعض المستكبرين، كما في نص الآية الكريمة، الذين هم في مواقع التأثير والتوجيه والإستقطاب، يجعلون أتباعهم يتعدون أو يزهدون بكتاب الله، وبعضهم، تحت تأثير وراثي، أو عاطفي، أو تعصيبي، يقود الأتباع، إلى التعبد بروايات وأحاديث مزعومة عن النبي والأئمة والأولياء، ويا ليتها تكون حقيقة صادرة عن النبي والأئمة والأولياء. لأنها إذا كانت كذلك، فستكون إما حياً وإما إلهاماً، وإما تفسيراً لآيات القرآن المجيد، وبالتالي ستكون دعوة إلى الله، وتعبداً بشريعته وأحكامه وتعاليمه. ولكنها بإجماع العلماء، إن لم تكن محققة لا سيما بقبول القرآن الكريم لها، فهي مدسوسة أو مختلقة وما أكثر ما دسَّ تاريخ الزندقة والإسرائيليات

والعصبية العمياء ، في هذه الروايات ، مما يستحيل على المؤمنين العاديين أن يميزوا بين الصحيح منها وبين الكاذب .

وما دام الأمر كذلك ، فلماذا هذا الإعراض العجيب ، عن القرآن الكريم وهو العين الصافية ، والنبوع العذب الزلال ، والإقبال على ما فيه الريب والمسؤولية أمام رب العالمين ، التي ربما تكون عاقبتها جهنم وبئس العاقبة ، وبئس المصير .

وإذا كان لا بد من الأخذ بروايات صحيحة لا بد منها،وهو كذلك، فليترك ذلك للعلماء وأهل استنباط الفتوى وأهل الفقه والرواية والدراية. أما أن يتصدى العامة، هذا التصدي المرعب، إلى التعبد بالروايات بديلاً عن كتاب الله وكلام الله جلّ وعلا، فهو مما يعرض الأمة بمجموعها للانحراف وهو واقع الآن بها، والمعاناة منه شديدة، تحتاج من كثير من العلماء إلى موقف حاسم وحازم وجريء، ربما يقتضي توضيحات في سبيل الله وسبيل الدفع عن دينه والدعوة إليه سبحانه وإلى كتابه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تبارك وتعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}. [39: الأحزاب] فمن لهذا الأمر إذن، إذا بقي العلماء الحقيقيون الأفاضل ساكتين، وبقيت المشكلة تتفاقم وتتعمد، وتستدعي غضب الله ونقمته على الجميع ؟

## ولماذا الآيات ؟ ولماذا القرآن ؟

في مثل هذا الموضوع : " الأخلاق توفيق من الله ... والنصر ليس من النبي " الذي اخترناه عنواناً لثلاث آيات ، في سياق آيات واقعة أُحد . قلنا في مثل هذا الموضوع : " الأخلاق ... والنصر ... " يخوض الكتّاب والمفكرون فيه خووضاً عجيباً ، حتى أن آخر مطاف أوصلوا الأخلاق إليه هو مطاف الجدلية الفلسفية ، وآخر محطة أوصلوا إليها النصر وأسبابه ، هي المحطة الحديدية ، أي الكثرة والقوة الظاهرية .

وبما أن الأمثلة الكثيرة على أرض الواقع ، ترد هذين المرعمين ، فتحمل

الأخلاق من جهة على الأصالة والإختيار ، وتحمل النصر على النوايا والإعتقاد ثم تحمل الجميع على علم الله عزَّ وجل ومشيئته وتقديره وقضائه .

ويستحيل أن تُفهمَ أبعاد هذه القضايا ، من علم النفس أو علم الاجتماع ، أو بقية العلوم الإنسانية ، مجردةً عن حاكمية الله ، ورقابته ، ومشيئته وهندسته للأمر ، ثم حسمها بما يسمى حتمية القضاء ، قضاء الله تبارك وتعالى .

## لذلك الآيات ... ولذلك القرآن .

فَعَلِمُ اللهُ تَعَالَى بِالْأُمُورِ ، ثم مشيئته ، ثم تقديره ، ثم قضاؤه ، تلك هي المقدمات والنتائج وما بينهما لكل حدث أو واقعة أو أمر من الأمور ، ليس على أساس مبدأ الجبر والتحكم ، ولكن على أساس مبدأ السببية والإختيار النسبي ، الذي يحفظ للإنسان حريته ضمن الموازين ، التي لا تضر بمصلحة الفرد الشخصية من جهة ، ولا بمصلحة المجموع الإنساني من جهة ثانية . فإن أضرت بإحدى الجهتين أو بكليهما ، كانت العقوبة المطابقة لنسبة الضرر، عدلاً ، اقتضاه الشرع ويقتضيه العقل ، وكلاهما ميزانان متداخلان في ميزان واحد ، هو هبة الله ، وتكريمه لأهل الكرامة من خلقه ، وذلك في قوله تبارك وتعالى : { اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ... } . [ 17 : الشورى ] .

لذلك ، وبسبب من ذلك ، كان اعتمادنا على الآيات البينات في القرآن الكريم ، وسيلةً لضبط المسار ، وعدم التعرض للمطبَّات الفكرية والإعتقادية ، وبالتالي لإبراء الذمة ، في سلوكنا طريقاً ، هو الأقصر والأقدس بين الدروب والمسالك : هو الدعوة إلى الله .

والآن ، يطيب لنا الرجوع بإذن الله تعالى ، إلى الآيات الثلاث التي اخترنا لها ذياك العنوان : " الأخلاق توفيق من الله ... والنصر ليس من النبي " . فقول الله تبارك وتعالى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ } ، هو الله إذن سبحانه وتعالى ، لئن قلب محمد (ص) على القوم ، بعد أن أعاظوه غيظاً شديداً باهتمامهم إياه وتفرقهم عنه

وإفراده عرضةً لسيوف العدو وحجارته وهجماته ، ولولا أن أشيع أن محمداً (ص) قتل ، لما رجع القوم المشركون إلى ديارهم ، مزهوين بالنصر وبالخلاص من محمد ومن دين محمد (ص) . وغيظ محمد (ص) من المسلمين الذين فرّوا من المعركة أمر طبيعي ، وكذلك افتراض خشونته وغلظته عليهم حين يلقاهم وإظهار أسفه وغضبه ، ولكن كل ذلك الذي كان بديهيًا ومتملاً لم يحصل ، وإنما حصل مكانه الرفق واللين والتسامح ، كذلك بتوفيق من الله سبحانه وأمر منه لرسوله (ص) بأن يعفو عنهم ويستغفر لهم الله بهم ويشاورهم في الأمر، وكل ذلك يعتبر قمة في الأخلاق التي كانت رائدة لمحمد (ص) من ربه الحليم الكريم ، والتي جعل بها محمداً (ص) رائداً أخلاقياً وعسكرياً على مستوى التاريخ الإنساني . تتلمذ محمد (ص) على عظمة ربه وحلم ربه ، ورحمة ربه رب العالمين ، ونجح ، فكان رسول الله المفلح المنجح ، وكان القائد العسكري الفذ ، الذي ما زالت تستلهم سياسته الميدانية وخطه الرائعة ، وكيفية استفادته حتى من الهزيمة في عبقرية تعامله مع جنده من جهة ومع العدو من جهة ثانية .

هل هي قابلية محمد (ص) وقدرته على التعلم من ربه المجيد رب العالمين ؟ نعم ، هذا صحيح ، وإنما ماذا كان فعل محمد (ص) بذكائه الفذ وقابليته وقدرته ، لو لم يعلمه الله ، ولو لم يسدده الله ، ولو لم يؤيده الله تبارك وتعالى ، وعزّ وجلّ شأنه ،

وكذلك لو لم يلين قلبه الله سبحانه على عسكره الذي خذله ، وجنوده الذين تفرقوا عنه وحتى شككوا آنذاك بصدقه ونبوّته ، كحصيلة نفسية فورية لتلك الهزيمة المنكرة ؟

فلنتأمل في صنع الله في نفس محمد (ص) : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ } أي برحمة من الله وحده ، وليس منك ولا من أحد غيرك ، هذا درس أول ، وبعده التعليل : { وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ } والفظظة : الخشونة والشدة . وغلظة القلب : الجفاء والقسوة فيه ، والإنفضاض من حوله : التفرق عنه . وهذا درس نفسي وأخلاقي واجتماعي ثانٍ . { فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ { العفو عنهم هو أن لا يبقى في نفسه أي شعور سلبي بخصوص أحد منهم ، فالعفو والحو سيان . { وَاسْتَعْفِرْ لَهُمْ { الله ربهم ، فاستغفارك أنت لهم أدعى لراحتهم النفسية لعلمهم بدرجتك المميزة عند ربك وربهم ، ولمعرفتهم بأن دعاءك عنده سبحانه مستجاب . { وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ { تداول معهم الرأي ، تأنيساً للجفاة منهم ، والذين ما زال فيهم بعض حب الجاه ، فضلاً عن أهل الخبرة والتمرس في الحروب والمواطن والمواقف . وهذا سبق إسلامي تاريخي في مجال الأخلاق والإخلاص لله والديمقراطية. ويبقى قوله تبارك وتعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ { فإذا عزمْتَ طبعاً ، بتسديد وتوجيه من الله سبحانه إما عملاً بأمر الله ، بوحى أو نص أو حكمة يؤتيها سبحانه ، وإما بخلاصة الشورى ، ولذلك آداب تحفظ كرامة المجموع ربطاً بكرامة الأمة ، وتتيح المخارج المنجحة ما دام الإجتهد في سبيل الله سبحانه وحسن التوكل عليه . وذلك في قوله تبارك وتعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ { . وذلك من أعظم عطاءات الله سبحانه ومنه ، أن يجب من يتوكل عليه ، مجاهداً مجتهداً ، وفاعلاً ومنفعلاً برقابة الله وقيوميته ، وتأييده وتسديده . هو الناصر ، وهو الغالب ، لا ردَّ لحكمه ، ولا جدال في قضائه . قوله تبارك وتعالى : { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ { وهذه قاعدة إلهية لا تقبل المناقشة . { وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ { . [ 29 : التكوير ] فلو أن قوماً أعدوا العدة والعدد فقط للنصر ، ما انتصروا ، إلا أن يأذن الله تعالى أو يقدر لهم ويقضي ، سواء كان ذلك في جاهلية ، أو في إيمان وإسلام ، إذ لا بدَّ دائماً من مرجح لأحد الفريقين المتحاربين . فإذا تساويا كانا مصداقاً لمقولة لا غالب ولا مغلوب ، وهو سبحانه القاهر الغالب فوقهما ، هذا في تاريخ ما تحت السماء الدنيا وما فوقها ، إذا كان في مكان ما ، غير هذه الأرض قتال .

إلا أن هناك سنة من سنن الله ، غير { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ { تتفرع عن هذه . وهي أنه سبحانه قضى بنصر المؤمنين بشكل عام ، على الكافرين بشكل عام ، في عمر الدهور ، وجعل لذلك أسباباً ، أولها أنه هو سبحانه مسبب الأسباب ، فالواجب التوجه إليه في طلبها وتوفيرها ، أو توقُّعها من خلال حسن

التوكل عليه سبحانه ، والتسليم لأمره وذلك بالنقوى والصلاح والإستقامة : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } . [ 2—3 : الطلاق ] .  
وثانيها ، صدق النية في المواقف ، وصدق العزيمة ، فأَيَّ شك برقابة الله سبحانه وبرعايته وبهيمنته على الكون وإحاطته بالأمر والنفس والنوايا ، يعرض الموقف للخطر ، خطر الهزيمة أمام الأعداء ، ولو كانوا كفاراً أو مشركين ، وسواء كان ذلك على صعيد الأفراد ، بمعنى أنه إذا أخل بهذه الموازين النفسية والعملية أفراد ، فإن العقوبة الميدانية أو المؤجلة ، من الله ، تقع عليهم دون المجموع . أو كان الإخلال من المجموع ، أو المجاميع ، أو الأمة كلها . فإن كانت نسبة رضى الله سبحانه عليهم معقولة ، كانت نسبة النصر مرهونة بتلك النسبة . وإن كان غضبه هو الواقع على هذا المجموع أو ذاك ، أو على الأمة ، وخاصة بسبب الولاء . حيث أنه سبحانه يفرض الولاء فرضاً واجباً بالأصالة له وحده ، كما أسلفنا في هذا الكتاب . فإذا كان الولاء لكفرة أو لفجرة أو مشركين ، أو علمانيين ، أو مسلمين مرتدين عن الإسلام إلى جاهلية بائدة ، أو عرقية قومية ، أو مذهبية فيها شق عصا الإسلام ، أو حضارة مزعومة معادية لأحكام الله وتعاليمه

وتشريعاته ، إذا كان الولاء لبعض هذه القوى أو لجميعها ، فهو الخذلان لا محالة ، وبالخذلان تكون الهزيمة المنكرة ، التي قد تطول أمداً وأعواماً طويلة ذليلة ، كما هو الحال اليوم بالنسبة للأمة التي تسمى إسلامية . هذا الكلام عن الخذلان والهزيمة وأسبابها يقودنا إلى فهم قوله تبارك وتعالى ، بجلاءٍ ووضوحٍ أكثر فأكثر في بقية الآية التي هي سُنَّة في الدهر من سننه سبحانه : { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } . [ 160 : آل عمران ] .

أما قوله جلَّت عظمته : { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } يعني أن تتوكل على الله معناه أن تتشرف بتسليمه أمرك وتجعله وكيلاً عنك في إيصالك إلى هدفك ،

أو أي أمر ترجوه حلالاً مرضياً عند الله تبارك وتعالى . وما دام الكلام في الآية عن النصر وأنه من عند الله وحده ، فينبغي عليك قائداً كنت أو مقوداً لكي تحصل على النصر ، أن تتوكل على الله . والتوكل غير التواكل ، إذ أن التوكل أمر إيجابي مأمور به المؤمنون ، أمر عزيمة تحت طائلة المسؤولية ، ذلك قوله تبارك وتعالى : { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } وأن تعزم يعني أن تصدق نيتك كمقدمة للعزيمة أو العزم على أمر ما ، والموضوع هنا هو القتال بغية النصر على العدو ودفع شره وعدوانه . وللعزم كذلك بعد النية مقدمات أهمها رصد العدة والعدد للقتال ، والزمان والمكان مع التمكن ، وهذا أمر فريضة كذلك من الله عز وجل : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ... } [60 : الأنفال] ، فإذا استكملت هذه الشروط ، من صدق النية إلى إعداد القوة ، إلى صدق العزيمة فعند ذلك أقدم ، على خوض المعركة بمن عبأت بمثل ما عبأت به نفسك وتوكل على الله بذلك ، بهذه الشروط الشرعية والعقلية ، يقبل الله عزت قدرته ، الوكالة منك وعنك ، وينصرك ربما بوسائلك التي أعددتها ، وربما برديف من الملائكة يعينك به ويعين عسكريك . وربما بكلمة كن ... فيكون النصر المبين . وليس ذلك على الله بعزير . فهو بكل ذلك نصر محمداً وقوم محمد (ص) في حياته الشريفة . وبكل ذلك نصر المسلمين بعد محمد (ص) في وقعات حامية متتالية ، كانت تقف لها الجبال فيخضع الله لها الجبال ، وتعترضها البحار فيذلل الله لها البحار ، وما توقفت إلا بعد أن أخضع الله لها الممالك ، وأسقط أمامها الأبراج والمعازل ، والقوى التي كانت تحكم الأرض بالكثرة العددية المنظمة والأسلحة المتميزة والمتفوقة . ذلك لأن المجاهدين المسلمين آنذاك ، كانوا أمة واحدة بدون مذاهب ، كان مذهبهم التوحيد ، والإعتماد على الله وحده ، وليس على مراكز القوى ، وكانوا صادقي النوايا والعزائم ، يستمدون القوة والنصر من الله وحده ، وليس من نبي ولا من إمام ولا من قائد ، وكان أول سلاح عندهم وأعظم سلاح وآخر سلاح فعّال وناصر ومرعب لأعداء الله : التكبير صيحات : الله أكبر ... عند كل هجوم وكل حصار ، وكل مواجهة فردية أو جماعية

ذلك هو بعض المقصود في قوله سبحانه وتعالى : { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } . أما القانون الإلهي المتفرع عن قوله عز وجل : { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَهُ } فهو في قوله عز شأته : { ... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } . [ 47 : الروم ] . وقوله عزت عزته : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } . [ 51 : غافر ] .

أما أن النصر ليس من النبي (ص) ولا من أي مخلوق آخر بين الأزل والأبد، وإنما هو من الله وحده دون شريك ولا مساعد ولا معاضد ، وأن أي نبي أو رسول أو إمام أو ولي من أولياء الله ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء له الله ، فذلك قانون إلهي عام ، هو في قوله عز وجل مخاطباً رسوله محمداً (ص) : { قُلْ لَأَؤْمِنُ بِمَا آتَانِي رَبِّي وَلَئِن نَدَيْتُنِي بِأَنَّي بَشَرٌ لَّنِي لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكُنْتُ عَلِيمٌ بِالْغَيْبِ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } . [ 188 : الأعراف ] .

فقول النبي (ص) ما علمه الله سبحانه : { وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ } يتضمن كونه كان يتمنى خيرات لنفسه ، وكذلك لغيره ، لم يدركها ، ولم يتمكن منها ، فإن الأمر ليس له ، وليس بيده . وأكثر من هذا ، فإنه (ص) كثيراً ما مسه السوء والأذى ، سواء أيام أمره بالمسالمة ، أو أيام أمره بالمحاربة . ولو كان محمداً (ص) أو أي نبي أو أي إمام ، قادراً على الاستكثار من الخير لنفسه أو لقومه وأتباعه ، لاستكثر . ولكنه لم يستطع نيل ما يتمنى لأن الأمر ليس بيده ، وإنما هو بيد الله وحده سبحانه . وكذلك لو كان محمداً (ص) أو أي نبي أو إمام قادراً على دفع الأذى والسوء عن نفسه وعن قومه وأتباعه ، لدفع ، ولكنهم لم يستطيعوا رغم كونهم أنبياء ورسول وأئمة ، وهم المقربون من الله وهم أحبته . لم يستطيعوا دفع السوء عن أنفسهم ولا عن أتباعهم من المؤمنين ، حيث قد مسهم السوء والأذى ، بين قتلٍ وجرح ، وجهاد وكفاح ، وتكذيب وتهم ، وهم الصادقون مع ربهم ، وهم الصديقون وهم الأبرياء .

وإنما النتيجة ، التي تُتَوَجُّعُ بها أعمارهم وحياتهم الحافلة بالصدق والجهاد

والصبر الجميل ، والتفاني في حب الله ، هي : { ... وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ ... } . [ 13 : الصف ] .

وإذن ، فإن الأنبياء والأئمة والأولياء ، ما هم إلا دعاة إلى الله . تلك وظيفتهم : يندرون ويبشرون ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويصدعون بأمر الله جلَّتْ عظمتُه وعزَّ شأنُه ، وتبارك وتعالى عن خلقه وعمَّا يشركون .

### الشرك آفة البشرية :

قال تبارك وتعالى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْنَا صَالِحًا لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُم نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } . [ 189 . 192 : الأعراف ] .

هذه الآيات الأربع ، تتحدث عن آفة من الآفات الأعظم في تاريخ البشرية ، هي الشرك بالله . تتحدث حديثاً مجملاً ومفصلاً في آن واحد . وذلك كذلك من عجب القرآن وعظيم عجائزه . فأنت إذا قرأت هذه الآيات ناوياً في فهم المعنى ، أن الخطاب موجّه لشطري البشرية : الذكور والإناث ، فما تكون جاوزت الحقيقة . وإن أنت اخترت كون الكلام عن الزوجين ، المرأة والرجل ، في الآيتين الأوليين هو المقصود ، كذلك ما كنت جاوزت الحقيقة . والأحسن من ذلك إن استطعت أن تستجمع الأمرين ، فتكون قد أحسنت باللاحق بآفاق الدائرة الأوسع ، والله يحب المحسنين .

وهذه بعض مضامين هذه الآيات ، أي الدائرة الأوسع للشرك ، التي يتحدث عنها سبحانه وتعالى عما يشركون :

أولاً عن نعمة من نعمه الكبرى ، هي مبدأ الزواج ، قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رجالاً كثيراً ونساء ... } . [ 1 : النساء ] . وقوله عزَّ شأنه : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ  
{ خطاب لمجموع البشر في عمر البشرية. {مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ { إنسانية مميزة عن سائر  
الخلق. {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}. [ 189 : الأعراف ] . وقوله تعالى {  
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا { من السكينة، أي الطمأنينة والراحة. و { إِلَيْهَا { أي كل زوج إلى  
زوجه. وهذه النعمة التي هي قانون الزواج ، وبيت الزوجية، أعرف من أن تُعرَف بشرح  
ما فيها من استكمال لإنسانية الإنسان بالزواج ، من تلبية حاجات نفسية واجتماعية  
وأخلاقية ودينية. إذا توفرت فيها هذه الأركان الأربعة، شكلت الأسرة الصالحة  
، والأسرة هي نواة المجتمع، كبر أم صغر، فإن كانت صالحة، تنتج عنها المجتمع  
الصالح، حلم البشرية. وإن كانت ناقصة ركناً أو أكثر من الأركان الأربعة المتماسكة  
التي ذكرنا، لحق ذلك النقص بالمجتمع، فحسر العناية الإلهية، ومن ثم النصر الإلهي في  
الدارين : الدنيا والآخرة . وأجمل الكلام وألطفه وأرقاه . وهذا من البديهيات لأنه كلام  
الله — هذا الذي يصف فيه سبحانه علاقة الزوجين التي ينتج عنها الحمل في مراحلها ،  
قوله تعالى وتبارك: { فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ {تغشَّاهَا من غشي  
الشيء أي اتجه إليه وغطَّاه، قال تعالى: { ... يَغَشَّاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ ... } . [ 40  
:النور]. وقال سبحانه { ... إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً ... } . [ 10 : الأنفال]. و {  
حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ { فيه إشارة إلى الفوز بالحمل ، لبديهية خوف كل  
عذراء من أن تكون عقيماً ، فإذا تزوجت وحملت ، تجاوزت مرحلة الخطر ، ومرت  
خفيفة فرحة بحملها . ثم فيه كناية عن المراحل الأولى من الحمل ، قبل أن يظهر  
للناس ، وحتى لصاحبه ، إلا ماما . { فَلَمَّا أَثَقَلَتْ { نفسياً وبدنياً { دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا  
{ وهذه حقيقة تنسحب على جميع الأزواج في تاريخ البشر ، لأنها فطرة الله التي  
فطر الناس عليها ، وإن شوهوا هم هذه الفطرة بجنوح هنا أو انحراف هناك ، أو عناد  
أو جهالة هنالك . { لئن آتيتنا صالحاً لنكوننَّ من الشَّاكرين { يطمعان في مرحلة  
ظهور الحمل الذي يفرض عليهما تحريك مشاعرهما وتأملاتهما المستقبلية ، فيسألان  
الله ربهما عزَّ وجل ، أنه لو رزقهما ولداً سوياً — وكأنهما يندران نذراً، أو يعدان بشيء  
مقابل هذا العطاء ، ويعلمان أن أفضل شيء يقابلان به هبة الله ونعمته ورحمته هي  
الشكر له سبحانه . فذلك قولهما { لنكوننَّ من الشَّاكرين { وهذه حالة عامة تشمل

جميع أجناس البشر في جميع مراحل تاريخهم على هذا الكوكب . { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا  
جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا } فالزوج يقول أنا الذي أنجبت ولي الفضل في ذلك ،  
وكذلك الأم تقول. فهذا أول الشرك، ثم يُثَنَّى وَيُثَلَّثُ ويزيد، فيكون الفضل للقبالة ،  
ثم للساحر والساحرة في عافية الولد ونموه، فيما مضى، وللملح والريحان والزيت في  
مراحل متوسطة من القرون. وللطبيب والمستشفى ونوعية الحليب والدواء في أيامنا  
الحاضرة. ثم النذور للأولياء والأنبياء والأئمة الذين جعلوهم مكان الله، يسألونهم  
الشفاء والعافية. ويربطون أطفالهم بشجرة يزعمون قدسيتها، أو صنم اتخذوه إلهًا، أو  
قبر لولي هنا ولني هناك. ويتقربون إلى من يعتبرونهم شفعاءهم بالذكر والصلوات  
والعبادة وغير ذلك مما تفرزه البدع والجهالات ووسوسات الشياطين، شياطين الإنس  
قبل شياطين الجن. وواضح في جميع ما ذكرنا، أنه ليس لله نصيب من توجهاتهم ولا من  
شكرهم ولا من توكلهم ولا من استغاثاتهم، ولا من رجائهم في أي أمل يأملونه أو  
طلب يطلبونه. هذا كله بعد أن يكونوا قد وعدوا الله سبحانه بأن يكونوا إذا رزقهم  
هذا الولد أو ذاك من الشاكرين، فرزقهم فأصبحوا من الكاذبين. وجعلوا له سبحانه  
فيما رزقهم شركاء في العطاء، وشركاء في الخلق، وشركاء في الشفاء ... إلى آخر أنواع  
الشرك ، { فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } من جميع خلقه من أصنام وأنصاب وأوثان ،  
ومن ملائكة وأنبياء ، وأئمة وأولياء .

ثم يطرح الله عزَّ وجل سؤاله الناقد والمتحدي على البشرية في كل زمان  
ومكان ، قوله تعالى في الآية الثالثة : { أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ } .  
جميع هذه الأصناف التي يشركون بها الله عزَّ وجل ، معلوم أنها لا تخلق شيئاً من هذا  
الخلق ، حتى أرقاها : الأنبياء والأولياء ، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . ثم بصدد  
النصر الذي كنا نعالج مفاهيمه ، يتابع سبحانه في الآية الرابعة : { لَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ  
نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } فلا الأنصاب والأوثان ، ولا الأئمة والأنبياء ،  
يستطيعون نصر عابديهم أو تابعيهم ، في أي مجال من مجالات الحياة الدنيا والحياة  
الآخرة . وحتى أن هؤلاء الأسياد جميعاً . حسب اعتقاد كل فئة . لا يستطيعون النصر  
حتى لأنفسهم . وما دام الأمر كذلك ، فهم حتماً لا يستطيعونه لغيرهم . فالناصر

وحده هو الله سبحانه ، له العزة جميعاً ، وله القوة جميعاً ، وهو السميع البصير ، وهو على كل شيء قدير ، وليس لأحد من خلقه ولو واحدة من هذه المعاني ، ولا من أسمائه الحسنى ، فسبحانه وتعالى عما يشركون .

وهو تبارك وتعالى أنذر هؤلاء وهؤلاء في تاريخ البشرية ، وألقى الحجة عليهم ، وتحداهم بقوله عزّ وعلا : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . [ الأعراف : 194 ] . وطبعاً لن يستجيب أحد من دون الله ، سواء من الأصنام ، أم من العقلاء الأنبياء والصالحين : قوله عزّت عظمته : { إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } . [ فاطر : 14 ] .

هذا ، وليبك اللهم لبيك ، طاعةً لك وائتماراً بأمرك سبحانه حيث تقول : { وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } . [ الذاريات : 55 ] . فما أكرمك ، وما أحرصك على المؤمنين وما أرحمك بهم . حتى ولو انزلقوا إلى شرك

ظاهر أو شرك خفي ، فبتفقدك لهم ، وبتذكيرك إياهم ، سرعان ما يعودون إلى صراطك المستقيم بمشيتك وفضلك ، وأنت ذو الفضل العظيم . أما من يركب رأسه ، وتغرّه نفسه ، ويقوده عناده ، ويحجبه عماه ، ويهلكه تعصبه وعصبيته ، ويدّعي أنه إنما كان بتعبده لغيرك ، وبدعائه غيرك ، يتقرب إليك زلفى ، فبحسبه قولك سبحانه : { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ } . [ الزمر : 3 ] .

\* \* \*

وعوداً إلى ما بقي من الآيات المتعلقة بوقعة أحد ، قوله عزّ وجل : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } . [ 161 : آل عمران ] .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم أن يغل بفتح الياء وضم الغين ، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الغين . ونحن اعتمدنا القراءة الثانية بإذن الله تعالى ، وإليك التفصيل :

فعلى القراءة الأولى { وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ } تحذير أو تنبيه للنبي من أن يخون . هذا باعتبار مناسبات النزول المرعومة ، وعندنا ، أنه لما كان الله عز وجل قال في رسوله محمد (ص) : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } . [ 4 : القلم ] ، فمع هذا القول تسقط القراءة الأولى : ( يغل ) ، ويمتنع معها أن يكون الكلام تحذيراً أو تنبيهاً لمحمد (ص) .

وإذن، تبقى القراءة الصحيحة: ( يُغَل ) بضم الياء وفتح الغين. وعلى هذا الأساس يكون معنى قوله سبحانه { وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ } أي أن أي نبي ما دام الله سبحانه علمه وخلقه ونبأه، وباختصار، ما دام نبياً فلا يجوز أن تظن به الخيانة، سواء في الأخذ من الغنائم، أم في توزيعها على المستحقين، أم في أداء الوحي كاملاً غير منقوص، سواء سألوه أن يطوي بعض القرآن الذي فيه عيب دينهم وسب آهتهم ، أو أنه طمع بمداراتهم فتمنى أن ينزل الله ما يريدونه هم، لا ما يريد الله جلَّ وعزَّ شأنه .

أما قوله تبارك وتعالى : { وَمَنْ يَعْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ففيها إطلاق . أي أن قوله سبحانه : { وَمَنْ يَعْلُلْ } أي يخون الله بتخوينه رسوله (ص) ، أو أن يأخذ أو يختلس شيئاً فوق حقه من الغنائم التي هي شركة للمسلمين حسب الشريعة المرعية ، أو أن يكذب على الله أو على رسوله أو على المسلمين ، فمن يفعل ذلك أو شيئاً منه { يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } ، فإن كان من الأشياء الوازنة ، حملة ثقلاً على نفسه ، وإن كان أمراً معنوياً ، حمل وزره تشهيراً به وتعديباً بنسبته ، وذلك قوله تبارك وتعالى : { ... ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } . [ 161 : آل عمران ] . أما نفس النبي (ص) فعند سدرة المنتهى في أعلى عليين ، قوله تبارك وتعالى : { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } .

[ 5: الضحى ] عطاءً مطلقاً ، عطاءً بلا حدود ، يتناسب مع تكريم الله وكرمه لرسوله محمد من جهة ، ومع إنسانية محمد (ص) من جهة أخرى .

أما بقية النفوس ، فإن مدى اعتقاد كل إنسان وعمله ، يحددان درجته عند الله عز وجل ، وبالتالي قربه أو بعده من منـزلة رسول الله (ص) عند ربه المجيد رب العالمين . هذا منذ محمد (ص) وإلى يوم القيامة .

يتضح ذلك في أحرف النور التالية ، قوله تبارك وتعالى في سياق آيات أخذ :

{ أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ  
وَبئْسَ الْمَصِيرُ . هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ } . [ 163  
\_164: آل عمران ] .

قولنا: يتضح في أحرف النور... عيننا به هاتين الآيتين ، كما أننا نعي جميع آيات كتاب الله المجيد ، وإن كان هناك تفاوت في أسرار النور ، وبين نور ونور ، إلا أن كتاب الله بمجمله هو نور منزل من رب العالمين : قوله عز وجل : { فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } . [ 8: التغابن ] . وقولنا هذا ، هو في صلب الإجابة عن السؤال الذين طرحناه من قريب : [ لماذا الآيات ، ولماذا القرآن ؟ ] فالقرآن وآيات القرآن ، هي ببساطة وبقوة ، لإخراج الناس من ظلمات الجهالة ، وعممة الغفلة ، وهي لكشف غيوب ما كانت لتكشف بدون آيات القرآن ، ولضبط معارف ، ومفاهيم ، وأخذ العلم اليقيني ، بمعادلات ومقارنات ، لفهم أحوال ومصائر ، يصير إليها الناس ، على فروق بينهم واختلاف درجات ، ما كنا لنعرفها ونطمئن إلى الحقائق النجلاء فيها ، لولا أنوار القرآن وأنوار آياته . قال سبحانه : { هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } . [ 9 : الحديد ] .

وفي سياق آيات أخذ ، وضمن الإجابة عن سؤال : [ لماذا الآيات ولماذا القرآن ] هاتان الآيتان : { أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ... } وواضح أنها مقارنة بين شطري البشرية في تاريخها : السعداء والأشقياء . فالسعداء

سعادة الأبد ، هم الذين اتبعوا رضوان الله ، أي أعلى درجات رضاه . واتباع رضوانه سبحانه ، يعني أقصى الحرص على طاعته وتوحيده بدون شرك لا ظاهر ولا خفي ، والجهد في سبيله ، بين جهاد النفس بهدف إيصالها إلى الكمال الذي هيأها الله له ، وهيأ لها ، وبين مجاهدة أعداء الله وأعداء دينه ، بالنية وروح الفداء ، والقوة والسلاح والكلمة . بأقصى ما يستطيعه كل مؤمن من موقعه . { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... } [ البقرة : 286 ] . أما الشطر الآخر ، الأشقياء شقاء الأبد ، فهم الذين باؤوا بسخط منه جلّت عزّته وكبرياؤه ، أي عادوا من حيث أتوا ، بعد إهباطهم إلى الأرض ، عادوا مكذّبين ومعاندين ، وأهل نفاق ، عادوا كفرًا فجرة ، ومن كان كذلك ، لا يؤوب برضى من الله ورضوان ، وإنما يؤوب بسخط الله ، أي غضبه ولعنته . وبديهي أن ينقذ الله سبحانه وعده ووعيده ، فيعود أهل رضوانه إلى رحماته وجناته وفراديسه ، وبصير أولئك الذين باؤوا بسخطه وغضبه إلى جهنم ، وما أوجعها من نهاية ، وما أبأسه من مصير . ذلك هو بعض مضامين قوله تبارك وتعالى في هذه المقارنة بين شطري البشرية : الصديقين السعداء ، والمكذّبين الأشقياء : { أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } . أما الآية التي بعدها ، قوله سبحانه : { هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ } فيشمل الفريقين : الذين اتبعوا رضوان الله ، مأواهم درجات النعيم ، والذين باؤوا بسخط من الله ، مأواهم درجات الجحيم .

وفي سياق آيات أحد النيرات ، قول الله تبارك وتعالى : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } . [ 164 : آل عمران ] .

لله تعالى وحده ، الفضل على المؤمنين وعلى العالمين ، بإرساله محمدًا (ص) نعمة ورحمة للناس كافة ، ولما آمن من آمن وكفر من كفر ، أصبحت نعمة الله ورحمته التي هي إرسال محمد (ص) ، نعمة على المؤمنين وحدهم ، لأنهم وحدهم انتفعوا مما أنزل الله على رسوله من الآيات ومما علّمهم وزكّاهم ونور قلوبهم بالحكمة وبالعلوم

الحقّة ، بعد إذ كانوا في ضلالة عمياء ، وجهالة جهلاء . وستبقى قلوب المؤمنين ، ما داموا مؤمنين ، مستنيرة بالله وبما أنزل الله ، وستبقى قلوب الكافرين مدلهمة مظلمة ، والنور نعيم ، والظلام جحيم .

ويستفاد من قوله عزّ وجل : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ... } أن الفضل كله جمعاً على المؤمنين ، هو الله وحده ، وليس لمحمد (ص) ولا لغير محمد في هذا المنّ ، أي الفضل والإنعام شيء . بل هو فضل الله وحده ورحمته على محمد (ص) بشكل خاص ، قوله تبارك وتعالى : { وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا . إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا } .

[ 86 - 87 : الإسراء ] . وهو فضل الله وحده ورحمته على المؤمنين بشكل عام ، قوله جلّت عظمته : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ } . [ 21 : النور ] فقولُه عزّت قدرته : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... } إلى قوله تعالى : { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ... } هو خطاب لجميع من آمن مع محمد (ص) ، وجميع من آمن بعد محمد (ص) إلى قيام الساعة .

\* \* \*



## محاسبة على الظاهر والباطن ... وفضح المنافقين

ما زلنا في أجواء العبر الملزمة لنا ، كأمة وكأفراد ، نفسياً وسياسياً واجتماعياً وعسكرياً ، عنيت أجواء واقعة أُحد . ففي أواخر آياتها ، وكأنا هي الخلاصة ، قال عز وجل وتبارك وتعالى :

{ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدَّ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ  
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . [ 165 . 168 : آل عمران ] .

الناس في هذه الأمة ، كم يغنون وكم يجدون ، لو هم تدبروا كنزهم الأروع  
على هذا الكوكب الأرضي ، عنيت القرآن الكريم . فأما غناهم ، إذا تدبروه ، إنما  
يكون بالمعاني السامية والتعاليم الفعالة ، التي تكنزها الأفئدة ، وتكنزها أعماق  
الضمائر ، ذلك هو علم النفس الحقيقي العالي ، وليس السقيم المفترى ، مما نسمع  
ومما نقرأ ومما نرى من نماذج . وأما مجدهم ، إذا ربوا أنفسهم وأبناءهم بمقتضى آيات  
الله ، موقنين بهيئته سبحانه ، وإحاطته بالنفوس والأجسام ، وإحاطته العملية بدقائق  
الكون وتفصيله ، وأنه هو القادر القاهر الذي لا يفوته شيء ولا يعجزه شيء ، وأنه  
هو ناصر المنصورين ، وهو خاذل المخذولين ،

يعني باختصار ، إذا شحنوا مبادئ التربية الإسلامية ، بفكر التوحيد ، كما هو  
مبين ومفصل في القرآن الكريم ، لنصروا الحق ، وانتصروا به على أهل الباطل ،  
كفرةً ومجرمين ، ومشركين ووثنيين ، حيثما كانوا على وجه هذا الكوكب .  
وبالانتصار الشامل هذا يكون مجد هذه الأمة ، التي جعلها الله سبحانه أمة وسطاً ،  
ووعدها بهذا النصر وهذا المجد ، إن هي التزمت بتوحيده سبحانه ، وبطاعته ،  
وجاهدت في سبيله وحده لا شريك له ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر ، عابدة  
إياه وحده ، مسقطه جميع أنواع الطواغيت المادية والمعنوية . تائبة من التوجه لبني  
البشر والتوكل على نبي البشر ، أنبياء كانوا أو أئمة ، أو ساسة أو قادة مهما علت  
مكانتهم الدينية أو الإنسانية ، أحياءً وأمواتاً .

هذا بعض ما تنطق وتوحي به ، هذه الآيات التي نحن بصدددها . فنحس  
ونوقن ، بأن الله جلَّتْ عظمته ، هو يدير المعركة ، كل معركة ، أُحْدَ وغير أُحْدَ ، في  
الغابر والحاضر والمستقبل ، في الدهر كله ، بين كل فريقين متقاتلين ، قَلُّوا أم كثروا ،  
محلياً وعالمياً . فهو سبحانه مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن  
يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وكيف يدبر ويدبر شؤون الناس ؟ يفعل سبحانه ذلك تبعاً للنوايا ، وتبعاً للإعتقاد . ومن الأدلة على ذلك ، هذه الآيات ، التي يحاسب فيها المقاتلين ، المؤمنين والمنافقين ، فيظهر ما استبطن عند هؤلاء وهؤلاء ، ويعلم الجميع بما لم يكونوا هم يعلمون عن أنفسهم وعن الآخرين : يلاحق خلجات الأنفس ، ويحاصر أنفاسهم وأعمارهم ومصائرهم ، نجد كل ذلك وأكثر منه في هذه الآيات الأربع الكريمات :

فقوله تبارك وتعالى : { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ... } أي أصبتم ضعفها حيث نصركم في معارك سابقة وفي نفس هذه الواقعة ، وقعة أجد ، في بدايتها . { قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا } قُلْتُمْ لِمَاذَا وَكَيْفَ هَذَا وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ - لَأَنَّهُ (ص) كَانَ وَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ مِنَ اللَّهِ إِنْ هُمْ أَطَاعُوهُ . { قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } أي بمعصيتكم لأمر ربكم المتمثل بمعصيتكم لرسوله (ص) . { إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } قدير على أن ينصركم بشروطه هو سبحانه ، وقدير على أن يخذلكم إذا نقضتم هذه الشروط ، فينصر عليكم أعداءكم ، لا حياء بهم وإنما تربية لكم وعقوبة مبطنة بلطفه ، لكي تتكاملوا كما يجب لعباده الصالحين ، فتفوزوا فوزاً عظيماً : { هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا } . [ 44 الكهف ] وقوله تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانَ فَيَاذَنَ اللَّهُ ... } أي أن الله سبحانه أوقع ذلك ، بين تعذيب لفريق ، وتعليم لفريق ، وأجر عظيم للنبي (ص) والذين ثبتوا معه . وقوله تعالى : { وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ... } فقد سبق وأشرنا إلى فعل ( علم ) ومشتقاته ، تلك التي لها صلة باسم الجلالة ، وخلاصة الأمر أن الله عز وجل يعلم السابق واللاحق من الأمور ، علم ما كان وما سيكون من الأزل إلى الأبد : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . [ 3: الحديد ] . ولذلك فإن قراءة { وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ... } في هذه الآية ينبغي أن تكون بضم الياء في فعل يعلم وكسر اللام ، فيكون معنى قوله تبارك وتعالى : ليجعل علامة على كل مؤمن ، وذلك كقوله تعالى : { سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ } . [ 16 : القلم ] أي نضع سمة أي علامة على وجهه ،

يعرفه بها الملائكة ومن يشاء له الله ذلك . ومن جهة أخرى ليعلم المؤمنين كذلك تعليمًا نافعاً يكون فيه تدارك كمالهم الإسلامي فالإنساني . وأما قوله تعالى { وَلْيُعَلِّمِ الْمُنَافِقِينَ } فالصيغة عينها ، أي يجعل على وجه كل منافق علامة تدل على نفاقه ، يعرفه بها أهل السماوات ومن يشاء الله من أهل الأرض ، ومن جهة أخرى يعلم المنافقين إعلاماً يكون فيه إلقاء الحجة عليهم بعد فضح نواياهم وكشف ما استبتنوا من الكفر والكذب والخيانة لله عز وجل ولرسوله (ص) . ثم يفصل سبحانه القول في موافقهم ، وأقوالهم ومزاعمهم ، وأنه يصبحون مع موجات النفاق والشك والخيانة والجن ، أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، قوله عز وجل : { وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا } أي قاتلوا انتصاراً لعزة الله ولدينه العظيم هذا ، أو إن لم يكن لكم شرف هذا الإيمان ، فادفعوا القوم وقد جاؤوا يتحدونكم في عقر داركم ويعرضونكم للقتل والإذلال والسي أنتم وأعراضكم ...

{ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ } ذلك هو النفاق المفضوح . فهم يعلمون قتالاً بالتأكيد ، ولكنها حجة الوقح الكذوب ، الذي حرم نفسه نعمة الصدق وشرف الثبات في المواجهات والصمود في المواقف ، استقواءً وتعززاً بالله العلي القدير ، والقوي العزيز . قوله عز وجل { هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ } ذكر الإيمان هنا على دعواهم ، وليس على حقيقة كونهم مؤمنين في الأصل . فهم منذ البداية أظهروا الإسلام ، وظلوا مستبتنين كفرةً أو شركاءً أو ارتياباً برسول الله (ص) وبأخباره ووعوده ، والدليل على ذلك ، قوله عز وجل في الآية التي تليها : { يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } فهم لو قالوا ما في قلوبهم لكان موقعهم الطبيعي إنما يجب أن يكون مع أعداء المسلمين المجاهدين بهذا العدا . ولكن أسباباً عدة كانت تشدهم للبقاء مع المسلمين ، مدعين الإسلام والإيمان ، هذه الأسباب تتراوح بين الخوف والرجاء : الخوف على مصالحهم إن هم التحقوا بالمشركين ، وكذلك الطمع بمكاسب ومغانم ، كانوا يسعون لنيلها مع مجموع المسلمين بعد أن رأوا انتصارهم في بدر وغيرها من الغزوات . وبهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات ، فضح الله نواياهم ، وأعلم المسلمين بهم بعد إذ كانوا يظنون

فيهم الخير والصلاح وصدق الحمية الإسلامية . ويتابع الله تعالى في وصفهم ووصف خيانتهم ونفاقهم وسوء اعتقادهم بقدرة الله عزَّ وجل وشمول حاكميته وهيمنته ، وهي أمور لا تختص بمنافقي وقعة أحد وحدهم، وإنما تشمل وتنسحب على جميع المنافقين ، التي تظهر أحوالهم وطبائعهم جلية في ضوء هذه الآيات ، إذا واجهوا أو وُجِّهوا بظروف مشابهة ، سواء في المعارك السياسية أو المعارك العسكرية ، أو حتى الفكرية ، التي يتعرض لها المسلمون ، في حياتهم وصراعاتهم مع أعداء الله وأعداء دينه ، منذ أرسل الله رسوله محمداً (ص) وإلى قيام الساعة . يقول سبحانه متبعاً أقوالهم وتحركاتهم وأحاسيسهم : { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا... } الذين قالوا لإخوانهم في النفاق ، قالوا يغتابون المسلمين ، وخاصة رسول الله (ص) حيث لم يعمل بمشورتهم هم ، وأخذ بمشورة غيرهم كما ذكرنا في تفاصيل الواقعة . فنقموا عليه تجبراً وتكبراً وارتياباً برسائله (ص) قالوا هذا وانفصلوا عن بقية المسلمين ، فكان ذلك منهم خذلاناً لمحمد (ص) وصحبه وعصياناً وخيانة لله عزَّ وجل . قالوا وفعلوا هذا وقعدوا عن الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه . قالوا عن بقية المسلمين الذين لم ينسحبوا معهم قبل بدء المعركة ، ولا سيما عن الذين قُتِلوا منهم : { لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } وهذا فكر سطحي ، ما زال أكثر الناس في أيامنا هذه ، وفي أوساط إسلامية ، يعتقدونه ويرددونه ، كما يحتجون بالآية الكريمة احتجاجاً خاطئاً : قوله تعالى : { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } . [ البقرة : 195 ] ويعطونها نفس المعنى الذي قاله ويقولوه المنافقون في مواجهة الأعداء والمواقف التي تستدعي البأس والحمية الجهادية في سبيل الله . وهو معنى بخلاف ما أراد الله عزَّ وجل من الآية ، فمعنى { وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } أي لا تمتنعوا عن الإنفاق في سبيل الله دعماً للمقاتلين المسلمين في كل زمان ومكان ، ويتضح المعنى من موقع الآية . فمن شاء فليراجع . ولذلك ألقى الله سبحانه عليهم الحجة ، ودمغهم دمعاً بقوله عزَّ وجل : { قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } . واضح التحدي القاتل أو القاهر المميت فعلاً ، في هذا الرد . من يضمن منكم أن لا يموت لساعته ، بنوبة قلبية ، بنفرة فرس ، أو سقطة عن ظهر دابة ، أو حادث سيارة أو لسعة حشرة كبيرة أو صغيرة ربما أصغر من بعوضة، أو ... إلى آخر ما هنالك من أسباب لا تُعدُّ

ولا تحصى يتسبب عنها القتل أو الموت . والأبرز الأظهر من ذلك كله هو الموت ، فليس لإنسان مهرب منه ، مؤمناً كان في الصديقين ، أو طاغوتاً في المكذبين والمنافقين . من هنا قوة الرد القاهر ، للمنافقين ، وجميع الذين لا يعرفون ، أن الآجال موقوتة في علم الله ، وأنها في كتاب ، وأنه سبحانه { يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ } . [ 39 : الرعد ] وأنه هو يحيي ويميت ساعة يشاء . فبماذا يجب المنافقون ، على قوله تبارك وتعالى ،

هذا القاهر : { قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } .

\* \* \*

تبقى آية الختام . للوقعة . الدرس التاريخي ، أجد . هذه الآية التي هي في الحقيقة آية ختام لكل قتال بين أنصار الله من جهة ، وأنصار الطواغيت من جهة ثانية ، ما دام على هذه الأرض تكليف وجهاد في سبيل الله . هذه الآية هي قوله تبارك وتعالى :

{ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } . [ 169 : آل عمران ] .

وبمثل معناها تقريباً ، شبيحتها في سورة البقرة : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } . [ 154 : البقرة ] .

وكلتا الآيتين تشيران إلى حقيقة واحدة ، هي أن من يقتل في سبيل الله ، هو حي عند الله يرزق ، وليس في ذلك أية تورية أو مجاز ، هو حي كعامة الأحياء الذين يعيشون على هذا الكوكب الأرضي ، ويرزق كما يرزقون ، ولكن على نحو أفضل . ودليل ذلك في قول الله عز وجل : { ... وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ } . [ 4 - 6 : محمد ] . وهذا الترتيب في سورة محمد ليس عبثاً ، فهو مقصود وبوضوح ، كذلك بدون أية تورية ولا كناية ولا مجاز ، ، هي هداية وإصلاح بال . وبعد الهداية وإصلاح البال

، إدخالهم الجنة : { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } .  
[ 19 : الأحقاف ] .

وأكثر كتب التفسير التقليدية المحترمة ، أشار إلى هذه الحقيقة ، ولكن إشارات غالباً ما كانت غامضة ومبهمه ، معتمدين فيها على صراحة النص القرآني من جهة ، وعلى بعض الروايات من جهة ثانية .

ويكفي القول في كلتا الآيتين ، أن هذه الخصوصية فيهما عن ذكر الحياة بعد القتل ، وكذلك الرزق ، كافية لاعتبار ما قلناه ، عن حقيقة الحياة وحقيقة الرزق ، المختلفتين عما نقرأه في القرآن والأحاديث عن حياة البرزخ ، وبعده حياة الآخرة بعد يوم القيامة والحساب . وإلاً إذا كان الشهداء لهم نفس مصير الناس العاديين ، الذين يموتون موتاً عادياً ، أو كما يسمى في اللغة ، حتف الأنف ، فيكون هذا التخصيص للشهداء بهاتين الآيتين الكريميتين الشهيرتين بدون طائل ، ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك . فالتمييز في استشهاد الشهيد ، وبموجب الآيتين ، ظاهراً ، قد اقتضى تميزاً في مصيره . وإلاً لو كان الاستشهاد قتلاً في سبيل الله ، كالموت العادي الذي في سبيل الله ، لكان أغفلَ الفارق بينهما . وحقيقة الأمر أن الفارق كما هو واضح في الآيتين لم يُغفل .

إلاً أن في القرآن الكريم ، محطات عجيبة لإعمال النظر . قد يبدو بعضها مطلباً أعلى من مطلب الشهادة ، أو بكلمة أخرى : كما أن الاستشهاد هو أفضل ميزة من الموت العادي ، فإن موتاً عادياً مع بعض التأمل ، هو أعلى درجة من الاستشهاد ، ذلك ما يسمى بالموتة الأولى والأخيرة : قوله تبارك وتعالى : { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } . [ 56 . 57 : الدخان ] . ومرجع الهاء في { فِيهَا } إلى الجنة . ومن هذا الفريق الأنبياء ومن كان قريباً من منـزلاتهم من أولياء الله الصالحين . ولتوضيح الأمر أكثر . نذكر في مقابل هذه الموتة الوحيدة ، التي هي الأفضل ، في معاناة أهل الأرض على مختلف درجاتهم عند الله سبحانه ، قوله تعالى ، في إشارة إلى موتين وحياتين ، يخضع لهما فريق ثالث من الناس : { قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلَيْسَ إِنَّتِنِ وَأَحْيَيْتِنَا

اِثْنَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ } . [ 11 : غافر ] وهذا الفريق كفر في النشأة الأولى ، فحكم عليه بالعذاب ، فرجا الله عز وجل بإعطائه فرصة أخرى ، فأعطاه . وهو يعلم سبحانه ، وقد أعلمهم كذلك ، أنهم لو ظلوا يحيون ويموتون إلى أبد الأبد ، لما ترحلوا عن كفرهم وعتوهم ، وهو سبحانه أعلم بالظالمين .

يبقى لزوم الإلفات إلى قوله عز وجل : { وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ } في آية سورة البقرة . فإن هذه العبارة كافية لإثبات حقيقة الحياة والرزق من الله للمستشهادين ، بشكل مختلف عن الحياة المقررة لغيرهم ممن يموت من المؤمنين العاديين . ولو كان هؤلاء ، كذلك يحيون ويرزقون ، وإنما في برزخ هو في قوله تبارك وتعالى : { ... وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } . [ 100 : المؤمنون ] .

أما قوله تعالى في آية آل عمران : { بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } فكلمة { عِنْدَ رَبِّهِمْ } لا تعني مكاناً معيناً ولا زماناً معيناً ، فحيثما يكون الإنسان في الأرض أو في السماء ، أو في أي مكان من الكون ، فهو عند ربه عز وجل ، إلا أن المقصود بالعبارة ، هو التأكيد على الرعاية والهداية وصلاح البال .

يبقى التنبيه إلى الفارق بين قوله تعالى : { وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... } في البقرة ، وقوله عز وجل : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا ... } في آل عمران ، أن الأولى ، تعني بمن سيقتل في سبيل الله ، في كل عصر وزمان ومكان ، فشأنهم ، أي هؤلاء الذين يستشهدون في سبيل الله أنهم { أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ } . وأن الثانية تعني بالذين قتلوا في الماضي زمن محمد (ص) وأصحابه من السابقين ، فما بعدهم ، كلما استشهد فرد أو مجموع كانوا مصاديق لهذه الآية الكريمة { أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

استدراك :

أما ما قد يخطر في البال عن الفروق بين منازل المستشهادين ، وعلو شأن بعضهم في الدنيا . فصحيح أن هذا العلو ، سيكون هو أكثر علواً في الآخرة .

ولذلك منازلهم حسب درجاتهم كما نوهنا آنفاً في آية { وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا  
... } أما هذه الدرجات فستكون ما بين حياة على الأرض هذه أو أكثر . ثم ما  
بينها وبين السماوات السبع ، وصولاً إلى أعلى عليين ، عند سدرة المنتهى ، منازل  
ودرجات وموتة واحدة . وجميع المستشهدين ، حيثما يكونون ، بين هذه الأرض  
الدنيا وبين سدرة المنتهى هم { أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } .

### 3

دعوة إلى الله

الإضاءات الكاشفة الثالثة

هو الأول والآخر



## { حُنَيْنٌ } : العبرة التاريخية الخالدة

إما الله وحده ، وإما الجحيمان : جحيم الهزيمة وجحيم الآخرة :  
ذلك هو الدرس الذي إذا نسي — خاصة أيام التحديات مع أعداء الله — كان نسيانه تفريطاً بنصر الله المُعدِّ أصالة للمؤمنين . فالله عزَّ وعلا ، هو وحده إما أن ينصر ويعزَّ ، وإما أن يخذل ويذل . والنسيان لسبب النصر استدعاءً عليّ للهزائم المنكرة . خذ على هذا مثلاً تاريخياً : واقع أمة دينية — عسكرية ، هي أمة الإسلام . تصاعدت انتصاراتها حتى اجتاحت بنور الله ثلاثة أرباع الظلام على الكرة الأرضية . ذلك كله لأنها استفادت من الدروس التاريخية الخالدة ، والتي أبرزها بدر والأحزاب وأُحد وحُنين . يعني أيام كانت تتمذهب بدين التوحيد ، وتسستعين بالله وحده ، وتتوكل على الله وحده ، وتتعبد لله وحده ، عالمة موقنة حتى لُباب العظام : أن النصر لا يكون ولن يكون إلاً بقضاء من الله المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . ولا يكون هذا القضاء ، إلاً إذا سعى المسلمون إلى ذلك سعيهم المقبول عند حاكم الكون . قال عزَّ وجل : { وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى . وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى } [ 39 — 42 : النجم ] . فإذا توجهت القيادات بالناس إلى الله وحده ، مُعدَّة العدة ، راجيةً منه النصر والعزة ، أناخ لها رؤوس الجبال ، وحكمها برقاب الظالمين المتجبرين : { هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا } . [ 44 : الكهف ] . ومن أراد أن يبلغ أعلى

درجات اليقين بنصرة الله وحده وهيمنة الله وحده وحكمته بين النصر والخذلان ،  
فليستعرض وقعتي الأحزاب وأُحد . وليتشرف بآيات نيرات نزلت فيهما ، ولقد  
تحدثنا عن وقعتي الأحزاب وأُحد ،

وتشرفنا بآيات نيرات نزلت فيهما لتبقى هذه الآيات إلى قيام الساعة ، أروع ذخائر  
للتفكير والتأمل ، والتطبيق العملي للدروس الكبيرة ، والعبير البليغة التي تضمنتها .  
فالخطبة الثالثة والأخيرة إذن ، في كتابنا هذا ، التي هي حجة كذلك في أعناق  
المسلمين ، في أي زمان ومكان كانوا ، هي وقعة حُنين .

فإلى وقعة حُنين ، مستفتحين باسم الله الأعظم جامع الأسماء ، بآيتها  
الشهيرتين ، قوله عزَّ وجل :

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ  
فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ  
أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } . [ 25 . 26 : التوبة ] .

ونتشرف أولاً بالتأمل بين الآيتين ، فنجد كأنهما صدفتا محارة إلهية ، منطبقة  
على أغلى لؤلؤة فريدة في الكون : هي التوحيد . ونستخرج بتعبُّد ورهبة ، وحب  
وخشوع ، هذا الكنز الأزلي الأبدي السرمدي ، فنجد فيه كمال الغنى المُعزِّ المفلح  
المنجح للفرد ، إن هو أحسن حفظه في قلبه وعقله وجوارحه . ونجد فيه كمال الغنى  
المُعزِّ المفلح المنجح للأمة ، إن هي أحسنت التعامل معه بقادتها وعلمائها وسوادها  
الأعظم . ومن أبرز معاني التوحيد : الإستعانة بالله وحده ، والإستقواء بالله وحده ،  
وحسن التوكل على الله وحده ، والإنتصار بالله وحده ، وطاعته وحبه سبحانه فوق  
كل حب .

ونستقرىء الخبر التاريخي في مَظَانِّهِ المحترمة ، من بداية الواقعة ، واقعة حُنين ،  
إلى نهايتها . متوقفين أمام عبرها ، مستعينين بالله وحده في إظهار ما تضمنته من  
الحكمة ، وإبراز ما كنزته من جواهر الحق ، ليعتبر بها ، وجوباً ، ليس العمي  
البهيميون ، وإنما أولو الأبصار الشجعان الصديقون .

## مقدمات واقعة حنين :

قال ابن إسحاق (1) : ولما سمعت هوازن (2) برسول الله (ص) وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصري ، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها . واجتمعت نصر وجشم كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بني هلال ، وهم قليل . ولم يشهدوا من قيس عيلان إلا هؤلاء . وغاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب . ولم يشهدوا منهم أحد له إسم . وفي بني جشم ذرئيد بن الصمة ، شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مجرباً . وفي ثقيف سيدان لهم ، في الأحلاف قارب بن مسعود بن معتب ، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه أحمر بن الحارث ، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري . فلما أجمع السير إلى رسول الله (ص) ، حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم . فلما نزل بأوطاس (3) اجتمع إليه الناس ، وفيهم دريد بن الصمة في شجار (4) له يقاد به . فلما نزل قال : بأي واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرر ولا سهل دهس (5) ، ما لي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاة ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم . قال : أين مالك ؟ قيل هذا مالك ، ودعي له ، فقال له : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام . ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاة ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم وأبنائهم

(1) السيرة النبوية لابن هشام 4/60 .

(2) وهي كبرى القبائل التي تزعمت الحرب ضد المسلمين بقيادة رسول الله (ص) .

(3) ويقال لها أيضاً غزوة أوطاس سميت بالموضع الذي كانت فيه الواقعة وهو من وطست الشيء وطساً إذا كدرته . والوطيس نقرة في حجر توقد حوله النار فيطبخ به اللحم .

والوطيس التنور ، وفي غزوة أوطاس قال رسول الله (ص) : الآن حمي الوطيس . وذلك حين استعرت الحرب ، وهي من الكلم التي لم يسبق إليها (ص) .

(4) الشجار : مركب أصغر من الهودج مكشوف أعلاه .

(5) ضرس : فيه حجارة مدبية ، ودھس : لين التراب .

ونساءهم ، قال ولم ذاك ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم . قال : فانقضَّ به<sup>(1)</sup> . ثم قال : راعي ضآن ، والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنما إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك . ثم قال ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا لم يشهدا منهم أحد . قال : غاب الحد والجد ، ولو كان يوم علاء ورفعة ، لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فمن شهدا منكم ؟ قالوا: عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ، قال : ذانك الجذعان<sup>(2)</sup> من عامر لا ينفعان ولا يضران . يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة<sup>(3)</sup> بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً . إرفعهم إلى متمنِّع بلادهم وعلياً قومهم ، ثم إلق الصِّباء على متون الخيل<sup>(4)</sup> ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك . قال والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك . والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . وكره أن يكون فيها لدريد بن الصمة ذكر أو رأي . فقالوا : أطعناك : فقال دريد بن الصمة : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

يا ليتني فيها جذع

أخبُّ فيها وأضع

أقود وطفاء<sup>(1)</sup> الرُّمَع

كأنها شاةٌ صدع<sup>(6)</sup>

وتعليقاً على هذه الفقرة من مقدمات هوازن ، نقول إن نصيحة دريد بن الصمة ، هي نصيحة الرجل المحنك ذو الدربة والتجربة الطويلة وهو المعروف في التاريخ بفروسيته وبأسه ، وشعره وحكمته ، إلا أنه لم يوفقه الله عز وجل لأن يطاع ، كما لم يوفق سيد القوم مالك بن عوف لأن يفكر ويقدر ، أو يبصر ويطيع ،

(1) انقضَّ به : زجره .

(2) مثنى جذع ، الشاب الحدث ، ويريد بهما هنا ، أنهما ضعيفان خاليان عن التجربة .

(3) البضة : الجماعة .

(4) يقصد بهم المسلمين .

(5) الوطفاء : طويلة الشعر ، والشاة : الوعل .

(6) الصدع : الفتي من الإنسان والحيوان وغيره .

وكذلك بقية القوم بقيادة هوازن ، لأنهم جميعاً أتوا مصرين على عداوتهم لله ولرسوله وللدين الذي أنزل سبحانه على رسوله (ص) ، فكان بديهيّاً أن يقضى لهم بالهزيمة ، والهزيمة النكراء ، لولا أنه تعالت حكمته ، شاء أن ينصرهم على المسلمين في البداية - كما سنرى - ليلقن المسلمين درساً بليغاً يقوّم به عقيدتهم ، ونواياهم وعزائمهم ، ما تمسكوا بحبله وعملوا في طاعته ، تبارك وتعالى عما يشركون .

قال ابن إسحاق : وحدثني أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أنه حدث : أن مالك بن عوف بعث عيوناً من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ! ما شأنكم ؟ فقالوا رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلُقٍ ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، فوالله ما ردّه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

وفي هذا الخبر أمران جديران بالتأمل ؛ الأول : عن الرجال البيض على الخيول البُلُقِ ، ما لم يكن معروفاً ولا مكشوفاً تحت أبصار المسلمين في تلك اللحظات . إذن هو من الله سبحانه ، إما ملائكة من الذين قال عنهم في الآية الثانية : { وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا } فأظهرهم سبحانه لهؤلاء ( العيون ) من هوازن وهذا هو الراجح ، وإما أنه عزّ شأنه ، بمثل هذه الطرق ، يقذف الرعب في قلوب أعدائه وأعداء أنصاره ، فتتخلع قلوبهم وتتفرق أوصالهم و { هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ } . [ 24 : الحشر ] . أو أنه سبحانه جمع عليهم كلا الأمرين ، وذلك هو الأرجح .

أما الأمر الآخر ، فهو هذا العناد الأعمى عند مالك بن عوف ، المتزعم لهذه الألوف ، التي جاء بها ليقذفها في أتون حرب طاحنة ، رغم ما تبين له من أن الله آتى المسلمين فيها أمراً عجباً . وهذا النموذج يذكرنا بالكثير الكثير من القادة والعساكر ، المعاندين الصمّ العمي أمثاله ، فهم يرون من الآيات في الآفاق وفي

أنفسهم ما يكفي لتراجعهم عن باطلهم ، ومع ذلك يظلون مصرين على خوض تلك التجارة الملعونة الخاسرة ، في معاداة المسلمين وشن الحروب عليهم .

قال ابن إسحاق : ولما سمع بهم نبي الله (ص) بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم ، فأقام فيهم ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله (ص) وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله (ص) ، فأخبره الخبر ، فدعا رسول الله (ص) عمر بن الخطاب ، فأخبره الخبر فقال عمر : كذب ابن أبي حدرد . فقال ابن أبي حدرد إن كذبتني فرمما كذبت بالحق يا عمر ، فقد كذبت من هو خير مني . فقال عمر : يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد ؟ فقال رسول الله (ص) : قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر .

### استعارة أدراع صفوان :

فلما أجمع رسول الله (ص) السير إلى هوازن ليلقاهم ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً له وسلاحاً ، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك ، فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً . فقال صفوان : أغضباً يا محمد ؟ قال بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ؛ فزعموا أن رسول الله (ص) سأله أن يكفيهم حملها ففعل . قال : ثم خرج رسول الله (ص) معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، فكانوا إثني عشر ألفاً ، واستعمل رسول الله (ص) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة ، أميراً على من تخلف عنه من الناس ، ثم مضى رسول الله (ص) على وجهه يريد لقاء هوازن .

### الشعر سلاح إعلامي قوي في المعركة :

كما في معركة هوازن هذه ، وكما في غيرها من المعارك ، وكذلك على مستوى الدعوة إلى الله عزَّ وجل ، كان الشعر له الدور الفعال في شتى مجالات التأثير الفكري والعاطفي ، ولا سيما الشعر الإسلامي الإيماني الصادق ، الذي كانت تخفق معه القلوب وتتوهج به النفوس ، كما تخفق رايات التوحيد فوق رؤوس المجاهدين الأبطال ، وكما تتوهج بالصدق سيوف الله المؤمنة .

ومحاولة للإحاطة بالمعاني التي كانت لواقعة حُنين ، من الخارج ومن الداخل ، يحسن بنا أن نذكر بعض الأشعار التي قيلت فيها آنذاك من شعراء كبار شهدوها ، وجاهدوا ، مع المسلمين ، تحت رايات لا إله إلا الله ، إلى جانب سيد المجاهدين محمد (ص) ، ولا سيما ذلك الشاعر الفذ ، الذي وفقه الله سبحانه وأطلق لسانه أكثر من غيره في هذه المعركة ، والذي هو عباس بن مرداس السلمي .

وبما أن قصائد هذا الشاعر البطل ، تكاد تشكل ديواناً كاملاً ، لذلك نجتزئ منها بإذنه تعالى ، ما تبدو فائدته أوضح وأيسر إلى قرّاء العربية المعاصرين .

فمن قصيدة لابن مرداس اخترنا قوله<sup>(1)</sup> :

وفي هوازن قوم غير أن بهم داء اليماني فإن لم يغدروا خانوا  
 فيهم أخ لو وفوا أو برَّ عهدهم ولو نهكناهم بالطعن قد لانوا  
 أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها مني رسالة نصح فيه تبيان  
 أي أظن رسول الله صابحكم جيشاً له في فضاء الله أركان  
 فيهم أخوكم سليم غير تارككم والمسلمون عباد الله غسان  
 وفي عضاداته اليمنى بنو أسد والأجربان بنو عبس وذبيان<sup>(2)</sup>  
 تكاد ترجف منه الأرض رهيبته وفي مقدّمه أوس وعثمان

قال ابن إسحاق : أوس وعثمان قبيلة مزينة .

انهزم المسلمون ... وثبت الرسول وبعض الصحابة :

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن ابن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله ، قال : لما استقبلنا وادي حنين ، انحدرتنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف حَطُوطٍ ، إنما ننحدر فيه انحداراً ، قال : وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلاّ الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين ، لا يلوي أحد على أحد .

(1) السيرة النبوية لابن هشام 4/63 .

(2) سماها بالأجرين تشبيهاً بالأجرب الذي لا يقرب .

وانحاز رسول الله (ص) ذات اليمين ، ثم قال أين أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . قال : فلا شيء ، حملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس ، إلاّ أنه قد بقي مع رسول الله (ص) نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وإبنة ، والفضل بن العباس ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن عبيد ، قتل يومئذ<sup>(1)</sup> .

قال ابن هشام<sup>(2)</sup> : اسم ابن أبي سفيان بن الحارث جعفر ، واسم أبي سفيان المغيرة . وبعض الناس يعد فيهم قثم بن العباس ، ولا يعد ابن أبي سفيان .

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن ابن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله ، قال : ورجل من هوازن على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء ، في رأس رمح له طويل ، أمام هوازن ، وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاتته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه .

قال ابن إسحاق : فلما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله (ص) من جفأة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو

(1) إن قيل : كيف فرَّ أصحاب رسول الله \* عنه حتى لم يبق معه إلا ثمانية ، والفرار من الزحف من الكبائر ، وقد أنزل الله فيه من الوعيد ما أنزل ، قلنا : لم يجمع العلماء على أنه من الكبائر إلا في يوم بدر ، كذلك قال الحسن ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وظاهر القرآن يدل على هذا ، فإنه قال : { وَمَنْ يُؤْمِدْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ } . [ 16 : الأنفال ] . فيؤمئذ إشارة إلى يوم بدر ، ثم نزل التحقيق بعد ذلك في الفارين يوم أُحُد وهو قوله : { وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ } . [ 152 : آل عمران ] . وكذلك أنزل يوم حنين : { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ } . [ 25 : التوبة ] إلى قوله { غَفُورٌ رَحِيمٌ } . وفي قول ابن سلام : كان الفرار من الزحف يوم بدر من الكبائر ، وأيضاً فإن المنهزمين عنه عليه السلام رجعوا لحينهم ، وقاتلوا معه حتى فتح الله عليهم . . هذا التعليق من السيرة النبوية لابن هشام : 4/65 .

(2) نفس المصدر .

سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام<sup>(1)</sup> لمعه في كنانته. وصرخ كلدة بن الحنبل : ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان بن أمية : اسكت فض الله فاك ، والله لأن يرئني رجل من قريش أحب إليّ من أن يرئني رجل من هوازن .

### شيبه بن طلحة يحاول قتل الرسول :

قال ابن إسحاق : وقال شيبه بن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخو بني عبد الدار ، قلت : اليوم أدرك ثأري . وكان أبوه قتل يوم أُحُد . اليوم أقتل محمداً . قال فأدرت برسول الله لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي ، فلم أطق ذاك ، وعلمت أنه ممنوع مني .

قال ابن إسحاق : زعم بعضهم أن رجلاً في جيش المسلمين ، من بني بكر ، قال حين فصل الناس من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة جنود الله : لن تغلب اليوم من قلة .

(1) روى علي بن إبراهيم في تفسيره أن الأزلام عشرة ، سبعة لها أنصباء ، وثلاثة لا أنصباء لها، فالتى لها أنصباء الفذ والتوأم والمشبل والنافس والحلس والرقيب والمعلى، فالفذ له سهم والتوأم له سهمان والمشبل له ثلاثة أسهم والنافس له أربعة والحلس له خمسة والرقيب له ستة والمعلى له سبعة أسهم ، والتي لا أنصباء لها الصفيح والمنيح والوغد ، وكانوا يعمدون إلى الجزور فيجزئونه أجزاء ثم يجتمعون عليه فيخرجون السهام ويدفعونها

إلى رجل ، وثمن الجزور على من تخرج له التي لا أنصبا لها وهو القمار فحرمه الله تعالى  
 { حَرَمْتَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخُنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ... أَنْ تَسْتَقْسِمُوا  
 بِالْأَزْلَامِ ... } . [ 3 : المائدة ] . والأزلام واحدها زلم وهو سهم لا ريش فيه . المصدر  
 : " مجمع البيان ، مجلد 2 . ج 6 . ص 18 " و " الكافي . معجم عربي حديث " .

\* \* \*

### وقضى الله للمسلمين ... بالنصر المبين :

قال تبارك وتعالى : { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ... } . [ 23 :  
 الإسراء ] . وقال عزَّ شأنه : { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا  
 يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } . [ 20 : غافر ] . { ... سُبْحَانَهُ  
 إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } . { 35 : مريم } .

قال العباس رضي الله عنه : شهدت مع رسول الله (ص) يوم حنين ، فلزمته  
 أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ولم نفارقه ، وهو على بغلة له بيضاء .  
 فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مدبرين . فطفق رسول الله (ص) يركض  
 بغلته قِبَلَ الكفار . قال عباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله (ص) أكفُّها ، إرادة  
 أن لا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله (ص) ، فقال عليه الصلاة والسلام  
 : ناد أصحاب السَّمْرَةَ<sup>(1)</sup> ( وكان رجلاً صَيِّتاً )<sup>(2)</sup> فقلت بأعلى صوتي : يا أصحاب  
 السمرة ، قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا  
 : يا لبيك ، يا لبيك ... وأقبلوا يقتتلون مع الكفار ، وكان النداء : يا للأنصار .  
 وأشرف رسول الله (ص) ينظر إلى قتالهم قائلاً :

الآن حمي الوطيس ، ثم أخذ حصيات من الأرض فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال :  
 إنهمزوا ورب محمد<sup>(3)</sup> .

وقذف الله في قلوب المشركين الرعب ، فانهزموا لا يلوي واحد منهم على

أحد ، واتبع المسلمون ألقفاءهم يقتلون ويأسرون ، فما رجع الناس إلأ والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله (ص) .

وروى ابن إسحاق وابن سعد ، بسند صحيح أن رسول الله (ص) التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبي طلحة ، فقال لها رسول الله

---

(1) هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(2) أي أن العباس كان ذا صوت جهوري .

(3) رواه مسلم وروى نحوه باختصار البخاري أيضاً، وترويه بتفصيل كل كتب السيرة.

(ص) : أم سليم ! ... قالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله (ص) ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك : . وكان معها خنجر . فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم : قالت خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به .

وفرَّ مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه حتى وصلوا إلى الطائف ، فامتنعوا بحصنها وقد تركوا وراءهم مغام كثيرة .

وأمر رسول الله (ص) بالمغام فحبست في الجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري ، واتجه (ص) بمن معه إلى الطائف فحاصروها ، وأخذت ثقيف تقذف المسلمين من حصونها بالنبال ، فقتل بذلك ناس منهم ، وظل رسول الله (ص) في حصاره للطائف بضعة عشر يوماً ، وقيل بضعة وعشرين يوماً . ثم بدا له أن يرتحل . روى عبد الله بن عمرو أنه (ص) أعلن في أصحابه : إنا قافلون إن شاء الله . فقال بعض أصحابه : نرجع ولم نفتتحه ؟ . فقال لهم : أعدوا على القتال . أي فقاتلوا إن شئتم . فعدوا عليه ، فأصابهم جراح ، فقال لهم رسول الله (ص) : إنا قافلون غداً ، فأعجبهم ذلك ، فضحك رسول الله<sup>(1)</sup> (ص) .

وقال بعض الصحابة لرسول الله (ص) : يا رسول الله أدع الله على ثقيف ، فقال : اللهم إهد ثقيفاً وائت بهم<sup>(2)</sup> .

قلت : وقد هدى الله ثقيفاً بعد ذلك بقليل ، فقد جاء وفداهم إلى رسول الله (ص) بالمدينة لإعلان إسلامهم .

## رسول الله (ص) يقضي بإذن الله في الغنائم :

العلم من الله والإذن من الله لرسوله (ص) شرطان أساسيان لقضائه (ص) في غنائم الحرب . وسنرى أنه (ص) في قسمة غنائم حنين ، ينحو نحواً يبدو عجباً

(1) متفق عليه .

(2) رواه ابن سعد الطبقات ، وأخرجه الترمذي في سننه ، وقد رواه ابن سعد عن عاصم الكلابي عن الأشهب ، عن الحسن .

قبل التأمل فيه ، وقبل معرفة نتائجه والغاية منه . ولا سيما فيما يختص بإعطاء أهل مكة . الذين كانوا لفترة قريبة ألدَّ أعدائه . أكبر الحصص . في حين أن الأنصار . من أهل المدينة . الذين تفاعلوا في نصرة دين الله ونصرة رسوله ، والجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، لم يعطهم ما يذكر . وحتى لا نستبق الحوادث ، نقرأ ونتمعن ، دون أن ننسى روعة العدالة والرحمة وسمو الهدف في كل عبرة من عبر الغنائم ، غنائم حنين وقسمتها . تلك هي عدالة الله ورحمة الله ، وإشارات كريمة إلى ما أعده الله سبحانه للمجاهدين الموقنين الحبين لله ولرسوله في الدنيا والآخرة :

... وعاد رسول الله (ص) إلى الجعرانة ، وفيها السبي والغنائم التي أخذت من هوازن في غزوة حنين . فقسم السبي هناك . ثم قدم عليه وفد من هوازن المسلمين ، وسألوه أن يرده عليهم أموالهم وسبيهم . فقام رسول الله (ص) في المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين . وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أراد منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل<sup>(1)</sup> .

فنادى الناس جميعاً : قد طيبتنا ذلك يا رسول الله .

وسأل رسول الله (ص) وفد هوازن . فيما رواه ابن إسحاق . عن مالك ابن عوف ما فعل ؟ فقالوا هو بالطائف مع ثقيف . فقال لهم أخبروه أنه إن أتى مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل . فأخبر مالك بذلك . فجاء يلحق

برسول الله (ص) حتى أدركه بين الجعرانة ومكة . فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل . وأسلم فحسن إسلامه .

(1) أي بأن يردّ السبي بشرط أن يعطى عوضه فيما بعد .  
وخصّ النبي المؤلفة قلوبهم . وهم أهل مكة . بمزيد من الغنائم والأعطيات ، يتألف بها قلوبهم على الإسلام ، فوجد بعض الأنصار من ذلك وقالوا: غفر الله لرسول الله ، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم<sup>(1)</sup> .  
فبلغ ذلك رسول الله (ص) فأرسل إلى الأنصار فاجتمعوا في مكان أعدّ لهم ، ولم يدع معهم أحداً غيرهم ، ثم قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :  
يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني عنكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي . (كلما قال لهم من ذلك شيئاً قالوا بلى ، الله ورسوله أمنٌ وأفضل ) ثم قال : ألا تحبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولسوله المن والفضل . فقال (ص) :  
أما والله لو شئتم لقلتم ، فَلصَدَقْتُمْ وَلصُدِّقْتُمْ : أتيتنا مكذباً فصدّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك فصاحوا : بل المن علينا لله ولسوله .

ثم تابع رسول الله (ص) قائلاً : أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لعاعة<sup>(2)</sup> من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به . والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، وإنكم ستلقون أثرة من بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

(1) رواه البخاري ورواه الطبري والبيهقي وابن سيد الناس كلهم عن طريق ابن إسحاق بمزيد من التفصيل .

(2) اللعاعة : بقلة خضراء تستهوي العين ، شبه بها الدنيا ...

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا رضينا بالله ورسوله قسماً ونصيياً  
(1)

وتبعه (ص) ناس من الأعراب يسألونه مزيداً من العطاء ، حتى اضطروه إلى سمرة تعلق بها رداؤه ، فالتفت إليهم قائلاً ؛ أعطوني ردائي أيها الناس ، فوالله لو كان لي بعدد شجر تامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم لا تجدونني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً أيها الناس والله ما لي من فيئكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

وأدرکه أعرابي فجذبه (ص) جذبة شديدة من بُردِهِ ، وكان عليه برد نجراي غليظ ، حتى أثرت حاشية الرداء في صفحة عنقه ، وقال له ، مُر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء<sup>(2)</sup> .

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله (ص) من الجعرانة معتمراً ، فلما فرغ ، انصرف راجعاً إلى المدينة ، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد .

## آيات ولقطات وصور من حنين :

### الملائكة تحضر القتال :

قال ابن إسحاق : وحدثني أبي إسحاق بن يسار ، أنه حدث عن جبير ابن مطعم ، قال : لقد رأيت - قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون - مثل البجاد<sup>(3)</sup> الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي لم أشك أنها الملائكة ، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم .

(1) رواه البخاري ومسلم ، وابن إسحاق ، بنصوص متقاربة في الزيادة والنقصان .

(2) متفق عليه .

(3) البجاد : الكساء .

ولعل إلى هذا وغيره أشار في قوله سبحانه : { ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } . [ 26 : التوبة ] . ورؤية جبير بن مطعم للملائكة بهذه الصورة لا تتنافى مع قوله عز وجل { جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا } إذ أن الخطاب في إثبات عدم الرؤية ، هو خطاب لعامة المسلمين الموجودين في المعركة ، ولعله استثنى جبيراً هذا ، لإلقاء الحجمة في إثبات الخبر ، ليكون مصداقاً للآية الكريمة في تاريخ هذه الواقعة من جهة ، وفي تاريخ عامة الوقعات التي يصدق فيها المسلمون مع ربهم مجاهدين في سبيله بالأموال والأنفس كما يجب ويرضى سبحانه .

\* \* \*

قال ابن إسحاق : ولما هزم الله المشركين من أهل حنين ، وأمكن رسوله (ص)

منهم ، قالت امرأة من المسلمين :

قد غلبت خيل الله خيل اللات والله أحق بالثبات

قال ابن هشام : أنشدني بعض أهل العلم بالرواية للشعر :

غلبت خيل الله خيل اللات وخيله أحق بالثبات

\* \* \*

قال ابن إسحاق : فلما انهزمت هوازن استحر القتل من ثقيف في بني

مالك ، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن

الحارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع ذي الخمار<sup>(1)</sup> ، فلما قتل أخذها عثمان

فقاتل بها حتى قتل .

قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأحنس : أنه قتل مع عثمان بن عبد الله غلام له نصراني أَعْرَل<sup>(2)</sup> ، قال : فيينا رجل من الأنصار يسلب قتلى ثقيف ، إذ كشف العبد يسلبه ، فوجده أعرل . قال :

(1) هو عوف بن الربيع .

(2) الأعرل : غير المختن .

فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب : يعلم الله أن ثقيفاً غرلُ . قال المغيرة بن شعبة : فأخذت بيده ، وخشيت أن تذهب عنا في العرب ، فقلت : لا تقل ذلك ، فداك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني . قال ثم جعلت أكشف له عن القتلى ، وأقول له : ألا تراهم مُحْتَنِينَ كما ترى .

\* \* \*

قال ابن إسحاق : ولما انهزم الناس قال مالك بن عوف يرتجز بفرسه :

أقدم محاج<sup>(1)</sup> إنه يوم نكر مثلي على مثلك يحمي ويكر

إذا أضيع الصف يوماً والدبر ثم اخزألت زمر بعد زمر<sup>(2)</sup>

كتائب يكلُّ فيهن البصر قد أظعن الطعنة تقذي بالسُّبْرِ<sup>(3)</sup>

حين يذم المستكين المنجحر وأظعن النجلاء تعوي وتهر<sup>(4)</sup>

لها من الجوف رشاش منهمر تفهق تارات وحيناً تنفجر<sup>(5)</sup>

وثعلب العامل فيها منكسر يا زيد يا بن همهم أين تفر<sup>(6)</sup>

قد نفذ الضرب وقد طال العمر قد علم البيض الطويلات الخمر

أني في أمثالها غير غمر إذ تخرج الحاصن من تحت الستر

في هذه الأرجوزة ، أو الشعر ، لمالك بن عوف هذا ، تلاحظ ملاحظته وقوة

تعبيره ، وجمال سبكه ، وأنه يعبر عن مزاجية الفارس الشاعر ، ذي العنفوان القيادي

والنخوة العارمة ، كما يلاحظ فيه . وهذا ما أردنا التنويه عنه . خلَّوهُ من أي ذكر لله

ومن أية إشارة إلى الإيمان به سبحانه .

ذلك هو الفارق المصيري بين أصناف الناس عامة : أناس وهبهم الله

- (1) محاج : اسم فرسه .  
 (2) احزألت : ارتفعت .  
 (3) السبر : جمع سبير ، فتيل يسبر به الجرح .  
 (4) النجلاء : الطعنة الواسعة . تعوي وتقر : أي يسمع لخروج الدم منها أصوات كالعواء والهرير .  
 (5) تفهق : تنفتح .  
 (6) الثعلب : عصا الرمح الداخلة في السنان . العامل : أعلى الرمح .  
 طاقات ، ليؤمنوا به ويطيعوه ، ويتكاملوا تبعاً لذلك فيفوزون برضاه ورضوانه . ولكنهم صموا وعموا ووجدوه فخسروا الخسران المبين . وأناس وهبهم الله نفس الطاقات ، فأمنوا وأيقنوا ، وسمعوا وأبصروا ، فنجوا ، وذلك عند الله هو الفوز العظيم .

من هنا تحسن المقارنة بين هذا الشعر الجميل ، الجمال الكافر ، الجمال الخاسر ، الذي سيصبح يوماً في ميزان الشعر والفن عامة ، أقرب ما يكون إلى القبح ، بل يصبح هو القبح بعينه . ذلك يومَ توضع الموازين الحق ، الموازين الدقيقة العادلة ، قوله تعالى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ } . [ 47 : الأنبياء ] . تحسن المقارنة بينه وبين أشعار يمجد فيها الله ، الذي هو ربُّ الشعر ومعلم الشعر ومعلمهم الشعر ، وليس أي شعر ، وإنما الشعر النظيف ، الطاهر ، الذي تحكيه الملائكة ولا توسوس به الشياطين . من هذا الشعر الأصيل التعبدي ، الذي يسمو بالنفوس الأصيلة إلى الآفاق اللازوردية العليا ، ما قاله شعراء الفروسية المؤمنة ، في واقعة حنين ، هذه التي نحن بصددها ، وسنرى إن شاء الله مزيداً منه على الصفحات التالية ، للفارس الشاعر عباس بن مرداس السلمي .

هذه المقارنة ترينا الفارق العجيب ، بين إيجابية التأمل وسلبيته ، بين قوة الحق وهشاشة الباطل ، بين التركيز والصفاء ، وبين التأزم والفوضى الفكرية والنفسية ، هذه الصفات التي للفريقين ، ستبقى تصنف الناس إلى قيام الساعة ، سواء الشعراء والمجاهدون وبقية الأنام ، كل في موقعه ، ما دام الصراع قائماً بين أهل الحق وأهل الباطل ، بين أنصار الله وأنصار الطاغوت والنفوس الأمارة ، وسيبقى كذلك ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ومثل آخر على الشعر الذي فيه ملامح الجاهلية وقسوتها ، وضيق آفاقها وفضاؤها ، هذا لمن اختار البقاء على انغلاقه وشركه ، وأقول شركه وليس كفره ، ولو كان لهما نفس المصير ، لأن المشركين كانوا يؤمنون بالله ، ولكن على أساس أنه إله أكبر من بقية الآلهة المزعومة التي كانوا يعبدونها ، يؤمنون به سبحانه إيماناً فطرياً محصوراً في لفظة " الله أو الإله أو اللّهم " ، ولا يتجاوزونها إلى ما يتعلمه المسلم فور إسلامه من معانٍ عظيمة وعميقة وشاملة لمفهوم الألوهة وحقائق هذا المفهوم ، هذه الحقائق التي يقذفها الله تعالى في قلب المسلم المؤمن نوراً يمحو منه الظلام والضلال والحيرة وشتات الذهن ، فيمشي في مدارج النور الأجل فالأجل ، كلما ارتقى درجة اكتشف سموّاً وعلوّاً وسعادة أوسع ، وما أكرم وما أرحم وما أعطى ربُّ العرش العظيم : { ... نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } . [ 35 : النور ] .

والمثل الذي سنذكره ، هو كذلك من وقائع حنين ، ذلك الباب الذي فتحه الله عريضاً لفهم الألوهة وفهم التوحيد ، رحمةً بالمسلمين ، وتكريماً وتعميقاً ليقين أهل اليقين . وهذا المثل يتعلق بمقتل الفارس والشاعر الجاهلي دريد بن الصمة ، حيث رثته ابنة له اسمها عمرة ، بأبيات تسأل فيها الإله - كما سنرى - أن يسقيها من دماء المسلمين ، وخاصة بني سليم ، الذين قتلوا أباه ، رغم أن أباه هذا ، قد تنكر لله وللرسالة التي أرسل بها رسوله محمداً (ص) ، ومات على الشرك ، وهو - كما ذكرنا آنفاً على لسان ابن إسحاق - " شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب " .

قالت عمارة بنت دريد في قتل ربيعة<sup>(1)</sup> دريداً :

لعمرك ما خشيت على دريد	ببطن سميرة جيش العناق <sup>(2)</sup>
جزى عنه الإله بني سليم	وعقَّتْهم بما فعلوا عقاق
وأسقانا إذا قدنا إليهم	دماء خيارهم عند التلاقي
فرب عظيمة دافعت عنهم	وقد بلغت نفوسهم التراقي
ورب كريمة أعتقت منهم	وأخرى قد فككت من الوثاق
ورب منوّه بك من سليم	أجبت وقد دعاك بلا رماق <sup>(3)</sup>

فكان جزاؤنا منهم عقوقاً وهماً ماع منه مخ ساقى

- (1) ربيعة : اسم المسلم الذي قتل دريد بن الصمة .  
(2) سميرة : واد قرب حنين . العناق : الأمر الشديد .  
(3) الرماق : أو الرمق بقية الحياة .
- عفت آثار خيلك بعد أين بذى بقر إلى فيف النهاق<sup>(1)</sup>  
وقالت عمرة بنت دريد أيضاً :
- قالوا قتلنا دريداً قلت قد صدقوا فظل دمعي على السربال ينحدر  
لولا الذي قهر الأقوام كلهم رأيت سليم وكعب كيف تأتمر  
إذن لصبحهم غباً وظاهرة حيث استقرت نواهم جحفل ذفر<sup>(2)</sup>  
ومقارنة مع هذين النموذجين ، نورد أبياتاً من قصيدة لعباس بن مرداس  
السلمي يذكر فيها قارب بن الأسود وفراره من بني أبيه ، وذا الخمار وحبسه قومه  
للموت في حنين :

- ألا من مبلغ غيلان عني وسوف . إخال . يأتيه الخير<sup>(3)</sup>  
بأن محمداً عبداً رسولاً لرب لا يضل ولا يجور  
أضاعو أمرهم ولكل قوم أمير والدوائر قد تدور  
فجئنا أسد غابات إليهم جنود الله ضاحية تسير<sup>(4)</sup>  
فكنا أسد لية ثم حتى أبجناها وأسلمت النصور<sup>(5)</sup>  
قتلنا في الغبار بني حطيظ على راياتها والخيل زور<sup>(6)</sup>  
ولم يك ذو الخمار رئيس قوم لهم عقل يعاقب أو مكير  
أقام بهم على سنن المنايا وقد بانث لمبصرها الأمور

- (1) ذو بقر : موضع . فيف : قفر . النهاق : موضع .  
(2) الغب : في الأصل أن ترد الإبل الماء يوماً بعد يوم . وظاهرة أن ترده كل يوم . ذفر :  
ذو رائحة كريهة من صدأ الحديد .  
(3) إخال : في معنى أظن ، وليس يريد أن يظن فيما يستقبل ، وإنما يريد أنه يخال الآن أنه  
سيكون ذلك .

- (4) ضاحية : ظاهرة .  
 (5) قيل إنها جمع ناصر وقيل هم بنو نصر من هوازن رهط عوف بن مالك النصرى يقال لهم النصور .  
 (6) زور : مائلة .

فأقلت من نجا منهم جريضاً وقُتِلَ منهم بشرٌ كثيرٌ<sup>(1)</sup>  
 أحانهم وحن وملكوه أمورهم وأفلتت الصقور  
 بنو عوف تميح بهم جياذ أهين لها الفصافص والشعير<sup>(2)</sup>  
 فلولا قارب وبنو أبيه تقسمت المزارع والقصور  
 ولكن الرياسة عمموها على يمن أشار به المشير  
 أطاعوا قارباً وهم جدود وأحلام إلى عز تصير  
 فإن يهدوا إلى الإسلام يلقوا أنوف الناس ما سمر السمير  
 وإن لم يسلموا فهم أذان بحرب الله ليس لهم نصير  
 كما حگت بني سعد وحرب برهط بني غزيرة عنقفير<sup>(3)</sup>  
 كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام ضائنة تخور  
 فقلنا أسلموا إننا أخوكم وقد برئت من الإحن الصدور  
 كأن القوم إذ جاؤوا إلينا من البغضاء بعد السلم عور

وحيث أننا في اتجاه واحد بعون الله تعالى ، في كتابنا هذا ، وفي أفكارنا وكتاباتنا عامة ، هو الدعوة إلى الله ، فسنقف أمام الأبيات التي أنشئت من أجلها القصيدة ، أي التي هي روح هذا الشعر كله ، الأبيات التي تدعو إلى دين الله بشكل أو بآخر ، أي التي تدور بالنتيجة حول الدعوة إلى الله ، من ذلك قول ابن مرداس السلمي :  
 ألا من مبلغ ... إلى قوله :

بأن محمداً عبداً رسولاً لرب لا يضل ولا يجور

هذا الفهم المتقدم الأصيل ، عن الألوهة وعن النبوة ، هو فهم لم يتجاوز عمره عند ابن مرداس هذا بضع عشرة سنة ، ومع ذلك جاء بهذا العمق الفكري والأصالة

. صحيح أن هذا المفهوم هو الذي أراده الله من الناس ، وهذا ما بلغه محمد (ص) عن نفسه ، بأنه هو مجرد عبد لله ، اختاره ربه واصطفاه وحمله رسالة

(1) الجريص : من يغصُّ بريقه .

(2) الفصافص : جمع فصفصة : النبات التي تأكله المواشي رطباً .

(3) العنقفير : الداهية .

جاء يؤديها بأقصى جهده ووسع طاقته ، وأنه ليس هو الغاية ولا النهاية ، وإنما الغاية والنهاية التي لا تنتهي ، هو الله سبحانه وجلَّ جلاله . وأن المطلوب ذكره دائماً وأبداً ، وتذكره دائماً وأبداً ، هو رب محمد (ص) رب العالمين ، هو سبحانه " رب لا يضل ولا يجور " كما تعلم هذا عباس بن مرداس من ربه الذي أرسل إليهم محمداً (ص) يخبرهم . تفصيلاً . بمعاني شهادة أن لا إله إلا الله ، بعد أن عرفوها . جملة . بالفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وبالإشهاد ، قبل إهباطهم إلى الأرض هذه .

وما أحوج الناس اليوم إلى هذا المفهوم ، الذي أصبح عمره أربعة عشر قرناً هي عمر الرسالة ، فبدلاً من أن يزيدهم طول الزمان ، وكثرة العلوم ، ووضوح الآيات فهماً للألوهة والتوحيد ، وعملاً بتعاليم الله وإقبالاً على كتابه المجيد ، إذا بهم يتوجهون إلى غير الله عزَّ وجل ، بالذكر وبشتى المطالب ، حتى وينسونه نسياناً يكاد يكون تاماً ، فأغرقوا في المعاصي بجميع أنواعها ، فأغرقهم سبحانه في العماية والضلالة وأنواع الإنتكاسات ، وأقفل عليهم حتى معاني كتابه الكريم ، فهم . إذا قرأوه . لا يتدبرونه ولا يفهمونه . قوله عزَّ وجل : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا } . [ 57 : الكهف ] .

فالمطلوب الرجوع إلى أصالة الاعتقاد وأصالة التوجُّه ، فإن محمداً (ص) أدى رسالته ، وأصبح في جوار ربه ، وبقي على الناس المسلمين أن يترسموا صدقه وإخلاصه ، وجهاده ، هذه الصفات وإن كانت فيه قمماً عالية في تاريخ الأنبياء والرسالين والقياديين عامة ، إلا أن السعي للوصول إليها أو الإقتراب منها ليس معجزاً ، ما دام الله سبحانه ندب إلى ذلك وأمر به في آيات كثيرة ، منها قوله عزَّ وجل : { لَقَدْ كَانَ

لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ  
 كَثِيرًا} . [21: الأحزاب] . وقوله عز وجل : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ  
 وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} . [31: آل عمران] .

ومما يدل على الإعتقاد الأصيل والمطلوب ، قول هذا الشاعر في البيت الرابع  
 : . جنود الله . ولم يقل جنود محمد (ص) . ذلك ومحمد (ص) بينهم يسمع هذا الشعر  
 ، ويشجعه ويؤكد على معانيه ما دامت تدعو إلى الله عز شأنه . بينما بعد محمد (ص)  
 بزمان يسير ، وإلى يومنا هذا ، رأينا أكثر المداحين يعتصرون أفكارهم وأشعارهم وخطبهم  
 ، ويسفحونها رخيصة أمام حتى الطواغيت الصغار ، من المتنفيين والمتسلطين وأرباب  
 المناصب ، وينسون الله إلاً لماما . أما إذا كان الحاكم كبيراً ، فيتزاحم على أبوابه  
 الوصوليون والانتهازيون ، حتى ليكادوا يقتلون بعضهم بعضاً ، حسداً ونميمةً وتدافعاً  
 بالمنالك وزحفاً على الوجوه .

فإذا دعوت المؤمنين العاديين منهم إلى الإيمان الحقيقي ، الإيمان الأصيل ،  
 وذكركم بالله وحده ، وذكرت لهم أن الله ينهى عن ذلك ويجرمه ، تذرعو بالذرائع .  
 إلاً من رحم ربك . وتفلسفوا وتفاقهاوا ووجدوا لكل شاذة غطاء . ثم تصيبهم أمراض  
 عامة الناس ، فيشكون منها : الصداع والأرق ، والقلق ، والتوتر ، والبلاءات ، ما  
 قلَّ منها وما كثر ، وما صغر منها وما كبر ، والله سبحانه أوعدهم على لسان رسوله  
 (ص) بقوله : { إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ  
 إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ } . [ 10 : غافر ] . ثم قوله عزت عظمته متابعاً بعدها بآية :  
 { ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ  
 } . [ 12 : غافر ] .

وما أجمل ما قال هذا الشاعر ، في قصيدته هذه ، كاشفاً عن حقيقة إيمانه  
 وتقواه ، وأخلاقه الإسلامية الجديدة الرائعة ، وحماسه الشديد لرسالة ربه عز وجل ،  
 قوله في هذين البيتين عن هوازن وهم آنذاك أعداء الله :

فإن يهدوا إلى الإسلام يلقوا  
 أنوف الناس ما سمر السمير  
 وإن لم يسلموا فهم أذان  
 بحرب الله ليس لهم نصير

فقلوه " يلفوا أنوف الناس ما سمر السمير " أي أنهم يصبحون في واجهة المجتمع ، ويكون لهم في الوقائع ، التقديم ، وفي القيادة والرياسة نصيب وافر ، وهذا يدل على مدى ما اكتسب هذا الرجل في إسلامه الجديد من خلق الإيثار وتقديم الآخرين . إذا آمنوا . والتواضع لهم . بينما القاعدة الكريهة التي كانت سائدة آنذاك ، وكان الناس ما زالوا متلبسين عميقاً بها ، هي الأنانية الفردية والأثرة القبلية ، أي تعالي الفرد وتفضيله لنفسه ، وتفضيل قبيلته على بقية القبائل ، فلا يرضى إطلاقاً أن يكون ( أنوف الناس ) قوم غير قومه ، وقبيل غير قبيله ، علماً أن ابن مرداس هو من قبيلة بني سليم ، وهي من القبائل الشهيرة التي ألفت في نصره الإسلام منذ أول عهده ، يعني بلغ تعداد المجاهدين منها في سبيل الله ألف مقاتل .

ولفتة أخرى تدلل على أخلاقية جديدة ، وفهم سريع رائع لمضامين الرسالة السماوية العتيدة ، قول ابن مرداس السلمي :

فقلنا أسلموا إننا أخوكم      وقد برئت من الإحن الصدور

وذلك ما لم يكن مألوفاً في الجاهلية ، إذ كانت ( إحن الصدور ) أي الحزازات والأحقاد بين القبائل المتنافسة ، سواء على الزعامة أو المكاسب أو على تراكم مستدعيات الثأر ، هي مذهب أولئك الأقوام ، وقد عبّر أحد شعرائهم عن ذلك تعبيراً بليغاً بقوله :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى      وتبقى حزازات النفوس كما هيا

والدمن جمع دمنة ، وهي الأماكن التي يجمع فيها السماد وروث المواشي عامة . ومعلوم أن ما ينبت عليها من الخضرة النضرة النامية ، تعف عنها المواشي بالغريزة لقبح منبتها ، فلا تأكلها إطلاقاً ، فما ينبت على الدمن مستحيل أن يكون مرعى للأنعام . والجاهلي هذا أراد أنه حتى ولو وقع هذا المستحيل ، فهناك مستحيل أكبر منه ، وهو أن تزول حزازات النفوس ، أي إحن الصدور وأحقادها . هذا المفهوم الجاهلي ، الذي بلغ من الأقوام لبَّ العظام ، أزاله الدين الحنيف : الإسلام ، دين الله الحليم الكريم والرحمان الرحيم . وسرعان ما غسل القلوب المؤمنة ، فطهرها من

إحن الجاهلية وحزازاتها وأحقادها ، لذلك رأينا العباس بن مرداس السلمي ، هذا الشاعر الإسلامي الداخل لتوّه في الدين الكريم، يدعو أعداء الأُمس إلى هذه الرسالة العالمية الإنسانية الأخلاقية العظمية ، التي هي الإسلام لله ، والأخوة في الله ، بعد ذاك التنافر والتحاقد ولؤم السرائر وقسوة القلوب ، فجاءت دعوته ، عبر المعارك الضارية : " ... فقلنا أسلموا إنّنا أخوكم... " فتحاً إنسانياً وأخلاقياً في جملة الفتوحات المباركة الكثيرة ، المتعددة المعاني ، التي فتحها الله على الناس ، حيث هم أسلموا وكانوا من المؤمنين وكانوا من الصديقين .

\* \* \*

## من قتل قتيلاً فله سلبه :

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر ، أنه حدث عن أبي قتادة الأنصاري قال : وحدثني من لا أتهم من أصحابنا ، عن نافع مولى بني غفار أبي محمد عن أبي قتادة : قال : قال أبو قتادة : رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان : مسلماً ومشركاً ، قال وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم . قال فأتيته فضربت يده فقطعتها ، واعتقني بيده الأخرى ، فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الدم . ويروى : ريح الموت ، فيما قال ابن هشام . وكاد يقتلني ، فلولا أن الدم نرّفه لقتلني ، فسقط ، فضربته فقتلته ، وأجهضني عنه القتال ، ومّرّ به رجل من أهل مكة فسلبه ، فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم ، قال رسول الله (ص) : من قتل قتيلاً فله سلبه . فقلت : يا رسول الله ، والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب ، فأجهضني عنه القتال ، فما أدري من استلبه ؟ فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله ، وسلب ذاك القتيل عندي ، فأرضه عني من سلبه . فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا والله ، لا يرضيه منه ، تعمد إلى أسد من أسد الله ، يقاتل عن دين الله ، تقاسمه سلبه ؟! أردد عليه سلب قتيله . فقال رسول الله (ص) : صدق فأردد عليه سلبه . فقال أبو قتادة :

فأخذته منه ، فبعته ، فاشتريت بثمنه مخرفاً<sup>(1)</sup> فإنه لأول مالٍ اعتقدته .

\* \* \*

## اللهم اجبر مصيبتهم ... وخروج مالك بن عوف :

واستحر القتل من بني نصر في بني رثاب ، فزعموا أن عبد الله بن قيس . وهو الذي يقال له ابن العوراء ، وهو أحد بني وهب بن رثاب . قال : يا رسول الله هلكت بنو رثاب . فزعموا أن رسول الله (ص) قال : اللهم اجبر مصيبتهم .  
وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة ، فوقف في فوارس من قومه على ثنية من الطريق ، وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضي ضعفاؤكم ، وتلحق أخراكم . فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس .

\* \* \*

## اللهم اشهد عليه :

قال ابن هشام : وحدثني من أثق به من أهل العلم بالشعر ، وحديثه أن أبا عامر الأشعري لقي يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدهم ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعو إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر . ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعو إلى الإسلام ، ويقول ، اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر . ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ، ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك ، حتى قتل تسعة ، وبقي العاشر ، فحمل على أبي عامر ، وحمل عليه أبو عامر وهو يدعو إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد عليّ ، فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه . فكان رسول الله (ص) إذا رآه قال : هذا شريد أبي عامر .

(1) المخرف : نخلة واحد أو نخلات يسيرة إلى عشر .

ورمى أبا عامر أخوان : العلاء وأوفى ابنا الحارث ، من بني جشم بن معاوية ، فأصاب أحدهما قلبه ، والآخر ركبته ، فقتلاه . وولي الناس أبو موسى الأشعري فحمل عليهما فقتلهما ، فقال رجل من بني جشم بن معاوية يرثيهما :

إن الرزية قتل العلاء      وأوفى جميعاً ولم يسندا (1)  
هما القاتلان أبا عامر      وقد كان ذا هبة أريدا (2)  
هما تركاه لدى معرك      كأن على عطفه مجسدا (3)  
فلم تر في الناس مثليهما      أقل عثاراً وأرمى يدا

\* \* \*

### المنهي عن قتلهم :

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أصحابنا : أن رسول الله (ص) مرَّ يومئذ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس متقصِّفون (4) عليها ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد : فقال رسول الله (ص) لبعض من معه : أدرك خالداً فقل له : إن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً (5) .

\* \* \*

### الشيماء أخت الرسول :

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض بني سعد بن بكر : أن رسول الله (ص) قال يومئذ : إن قدرتم على بجاد فلا يفتلنكم ، وكان قد أحدث حدثاً ، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء ، بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله (ص) من الرضاعة ، فعنفوا عليها في السياق : فقالت للمسلمين :

(1) لم يسندا : لم يبق فيهما رمق .

(2) ذاهبة : له سيف ذو هبة ، والهبة : الإهتراز .

(3) المجسد : المصبوغ بالجساد وهو الزعفران .

(4) متقصِّفون : مجتمعون في ازدحام .

(5) العسيف : الأجير .

تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله (ص) .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن عبيد السعدي ، قال : فلما انتهيت بها إلى رسول الله (ص) ، قالت يا رسول الله ، إني أختك من الرضاعة ، قال وما علامة ذلك ؟ قالت عصّة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك ، قال فعرف رسول الله (ص) العلامة ، فبسط لها رداءه ، فأجلسها عليه ، وخيرها ، وقال : إن أحببت فعندي محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتّعك<sup>(1)</sup> وترجعي إلى قومكم فعلت ، فقالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي . فتمتعها رسول الله (ص) وردها إلى قومها: فرعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً له يقال له مكحول ، وجارية ، فزوجت أحدهما الأخرى ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية .

\* \* \*

### شهداء حنين :

قال ابن إسحاق : وهذه تسمية من استشهد يوم حنين من المسلمين :  
من قريش ثم من بني هاشم : أيمن بن عبيد .  
ومن بني أسد بن عبد العزى : يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، جمع به فرس له يقال له الجناح ، فقتل .  
ومن الأنصار : سراقبة بن الحارث بن عدي ، من بني العجلان .  
ومن الأشعرين : أبو عامر الأشعري .

\* \* \*

### بعض ما قيل من الشعر في حنين :

وهذه بعض النماذج الرائعة من الشعر الذي قيل في حنين :

---

(1) أي أعطيك ما يمتعك أي ما يكون فيه متعتك وانتفاعك .

قال بجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم حنين :

لولا الإله لكنتم ولئيم حين استخفَّ الرعب كلَّ جبان  
بالجزع يوم حبا لنا أقراننا وسوابحٌ يكبون للأذقان (1)  
من بين ساعٍ ثوبه في كفه ومقطرٌ بسنابك ولبان (2)  
والله أكرمنا وأظهر ديننا وأعزنا بعبادة الرحمن  
والله أهلكهم وفرق جمعهم وأذلهم بعبادة الشيطان

قال ابن إسحاق : وقال عباس بن مرداس :

يا خاتم النبء إنك مرسلٌ بالحق كل هدى السبيل هداكا  
إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ومحمداً سماكا  
ثم الذين وفوا بما عاهدتم جند بعثت عليهم الضحاكا  
رجل به ذرب السلاح كأنه لما تكنفه العدو يراكا (3)  
يغشى ذوي النسب القريب وإنما يبغى رضا الرحمن ثم رضاكا  
أنبيك أني قد رأيت مكره تحت العجاجة يدمغ الإشراكا  
طوراً يعانق باليدين وتارة يفري الجماجم صارماً بتاكا (4)  
يغشى به هام الكماة ولو ترى منه الذي عاينت كان شفاكا  
وبنو سليم معنقون أمامه ضرباً وطعنأ في العدو دراكا (5)  
يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد العرين أردن ثم عراقا (6)  
ما يرتجون من القريب قرابة إلا لطاعة ربهم وهواكا  
هذي مشاهدنا التي كانت لنا معروفة وولينا مولاكا

- 
- (1) الجزع : ما انعطف من الوادي . حبا : اعترض . سوابح : أي خيل سوابح وهي المسرعة . يكبون : يسقطون .  
(2) مقطر : ملقى على قطره ، أي جنبه . ولبان الفرس : صدره .  
(3) ذرب السلاح : حدة السلاح .  
(4) بتاك : قاطع .  
(5) معنقون : مسرعون . دراك : متتابع .  
(6) العراك : المدافعة .

وقال عباس بن مرداس أيضاً :

- إِما تَرِيَّ يا أُمَّ فِروَةَ خيلِنا      مِنا مِعطَلَةٌ تَقادُ وَظَلَعُ (1)  
أو هِي مِقاَرِعةُ الأَعادي دِمِها فِياها نِوافِذُ مِن جِراحِ تِبايعِ  
لا وَفِدِ كِالِوَفِدِ الأُلى عَقِدوا لِنِنا أِزِمِ الحِروِبِ فِسِرِباها لا يَفِرِعُ (2)  
فِهناكَ إِذِ نِصِرِ النَبِيِّ بِأَلِفانا عَقِدِ النَبِيِّ لِنِنا لِوِاءٌ يَلِمِعُ  
فِزِنا بِرايِتا وَأورِثِ عَقِدِها مِجِدِ الحِياةِ وَسُودِداً لا يَنْزِعُ  
وَغِداةُ نَحِنا مِعا نَبِيِّ جِناحِها بِباطِحِ مِكاةِ وَالقِنا يَتِهزِعُ (3)  
كانتِ إِجابِتا لِدِعايِ رَبِنا بِالحِقِ مِنا حاسِرِ وَمَقنَعُ  
فِيا كِلِ سابِغَةَ تَخِيرا سِرِداها داوِدِ إِذِ نَسِجِ الحِديدِ وَتُتَعُ (4)  
ولِنا عَلى بَثِري حَنِينِ مِوكِبِ دِمِغِ النِفاقِ وَهَضِبِتا ما تَقَلِعُ  
نِصِرِ النَبِيِّ بِنِنا وَكِنا مِعِشِراً فِيا كِلِ نائِبَةَ نِصِرِ وَنِنا  
زِدِنا غِداَتِنا هِوازِنا بِالقِنا وَالخِيلِ يَغِمِرها عِجاغِ يَسِطِعُ  
إِذِ خافِ حِدِهمِ النَبِيِّ وَأَسِندوا جِمعاً تِكاَدِ الشِمسِ مِنا تَخِشِعُ  
تَدِعى بِنِواجِشِمْ وَتَدِعى وَسِطِها أَفِنا نِصِرِ وَالأَسِناةُ شُرْعُ (5)  
حَتِيا إِذا قالِ الرِساوِلِ مُحَمَّدِ أَبِنايِ سِليِمِ قَدِ وَفِيتِمِ فارِفاوا  
رِحِنا وَلِولا نَحِنا أَجِحِفُ بِأَسِهمِ بِالْمُؤْمِنايِ وَأَحِرِزاوا ما جِمعوا (6)

وقال عباس بن مرداس أيضاً في يوم حنين :

- عِفا مِجِدَلُ مِنا أَهَلِها فِمِتاَلُ      فِمِطِلا أَرِياكَ قَدِ خِلا فِالمِصانِعِ (7)  
دِيارِ لِنِنا جُمَلُ إِذِ جُمَلُ عِيشِنا      رِخِيٌّ وَصِرفِ الدِارِ لِلِحيِ جِامِعِ

(1) الظلع : العرج . (2) الأزم : الشدة .

(3) يتهزع : يضطرب .

(4) السابغة : الدرع الكاملة . السرد : النسج . تبع : لقب ملوك اليمن القدماء .

(5) الأفناء : الجماعة ليست من أصل واحد ، الأخلاط .

(6) أجحف : نقص .

(7) مجدل : مكان . متالع : جبل . المطلاء : الأرض السهلة . أريك : موضع . المصانع

: ما يجتمع فيها ماء المطر كالأحواض .

حبيبة قد ألت بها غربة النوى لبينٍ فيها ماضٍ من العيش راجع  
 فإن تبغى الكفار غير ملومة فإنى وزير للنبي وتابع  
 دعاني إليهم خير وفدٍ علمتهم خزيمة والمُرَّار منهم وواسع  
 فجئنا بألف من سليم عليهم لبوس لهم من نسج داود رائع  
 نبايعه بالأخشبين وأمايد الله بين الأخشبين نبايع (1)

فجسنا مع المهديّ مكة عنوةً بأسيافنا والنقع كاب وساطع (2)  
 ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضائق بالنفوس الأضالع  
 صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا قراع الأعادي منهم والوقائع  
 أمام رسول الله يخفق فوقنا لواء كخدروف السحابة لامع (3)  
 عشية ضحاك بن سفيان معتصٍ بسيف رسول الله والموت كانع (4)  
 ندوؤ أخانا عن أخينا ولو نرى مصالاً لكننا الأقربين نتابع (5)  
 ولكنّ دين الله دين محمّدٍ رضينا به ، فيه الهدى والشرائع  
 أقام به بعد الضلالة أمرنا وليس لأمر حمّه الله دافع

في البيت الثامن من هذه القصيدة قوله : فجسنا مع المهديّ مكة عنوة ...  
 يعني بكلمة المهدي محمّداً (ص) الذي اجتباه الله وهداه وجعله خاتم النبيين وأعزّ  
 المرسلين . وهل كان محمّد (ص) ضالاً حتى يقال عنه ذلك ؟ طبعي أن كل إنسان ،  
 بل كل مخلوق لا يهتدي إلاّ أن يهديه الله ، فإذا هداه سبحانه ، أصبح مهدياً ، وكلّ  
 حسب موقعه ودرجته في الهداية وفي المهديين . قال تبارك وتعالى مخاطباً رسوله محمّداً  
 : (ص)

- (1) الأخشبان : جبلان بمكة .
- (2) جسنا : وطأنا . المهدي : نبي الهدى محمّد (ص) . كاب : مرتفع . ساطع : متفرق .
- (3) خدروف السحابة : طرفها . (4) معتص : ضارب . كانع : مقرب .
- (5) يريد أنه من بني سليم ، وسليم من قيس ، كما أن هوازن من قيس ، كلاهما ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس . فمعنى البيت : نقاتل إخوتنا ونذودهم عن إخوتنا من سليم . ولو نرى في حكم الدين مصالاً ( مفعلاً من الصولة ) لكننا مع الأقربين هوازن : ولكن دين الله دين محمّد رضينا به فيه الهدى والشرائع

{ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى } . [7.6: الضحى].

وهذا كلام واضح صريح ، لا يقبل التفافاً ولا تأويلاً . محمد (ص) بشر، في أحسن الحالات خلقه الله من الماء ، قوله تعالى : { ... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... } . [ 30 : الأنبياء ] . وقوله سبحانه : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا } . [ 54 : الفرقان ] .

وقد أعلم سبحانه محمداً (ص) وأعلم الناس كافة عن الطبيعة والماهية البشرية لمحمد (ص) بقوله تبارك وتعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } . [ 110 : الكهف ] . وما دام محمد (ص) بشراً { مِثْلُكُمْ } أي مثل بقية البشر ، فإن الله سبحانه قد خلقه إذن ، كذلك من تراب — كما نص في كثير من الآيات القرآنية - إضافة إلى الماء ، وهذان العنصران : الماء والتراب ، يلتقيان في النتيجة في معنى واحد ، هو الطين .

قال سبحانه مخاطباً محمداً (ص) والبشرية جمعاء : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } . [ 11 : فاطر ] . وقال عزَّ شأنه : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } . [ 71—72 : ص ] . وقال عزَّتْ عظمته مخاطباً رسوله (ص) : { ... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا } . [ 93 : الإسراء ] .

هذه الحقيقة التي لا يجادل فيها إلا جاهل أو معاند أو عاصٍ مصر على المعصية ، أو راد على الله ورسوله (ص) . والراد على الله ورسوله مأواه جهنم وبئس المصير . وأقل هذه الدرجات هو الجهل مع حسن النية ، إذ عسى أن يكون الجهل مع القصور . إذا لم يداخله الشرك . مغفوراً .

نقول هذا بإذن الله تبارك وتعالى ، وننبه لأمر خطير ، وخطورته كونه في كِتَابٍ

كثير التداول ، لا سيما بين أيدي الطلبة الدينيين ، حيث أنه مقرر ضمن

منهاج الدراسة ، في السنوات التأسيسية الأولى ، أي أن الطالب يبني على أساسه عقيدته ، ثم يتخرج ، بعد ، بين محدثٍ أو واعظٍ أو كاتبٍ ، أو كل ذلك ، ليعلمه للناس ، ومن ثم ليؤسس عقائدهم عليه . هذا الكُتَيْبُ اسمه كما هو على الغلاف : " التربية الدينية — دراسة منهجية لأصول العقيدة الإسلامية " لمؤلفه عبد الهادي الفضلي . فقد جاء في الصفحة (60) وتحت عنوان ( شروط الإمامة ) ما يلي : [ ومن الآيات القرآنية التي تفرض أن يكون الإمام عالماً بالشرعية عالماً كاملاً ، قوله تعالى : { ... أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟! } . [ 35 : يونس ] . يخاطب الله الناس بأسلوب الإستفهام ، فيقول لهم : أيهما أحق أن يقتدى بسيرته ، ويرجع إليه في معرفة الشريعة الإمام الذي يهدي إلى الحق ( وهو العالم بالشرعية عالماً كاملاً ) ... أم الإمام الذي لا يهدي إلى الحق ، وإنما يحتاج إلى أن يهديه غيره إلى الحق ( وهو الذي لا يعرف الشريعة معرفة تامة ) ؟ ! ] . انتهى كلام المؤلف الفضلي .

وهذا تحويرٌ واضح لمقصد الآية وقلب لمضمونها ، نعتقد فيه الجهل مع حسن النية ، إذ أن مؤلف الكتاب ، هو على ما نعلم ، من الفضلاء المشهود لهم عند الخاص والعام ، وإنما هي كصبابة ماء ، يظنُّ ماءً عادياً ، وإذا هو من النوع الذي فيه الهيدروجين الثقيل .

هذه الآية : { ... أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى... } هي جواب لسؤالين قبلها . وحتى تفهم الإجابة ، ينبغي أن يفهم السؤال . كما أنه من قلب المفاهيم أن تذكر الإجابة دون أن يعلم السؤال .

والسؤالان قبلها ، هما في قوله تبارك وتعالى :

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } . [ 35 . 34 : يونس ] .

ولعلّ هاتين الآيتين ، مع ثمان آيات في سورة النمل ، من بداية الآية 59 إلى نهاية الآية 66 ، هي أوضح الآيات الكاشفة عن أصل الأصول الذي هو التوحيد . فأولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، إنما يجب أن يكون الإتيان لله عزّ وجل ، أي لتعاليمه ، سواء كانت في كتبه أو عبر أنبيائه وأوليائه والأئمة المهديين أجمعين .

فما من مخلوق يستطيع أن يهدي أحداً دون أن يهديه الله ، وما من مخلوق يعلم شيئاً أو يمكنه أن يعلم أحداً دون أن يعلمه الله .

فإذا كان امرؤ هادياً أو صحّ أن يسمى هادياً ، فإنما يكون بفحوى أن الله من قبل هداه ، فجعله هادياً بما هداه هو سبحانه .

أما قولنا عن أي مخلوق ، حتى عن جبرائيل عليه السلام ، أنه يهدي دون أن يهدي . فهذا خروج من الدين وتجديف على رب العالمين .

وخلاصة هذا الموضوع نجدها محكمةً إحصائياً تقطع القول على كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ذلك لأنه إحصاء إلهي جعله الله حجة دامغة على الأولين والآخرين ، هو قوله تبارك وتعالى في آخر آيتين من سورة الشورى :

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } . [ 52 . 53 : الشورى ] .

فقول الله عزّ وجل مخاطباً رسوله محمداً (ص) : { ... مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ... } واضح الدلالة على أنه محمداً (ص) ، قبل إنزال الوحي عليه لم يكن بإمكانه أن يهدي أحداً من خلق الله . وإنما أصبح عنده هذا الإمكان ، بعد أن أوحى إليه ربه روحاً من أمره سبحانه جعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده ، محمداً (ص) وغير محمّد ، ممن اجتباهم الله أو يجتبيهم في عمر البشرية . وأي نبي أو إمام أو مهديٍّ مميّز عند الله ، إما أن يكون أدنى منزلة من محمّد (ص) وإما في أحسن الإعتبارات مساوياً لمحمّد (ص) ، وفي كلا الحالين ، ينسحب عليه ما ينسحب على محمّد (ص) ، من أنه قبل أن يعلمه الله أو يوحي إليه ، كان جاهلاً ، لا هادياً

ولا مهدياً ، حتى إذا أصبح ذا استعداد وأهلية علمه الله وتفضل عليه بالهداية أو أوحى إليه . أصبح عالماً نسبياً تابعاً لله ولعلم الله ، وهادياً نسبياً تابعاً لله ولهداية الله ، بالقدر الذي يشاؤه له الله سبحانه ويضعه فيه . أما الإطلاق في العلم والهداية وفي كل خير ، فهو لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ذلك ما بيّنه الله سبحانه في آخر الآية الأولى بعد قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ... } قوله عز وجل بعد هذه المقدمة التي هي أساس العلم الحق وأساس المعرفة الحقة عند الخلاق : { ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } وفحوى القول : وأنت يا رسول الله يا محمد ، ويا رسل الله إبراهيم وموسى وعيسى ، ومن جاء قبلكم وبعدكم من أولياء الله الصالحين عليكم السلام أجمعين ، أنتم من جملة ما في السماوات وما في الأرض ملك لله تبارك وتعالى وفي قبضته سبحانه . جميعكم بشر مما خلق ، هو اجتباكم وهداكم إلى صراط مستقيم .

اللهم : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } . [5\_7 : الفاتحة ( الحمد ) ] .

هذه الآيات في سورة الحمد ، التي لا تقوم صلاة النبي ولا الولي ولا أي إمام ولا أي مسلم بدونها . كان يصلي بها محمد (ص) ويؤم بها المسلمين . وفي جميع صلواته ، كما هو واضح ، كان يسأل الله الهداية لنفسه ولجميع خلق الله ، كما علمه وهداه الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

فقوله عزت عظمته : { ... أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى ... } معناه أن الله عز وجل وحده ، هو أحق أن يتبع لأنه هو يهدي وهو الهادي أصلاً وأصالة لجميع المهديين من خلقه ، وليس من شركائكم أيها الناس من يستطيع أن يهدي أحداً دون أن يهديه الله جل جلاله . { ... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

هَدَانَا هَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ. [ 43 : الأعراف ] . وهذا القول الذي هو تعليم من الله ، يتقرب به إلى الله ، الأنبياء والأئمة والمرسلون ، والمؤمنون أجمعون .

أما غير الله ، أي جميع من خلق الله من ملائكة وجن وأصناف بشر ، مما نعلم ومما لا نعلم ، فيستحيل على أحد منهم أن يكون هادياً أو مهدياً ، حتى يهديه الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم السميع البصير .

وأما أن يتصدى بعضهم للآيات البينات ، يجتزئون منها أو يحرفونها ، أو يوظفونها في غير مقاصدها ، منفعلين بروايات ، تحتاج دائماً إلى التحقيق والإسناد الصحيح ، وبعد كل ذلك ، العرض على كتاب الله — كما أوجب ذلك النبي والصادقون الصديقون صلى الله عليهم وسلم — حيث يتساقط أكثرها ، فهذا من عدم التوقير والإجلال والتعظيم لله رب العالمين ولكتابه وآياته . ولا سيما إذا كانت تغني عن الرواية ، أو تحسمها رداً أو قبولاً ، سلباً أو إيجاباً . حيث أن الروايات والأحاديث هي في خدمة الآيات ، وليس العكس أبداً ، ومعلوم أن جميع الآيات ، خلاصتها النهائية هي الدعوة إلى الله وإلى اتباع تعاليم الله لإحراز رضاه ورضوانه في الدنيا والآخرة .

أما من كان مصداقاً لقول الله عز وجل : { كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا } . [ 16 : المدثر ] . بعد أن أعطاه الله ومهد له ليؤمن ويرعوي ويفهم ، فسيرهقه صعوداً ، أي مشقة وعنناً في الدنيا ويصليه النار في الآخرة ، كما سنرى بعد قليل عند ذكرنا لآيات رائعات من سورة المدثر ، يستشعر المتأمل فيها ، الخوف والرهبة والخشوع والإسراع باللجوء إلى رب العالمين .

فليثق الله المؤمنون المعاندون قبل فوات الأوان ، قوله عز وجل : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } . [ 7 : التحريم ] .

أما عن المعاندين الذين أنعم الله عليهم ليهتدوا ويؤمنوا بآياته ، ويكبروا الله على ما هداهم ويشكروا له عامة نعمه ، فأدبروا واستكبروا ، فيقول سبحانه وتعالى في آيات تَهْرُ أَعْمَاقِ الصَّخْرِ وَكُلِّ مَنْ كَانَ فِيهِ ذَرَّةٌ مِنْ عَقْلِ أَوْ هِدَايَةٍ ، وتعيده إلى تقوى الله

وتوحيد الله وتدبر آيات الله ، تعبدًا وحباً ودون إصرار على شرك أو ضلالة ، أو بدعة أو جهالة :

{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَدْتُ لَهُ  
تَمَهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ  
. فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قَاتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ  
. فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ  
مَا سَقَرَ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ... } . [ 11 – 30 :  
المدثر ] .

وقال عباس بن مرداس أيضاً في يوم حنين ، من قصيدة :

غداة وطأنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلاً ولا صرفاً  
بييض نظير الهام عن مستقرها ونقطف أعناق الكمامة بها قطفا  
رضا الله نوي لا رضا الناس نبتغي والله ما يبدو جميعاً وما يخفي  
وقال أيضاً ( من قصيدة ) في حنين :

يا بعد منزل من ترجو مودته ومن أتى بعده الصمان فالحفر<sup>(1)</sup>  
دع ما تقدم من عهد الشباب فقد ولى الشباب وزار الشيب والزعر<sup>(2)</sup>  
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر  
وقال أيضاً في حنين ( من قصيدة ) :  
وعلى حنين قد وفي من جمعنا ألف أمدَّ به الرسول عرندس<sup>(3)</sup>

(1) الصمان والحفر : موضعان . (2) الزعر : قلة الشعر أو تفرق الشعر فوق الرأس .

(3) عرندس : شديدة .

كانوا أمام المؤمنين دريئةً والشمس يومئذ عليهم أشمس  
نمضي ويحرسنا الإله بحفظه والله ليس بضائع من يحرس

ولقد حبسنا بالمناقب محبساً رضي الإله به فنعم المحبس

قال ابن إسحاق : وقال عباس بن مرداس أيضاً ( من قصيدة ) :

من مبلغ الأقوم أن محمداً رسول الإله راشد حيث يمما

دعا ربه واستنصر الله وحده فأصبح قد وقى إليه وأنعما

سرينا وواعدنا قديراً محمداً يوم بنا أمراً من الله محكما

وقال خديج بن العوجاء النصري (وهو مشرك يتوجع على قومه وقد باؤوا

بالخسران والندامة ، وبمفهوم أهل الشرك يصف قوة أنصار الله الذين قادهم محمد

: (ص)

ولما دنونا من حنين ومائه رأينا سواداً منكر اللون أخصفا<sup>(1)</sup>

بلمومةٍ شهباء لو قذفوا بها شماريخ من عزوى إذن عاد صفصفا<sup>(2)</sup>

ولو أن قومي طاوعتني سراهم إذن ما لقينا العارض المتكشفا<sup>(3)</sup>

إذن ما لقينا جند آل محمد ثمانين ألفاً واستمدوا بخندفا<sup>(4)</sup>

\* \* \*

إنتهيت من تأليفه بحمد الله وبِعونه تبارك وتعالى في 25 شوال 1414 هـ

الموافق 6 نيسان 1994 م . في قرية عربصايم اللبنانية العاملة . والحمد لله رب

العالمين .

(1) سواداً : أشخاصاً . الأخصف : الملون .

(2) الملمومة : الكتبية المجتمعمة . شهباء : كثيرة السلاح . الشماريخ : أعالي الجبال .

صفصفا : مستويماً بالأرض . (3) العارض : السحاب . المتكشف : الواضح .

يشبه به جنود المسلمين . (4) خندف : إسم قبيلة .

الفهرس

هذا الكتاب — 5 موجز عن تكليف هود عليه السلام - 199

تحت هذه السماء الإضاءات الكاشفة - 9 حكمة الله وحاكميته في " أحد " - 202

- 205 - حملة عسكرية إلى "أحد" 10 - شريعة الغاب أم شريعة الله في الغاب -
- 210 - { قل إن الأمر كله لله } لا للنبي 13 - المدنية ام الغابات
- 213 - الثواب بعد العذاب : حكم الله 15 - هل تريد أن تكون من المرزوقين
- 214 - الله يقوي الأنفس التي يعلم بها خيراً 19 - مفهوم الولاية ، الإضاعات الكاشفة
- 215 - الله يترك المنافقين تحت وطأة همومهم - 21 - معنى الولاية في اللغة
- 217 - تعليم تحت طائلة المسؤولية 22 - معنى الولاية في القرآن
- 221 - تعريف الموت 38 - من هم حزب الله
- 222 - الأخلاق توفيق من الله 40 - عبادة الله وحده
- 222 - لماذا الآيات ... ولماذا القرآن ؟ 43 - حزب الله ، تنظيم خاص أم الأمة
- 225 - لذلك الآيات ... ولذلك القرآن 44 - متى المهدي المنتظر عليه السلام
- 231 - الشرك آفة البشرية 49 - الولاء على مستوى الباطل
- 241 - محاسبة على الظاهر والباطن ... 65 - وحي الله ، الإضاعات الكاشفة
- 248 - استدرأك 67 - الوحي في اللغة العربية
- 249 - هو الأول والآخر ، والإضاعات 92 - الناس والملائكة
- 251 - " حنين " العبرة التاريخية الخالدة 111 - البدو الحفاة يكتسحون العالم
- 253 - مقدمات واقعة حنين 115 - الله يريد الأرض مجتمعاً يعمل بتعاليمه
- 256 - استعارة أذراع صفوان 118 - من الناصر والكافي ؟
- 256 - الشعر سلاح إعلامي قوي في المعركة - 119 - العبرة الأولى ، الأحزاب
- 258 - انهزم المسلمون .. وثبت الرسول 135 - القديسة الكبرى والنخلة سرُّ
- 259 - شيبية بن طلحة يحاول قتل الرسول 140 - ابراهيم وهاجر وإسماعيل على قمة -
- 260 - وقضى الله للمسلمين بالنصر المبين 151 - مفهوم الشفاعة
- 262 - رسول الله (ص) يقضي بإذن الله 154 - الشفاعة في الدارين: الدنيا والآخرة -
- 264 - الملائكة تحضر القتال 165 - خلاصة صغيرة لمنهجية البحث
- 274 - من قتل قتيلاً فله سلبه 167 - وموسى رفعه الله من وادي النيل
- 275 - اللهم اجبر مصيبتهم .. 178 - هل علم الله موسى السحر
- 275 - اللهم اشهد عليه 179 - زبدة الكلام : الله أم سحر ساحر؟
- 276 - المنهي عن قتلهم 180 - هو فضل الله على الناس
- 276 - الشيماء أخت الرسول (ص) 185 - بين هود والحسين عليه السلام
- 277 - شهداء حنين 194 - { ألا تعبدوا إلا الله } دعوة قائمة -
- 277 - ما قيل من الشعر في حنين 196 - كلام عن الحسين وتخليد ذكراه(ع) -
- 288 - الفهرست 197 - دعوة رائعة إلى الله

